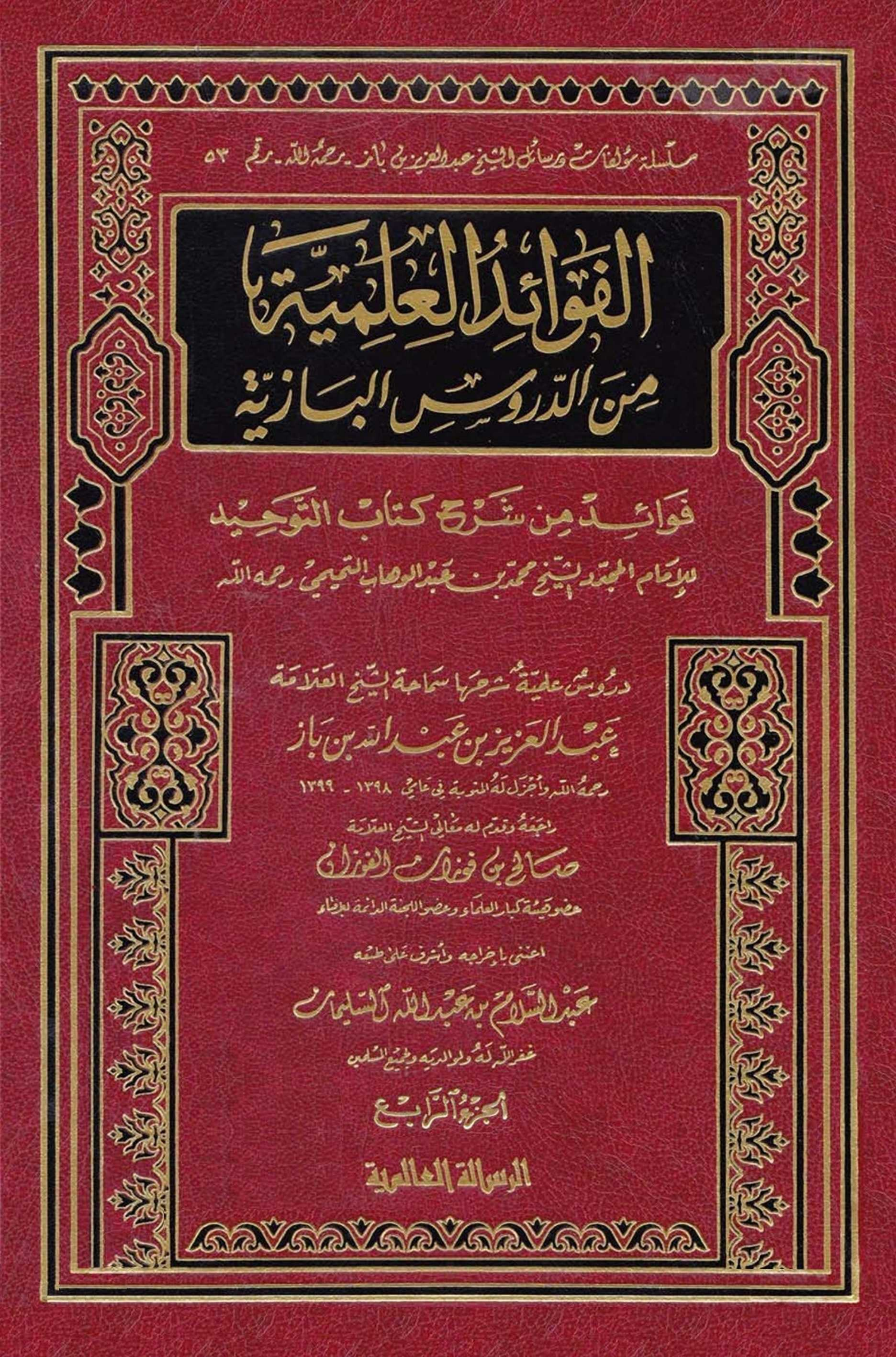

سلسلة مؤلفات ورسائل الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله - رقم ٥٣
الفوائد العلمية
من الدروس البازية
فوائد من شرح كتاب التوحيد
للإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله
دروس علمية شرحها سماحة الشيخ العلامة
عبد العزيز بن عبد الله بن باز
رحمه الله وأجزل له المثوبة في عامي ١٣٩٨ - ١٣٩٩
راجعه وقدم له معالي الشيخ العلامة
صالح بن فوزان الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء
اعتنى بإخراجه وأشرف على طبعه
عبد السلام بن عبد الله السليمان
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين
الجزء الرابع
الرسالة العالمية

بسم الله الرحمن الرحيم



ح عبد السلام بن عبد الله السليمان، ١٤٢٩هـ .

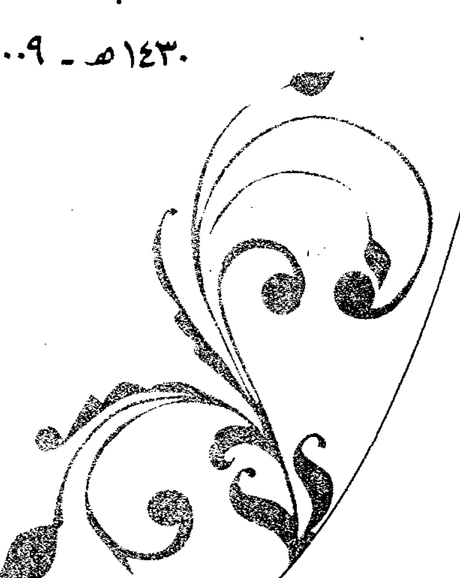
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السليمان، عبد السلام بن عبد الله
الفوائد العلمية من الدروس البازية./ عبد السلم بن عبد الله السليمان . - الرياض ، ١٤٢٩هـ
١٠ مج .- (سلسلة الفوائد العلمية)
ردمك ٣-١٥٢٨-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(مجموعة)
٠-١٥٣٢-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج٤)

١- الاسلام- مبادئ عامة ٢- الثقافة الاسلامية أ. العنوان
ديوي ٢١١ ١٤٢٩/٦٠٩٥

رقم الإيداع: ١٤٢٩/٦٠٩٥
ردمك : ٣-١٥٢٨-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(مجموعة)
٠-١٥٣٢-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(ج٤)

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م



الرسالة العالمية

دار الرسالة العالمية

الإدارة العامة
Head Office

دمشق - الحجاز
شارع مسلم البارودي
بناء خولي و صلاحي

2625
(963)11-2212773
(963)11-2234305

الجمهورية العربية السورية
Syrian Arab Republic

info@resalahonline.com
http://www.resalahonline.com

فرع بيروت
BEIRUT/LEBANON
TELEFAX: 815112- 319039- 818615
P.O. BOX:117460

سلسلة مؤلفات ورسائل الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله - رقم ٥٣

الفوائد العلمية
من الدروس البازية
فوائد من التفسير

دروس علمية شرحها سماحة الشيخ العلامة

عبد العزيز بن عبد الله بن باز

رحمه الله وأجزل له المثوبة في عامي ١٣٩٨ - ١٣٦٩

راجعه وقدم له معالي الشيخ العلامة

صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

اعتنى بإخراجه وأشرف على طبعه

عبد السلام بن عبد الله السليمان

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الجزء الرابع

طبع بإذن من سماحة المفتي العام للمملكة ومؤسسة الشيخ عبد العزيز بن باز الخيرية

دار الرسالة العالمية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقريظ

الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وبعد:

فقد اطلعت على المجموعة المسماة: سلسلة الفوائد العلمية من الدروس البازية جمع الشيخ: عبد السلام بن محمد السليمان فوجدتها مجموعة مفيدة حافلة بدرر من دروس الشيخ عبد العزيز بن باز وتعليقاته وأرجو الله أن ينفع بها ويكتب أجر العاملين للعالم بها ومن جمعها. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

كتبه

صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء

١٤٢٩/٧/٢٨هـ

تقـــريــظ

الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصـــحبه وبعد،

فقد اطلعت على المجموعة المسماة : سلسلة الفوائد العلمية من الدروس البازية جمع الشيخ : عبد السلام بن عبد الله السليمان فوجدهـــا مجموعة مفيدة حافلـــة بـــدرر مـــن دروس الشيخ عبد العزيز بن باز وتعليقاته وأرجو الله أن ينفع بها ويكتـــب أجرها لمن تكلم بها ومن جمعها- وصلى الله وسلم على نبينـــا محمد وآله وصحبه.

كتبـــه

صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء

٢٨/٠٧/١٤٢٩ هـــ

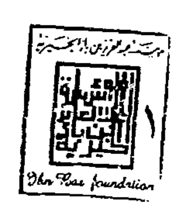
مقدمة اللجنة العلمية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وبعد :

فيطيب للجنة العلمية بمؤسسة الشيخ عبد العزيز بن باز الخيرية أن تقدم بين يدي القارئ الكريم هذا الجمع النافع الموسوم بـ(سلسلة الفوائد العلمية من الدروس البازية) وقد قام بجمعه وإعداده فضيلة أخينا الشيخ/ عبدالسلام بن عبدالله السليمان وفقه الله وسدده .

وقد اشتمل هذا الجمع المبارك على فوائد جليلة ودرر بهية من دروس سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز _ رحمه الله _ وتعليقاته النافعة .

نسأل الله تعالى أن يثيب من جمعها وأعدها ،كما نسأله سبحانه أن يضاعف الأجر والمثوبة لسماحة شيخنا / عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ وأن يجعل هذه الفوائد من العلم النافع الذي يجري عليه أجره في قبره، وأن يجمعنا به والمعدّ والقارئ الكريم في دار كرامته مع الأحبة محمد ﷺ وصحبه .



اللجنة العلمية

بمؤسسة الشيخ عبد العزيز بن باز الخيرية

مقدمه معالي الشيخ/ صالح بن فوزان الفوزان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد :

سماحة الشيخ العلامة الإمام الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رحمه الله المفتي العام للمملكة العربية السعودية ورئيس هيئة كبار العلماء بالمملكة ورئيس اللجنة الدائمة للبحوث العليمة والإفتاء ورئيس رابطة العالم الإسلامي فقد تشرفت بمعرفته رحمه الله واستفدت من سماحته مدرساً في كلية الشريعة بالرياض حيث تلقيت عنه علم الفرائض في هذه الكلية واستفدت من دروسه ومحاضراته خارج الكلية منذ قدمت إلى الرياض لطلب العلم سنة ١٣٧٨ للهجرة، فهو العالم الفذ في علمه وفي عمله وفي أخلاقه وفي حبه للخير وأهله وفي سعيه الجاد في نشر العلم، يعرف ذلك القاصي والداني عنه ، ولقد تشرفت بالمشاركة في العمل تحت رئاسته عضواً للجنة الدائمة للإفتاء وفي هيئة كبار العلماء وفي المجمع الفقهي فاستفدت منه كثيراً، من توجيهاته العلمية وآراءه السديدة لأنه رحمه الله آية في الإلمام بمسائل الفقه وأقوال العلماء ومعرفة الأدلة واستحضارها، وحفظ الأحاديث ومعرفة متونها وأسانيدها ومخرجيها ودرجاتها، فكان لا يأخذ من الأقوال إلا ما ترجح لديه بالدليل، ولا من الأدلة إلا ما صح عنده، كان لا يمل من قراءة الكتب النافعة، والاستزادة من العلم، وكان رجاعاً

إلى الحق لا يمنعه قول قاله بالأمس أن يرجع عنه إلى الصواب إذا تبين له اليوم، عملاً بوصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه وكان يحرص على البحث والمشورة حتى مع من هو أقل منه علماً وخبرة بحثاً عن الحق والأخذ به؛ لأن الحق ضالة المؤمن أنَّى وجده أخذه، كان يحرص رحمه الله على نفع المسلمين بماله وجاهه وشفاعته، يحب المشاركة في المشاريع الخيرية، ويساعد المحتاجين، ويفتي السائلين شفهياً وتلفونياً وتحريرياً، لا يقتصر على عمله الرسمي فعمله دائم في البيت مع سعة صدر، وسماحة بال، وتيسر لقاء به، حيث يجلس لإستقبال الناس الساعات الطويلة من كل يوم ويفتح بابه لمن يريد الدخول واللقاء به دون مانع أو حائل مع قيامه بالدعوة إلى الله من خلال الدروس اليومية التي يلقيها في المسجد ويحضرها المئات من الطلاب والمستفيدين ومن خلال المحاضرات التي يلقيها في المساجد والمنتديات واللقاءات، فكان لا يتوقف، إذا طلب منه إلقاء محاضرة في أي مكان قريب أو بعيد أو طلب منه لقاء فقهي يجيب من خلاله على أسئلة الحضور حتى بواسطة المهاتفة من مكان بعيد وله مشاركات كبيرة في وسائل الإعلام المقروءة و المسموعة في إلقاء الكلمات والنصائح والإجابة على الأسئلة، وله مواقف عظيمة و كثيرة في الرد على أهل الضلال وكشف شبهاتهم وتعرية باطلهم وبيان الحق، يظهر ذلك من ردوده المطبوعة والمسجلة على الأشرطة، ومن كتبه الكثيرة، وفي جانب

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان له دوره الفعال في القيام بهذا الأمر ومساندة ومساعدة القائمين عليه ونصيحة ولاة الأمور ونصيحة الرعية عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم (الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) ، ومهما قلت فإنني أراني مقصراً في وصف ما لهذا العالم الجليل من جهود عظيمة وما تحلى به من فضائل، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وقد هيأ الله عز وجل لهذا الإمام الجليل من قام بجمع علمه ونشره في الآفاق حتى يكون من العلم الذي ينتفع به بعد وفاته يرحمه الله، وهذه المجموعة المعنونه بـ (سلسلة الفوائد العلمية من الدروس البازية) هي جزء من علم شيخنا الجليل يرحمه الله، التي قام بجمعها وإخراجها أخونا الشيخ عبدالسلام بن عبدالله السليمان جزاه الله خيرا، وقد حوت فوائد جليلة يدركها من طالعها وقرأ فيها.

رحم الله شيخنا وأسكنه فسيح جناته وجزاه عما قدم خير الجزاء وأوفاه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء

٢١/ ١٠/ ١٤٢٩هـ

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن هذا هو الكتاب الثالث من سلسلة الفوائد العلمية من الدروس البازية.

وهي فوائد وشروح من دروس سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ ألقاها عامي (١٣٩٨-١٣٩٩هـ) في تفسير بعض الآيات القرآنية.

ولِـما تميز به هذا الشرح ـ ولو لم يكتمل ـ حرصت على إخراجه ضمن السلسلة، لِـما اشتمل عليه من الفوائد العلمية، حيث كانت منهجية الشيخ وطريقته في الشرح في تلك السنوات، تتميز بالإسهاب في شرح المسائل وكثرة الاستدلال من الكتاب والسنة وأقوال أهل العلم، وكذلك العناية التامة برواة الأخبار واستنباط الأحكام من الأدلة.

أسأل الله العلي القدير أن يكتب الأجر والمثوبة لشيخنا ـ رحمه الله ـ وأن يجعل ذلك في ميزان حسناته، وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

سورة البقرة

[التذكير بنعم الله على بني إسرائيل][1]

۞ قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾ [البقرة: ٤٠-٤٤]. [١]

[شرح١] يُذَكِّرُ سبحانه في هذه الآيات بما فعله مع بني إسرائيل من النعم العظيمة، والخير الكثير، والنصر على العدو، ويذكِّر أحفادهم الذين كانوا في المدينة ـ وهم يهود المدينة ـ بما أنعم به على أسلافهم، =

---

(١) هذه العناوين التي بين حاصرتين من وضع المعتني بالكتاب.

....

= لعلهم ينتبهون، ولعلهم يشكرون، ولعلهم يتوبون من جحدهم وكفرهم وضلالهم، ويُقرُّون بنبوة محمد ﷺ وينقادون لما جاء به من الهدى، وهم يعلمون ذلك، وهو موجود في كتابهم «التوراة» ـ العهد القديم ـ فيعدد عليهم النعم العظيمة.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وإسرائيل هو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وإسرائيل معناه: عبد الله، فيذكِّرهم بهذا العبد الصالح وبأولاده، وأن الواجب عليهم أن يتبعوا ما كان عليه من الهدى.

ومن الهدى: الإقرار بالحق، والإقرار بالرسل، فكلما بُعث رسول عليهم أن يتبعوه، وأن ينقادوا لما جاء به، وخاتم الرسل هو محمد عليه الصلاة والسلام، كما هي مبينة صفاته عندهم في «العهد القديم»، وأن عليهم أن يؤمنوا به ويصدقوه، ولكن القوم استمروا في الجهل والضلال، والعياذ بالله.

والتذكير بالنعم دعوة إلى شكرها، وإلى السير على منهاجها، وعدم الجحد والكفر بها، ولكن القوم أكثرهم في ضلال وعماء، وقسوة في قلوبهم وإعراض عن الحق، وإيثار للدنيا على الآخرة، =

....

= والعياذ بالله.

ويبين سبحانه وتعالى في هذه الآيات، النعم الكثيرة التي أسداها إلى أسلافهم؛ لينتبهوا وليذكروا هذا الخير، وليبادروا بالشكر لله سبحانه وتعالى.

والمقصود من ذلك أيضاً تذكيرنا نحن ـ أمةَ محمد ﷺ ـ، وأن علينا أن نحذر ما فعله اليهود، وأن لا نكون مثلهم في إنكار النعم وعدم شكرها، وعدم الخضوع للمنعم سبحانه وتعالى بطاعة أمره وترك نهيه. وقد قال بعض السلف في هذا: مضى القوم ولم يُعْنَ به سواكم؛ يعني: لم يُعْنَ به إلا أنتم، لتستقيموا ولتشكروا الله على نعمه، ولتحذروا غضبه سبحانه وتعالى.

﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ يعني: بالقرآن وبمحمدٍ عليه الصلاة والسلام، وما ذاك إلا أن اليهود هم الذين في المدينة، وهم الذين يسمعون دعوةَ محمد مباشرةً،وقبل مَن كان في مصر أو الشام أو اليمن أو غير ذلك، فإذا كفروا به وأنكروا ما جاء به صاروا بهذا أولَ من كفر به من هـذه الحيثية، وإلا فقد كفر به قبلهم أهل مكة، =

....

= ولـكن المقصود هـنا بنو إسرائيل.

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ وفي هذا أيضاً توبيخ لهم على أعمالهم القبيحة التي جاؤوا بها، والتي منها: أَمْرِهِم الناسَ بالبر ونسيانهم أنفسهم، فهم موبَّخون لنسيانهم أنفسهم لا على أمرهم بالبر، فأمرهم بالبر مطلوب، والعاصي له أن يأمر وينهى، بل عليه أن يأمر وينهى، ولكن عيبُه والذي يؤخذ عليه أن يأمر ولا يفعل، وأن ينهى ويفعل.

فالمطلوب من كل مسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وإن كان عنده معاص، فلو لم يأمر إلا من كان كاملاً لتعطل هذا الواجب العظيم، ولكن على الآمر أو الناهي أن يتقي الله، ولا يتشبه باليهود الذين يأمرون بالبر وينسون أنفسهم، قال بعض السلف في هذا: إنهم كانوا يأمرون أصدقاءهم وأولياءهم بمتابعة محمد ﷺ، فيقولون لهم تابعوا: محمداً، ويبينون لهم أوصافه، ويرشدونهم إليه، وينصحونهم، وهم مع ذلك لا يتَّبعون محمداً عليه الصلاة والسلام. وقال بعضهم: ذلك أنهم يأمرون عامَّتهم =

....

= من أهل الكتاب باتِّباع التوراة والتمسك بها، وهم أنفسهم يخالفونها ويحيدون عنها ويجحدون كثيراً منها بأهوائهم.

وفي كلّ حال هم ملومون على كفرهم، وعصيانهم ما أمروا به غيرهم، سواء كان أمرهم لهم باتِّباع محمد أو باتِّباع التوراة، فهم ملومون على كل حال.

والمقصود من هذا كله أن تتنبَّه هذه الأمة، وألا تكون مثل أولئك اليهود الضالين والمغضوب عليهم، الذين يعرفون الحق ويعلمونه في قرارة قلوبهم، ولكن يحملهم الحسد والبغي وإيثار العاجلة على ترك الحق، نسأل الله السلامة.

[بعض ما وقع لبني إسرائيل من العقوبات]

۞ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: ٥٨-٥٩]. [٢]

[شرح٢] في هذه الآيات ـ كما التي قبلها ـ عِظة وذكرى وبيان لما وقع لبني إسرائيل من العقوبات، وما ساق الله لهم من النِّعم، وأنه سبحانه ابتلاهم بالنعم الكثيرة، وابتلاهم بالمخالفة لكثيرٍ من أوامره، وبسبب ما فعلوه من قتلهم الأنبياء، والاعتداء عليهم، فمن أجل ذلك فرض الله عليهم الذِّلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله ـ نعوذ بالله ـ لأن الله ساق لهم نعماً كثيرة وأرزاقاً متنوعة، وأمرهم بأوامر ونهاهم عن نواهٍ، ولكنهم كثيراً ما يرتكبون النواهي ويعصون الأوامر. =

....

= قيل لهم: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ فدخلوا يزحفون على أستاهِهم، وقالوا: حنطة في شعيرة، وغيَّروا وبدَّلوا. وقد جعل الله طاعتهم حِطَّةً لذنوبهم، ولكنهم لم يمتثلوا، وإنما غيَّروا وبدَّلوا، فصار ذلك من أسباب عذابهم ونَكالهم.

والله ﷻ يغفر للمحسنين ويزيدهم من فضله، فإذا امتثل العبد أمره وابتعد عن نهيه، غفر الله له سبحانه وتعالى وزاده من فضله ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

ولكن إذا أبى العبد إلا العصيان والتباعد عن أمره وارتكاب نهيه، فإنه بهذا متعرِّضٌ لغضب الله وعقابه كما تَعرَّضت اليهود، فصاروا إلى ما صاروا إليه من غضب الله ونكاله، وقسوة قلوبهم وعصيانهم للرسل، واستدبارهم عن الحق إلى يومنا هذا.

ولقد بعث الله نبيه محمداً ﷺ فاستكبروا عن طاعته واستمروا في عصيانه وعدم تصديقه ﷺ، كما فعلوا بموسى وهارون عليهما السلام، وكما فعلوا بعيسى عليه السلام ـ كذبوه ورموه بالعظائم وقالوا: إنه ولد بغي ـ فجرائمهم كثيرة وشرُّهم متلوِّن، نعوذ بالله من هذا. =

....

= والسر في ذلك استكبارُهم عن الحق وإيثارهم العاجلة وعدم شكرهم للنعم؛ لذا فيجب على كل من له أدنى بصيرة أن يتنبَّه لهذا الأمر، وأن يحذر من التشبه بأولئك الأعداء، فالله قصَّ علينا قَصَصَهم لنحذر ولنأخذ العبرة، وأن من ارتكب محارم الله، وتباعد عن أمره سبحانه وتعالى، استحق العقوبة واستحق الغضب ـ وإن كان مَن كان ـ فقد فضَّلهم الله على العالمين في زمانهم، وأعطاهم خيراً كثيراً، وأرسل لهم الرسل الكثيرة، ومع ذلك لما عصوا واستكبروا أصابهم ما أصابهم من غضب الله وعقابه، وحلَّ بهم ما حل من أنواع العقوبات حتى مُسخ بعضهم قردةً وبعضهم خنازير ـ نعوذ بالله ـ بسبب عصيانهم وكفرهم بالله واستكبارهم عن الحق. فلَنا ـ معشرَ أمة محمد ﷺ ـ في هذا عظة وذكرى حتى نحذر معاصي الله، ونقف عند حدوده، وحتى نتباعد عن مناهيه، ونسارع إلى أوامر الله سبحانه وتعالى.

ومن تأمَّل قصة بني إسرائيل في كل مكان رأى فيها العِظة، ففي سورة البقرة وفي سورة الأعراف وغيرهما، يُرى منهم من =

....

= العصيان والاستكبار والمخالفة للأنبياء ما يدل على مرض القلوب وقسوتها وكِبْرِها وحسدها وعدم مُبالاتها بأمر الله، يتوبون ثم ينقضون، ويعملون الصالحات ثم يعودون للسيئات، والعياذ بالله.

فالمقصود من هذا كله أن يَنتَبِهَ العاقل، وألا يكون مثل هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم فاستحقوا العقاب من الله، وأن يَعلَم أن الله سبحانه وتعالى يبتلي بالنعم والنقم، ويبتلي بالسراء والضراء.

فالواجب أن تُقابَل السَّراءُ بشكر الله والقيام بحقِّه، وأن تُقابَلَ الضرّاءُ بالصبر والاحتساب حتى يفرِّج الله، مع تعاطي الأسباب التي شرعها سبحانه لعلاج ما يقع من الضرّاء، فعلاج الذنوب بالتوبة النصوح، وعلاج النِّعم التي يسَّرها جل وعلا بشكره والقيام بحقِّه والاستعانةِ بها على طاعته سبحانه وتعالى، وعلاجُ الأمراض وغير ذلك من الأشياء بالأسباب التي شرعها الله مع سؤاله العافية، والشفاء إلى غير ذلك، فما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء، وأعظم الداء الكفر بالله ثم سائر الذنوب، والله تعالى جعل لـها دواءً وهو التوبة، فمن تاب تاب الله عليه، فنسأل الله العافية =

....

= والتوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله*.

*** س: ما حالات التشبُّه باليهود والنَّصارى؟**

ج: تتنوع، فتارة يكون التشبه بهم في العقيدة وتارة يكون فيما دون ذلك، فقد يُتَشَبَّهُ بهم في العقيدة ـ نعوذ بالله ـ في تكذيب الرسل، كتكذيب عيسى أو محمد عليهما الصلاة والسلام، فمن فعل ذلك صار مثلهم في الكفر بالله، وقد يُتَشبَّه بهم فيما دون العقيدة كارتكاب المعاصي، فمن عصى الله وهو يعلم فقد تشبه باليهود؛ لأنهم عصوا الله على علم فاستحقوا الغضب، فكل من عصى الله على علم فله شبه بهم في استحقاقه خَصلةً من غضب الله.

واليهود ليس لهم خاصية بهذا، فالمقصود أي تشبه بكلِّ أنواع الكفار، فمَنْ تَشَبَّهَ بما اخْتصَّ به النصارى في دينهم، وصار معروفاً من دينهم، أو في أزيائهم الخاصة، فقد أصبح يَقتدي بهم، نسأل الله العافية، وفي ذلك وعيد شديد قال عليه الصلاة والسلام: «من تَشبَّه بقومٍ فهو منهم»[1]، فهو وعيد شديد يجب الحذر منه.

س: ما الحدُّ الفاصل للتشبه بالكفار في اللباس وغير ذلك، وخصوصاً =

---

(١) أخرجه أبو داود: اللباس (٤٠٣١).

....

= أن بعض البلاد التي تسمى بالإسلام لها لباس ـ وبكل أسف ـ بينه وبين لباس اليهود والنصارى وغيرهم شبه؟

ج: إذا انتشر الشيء بين المسلمين وغيرهم فلا يكون فيه شبه بالكفار، وإنما التشبه في شيء من أصل دينهم أو يغلب عليهم دون غيرهم، أما إذا انتشر بين المسلمين مثل: الكنادر، وركوب السيارات، وركوب الطائرات، فهو مشترك، ليس فيه تشبه.

وهذا بخلاف الشيء الذي يكون في زيِّهم أو عاداتهم في بلادهم أو فيما بينهم، فينبغي أن يُتحرَّز منه، مثل: النار للنصارى، ومثل عادة النصارى واليهود في مذياعهم وفي أغانيهم التي يمتازون بها أو غلبت عليهم، فلا يتشبه المسلم بها، وأما ما انتشر بين العالم وصار للعالم كله فهو مشترك فلا يكون هذا خاصاً بالكفار، وليس فيه تشبه بأعداء الله.

س: هل لبس البنطال من التشبه بهم؟

ج: كَثُرَ البنطال الآن بين المسلمين والكفار وانتشر، لكن تركه أولى؛ لأن فِعْلَه يغلب على الكفرة، فأن يُترك ويُتحاشى أحوط، وإن كان قد انتشر بين المسلمين ولبسه المسلمون وغيرهم، ورأوا فيه خفة لهم في أعمالهم وفي غير ذلك، ورأوا أنه أسهل عليهم من اللبس المعتاد. فهذا ـ فيما يظهر ـ يخف فيه التشبه؛ لأنه الآن صار من زي أهل الإسلام، ورأوا فيه مصلحة، =

....

= وقد يقال في هذا: إنه لا يكون تشبه بمحرَّم، ولكن ينبغي أن يُتورع عنه.

ومن هذا الباب لُبس النبي ﷺ الحِبَرَة وهي من برود اليمن، وكان اليمن أكثره كافر، ولُبس الـجُبَّة الشامية في الشام شيء مُشترك، فالذي فَشا بين العرب لا يكون فيه تشبه، فالجبة الشامية التي لبسها يوم تبوك، فلما ضاقت عليه أخرج يديه من أسفلها وغسلهما، وبرود اليمن كانت تُباع في المدينة فيشترونها ويلبسونها لأنها شيء معتاد، وكالأُزُر المخططة أصبحوا ينسجونها في اليمن.

س: إذا لبس الشاب المسلم البنطال لم يكن فارق بينه وبين اليهودي في لباسه، فمثلاً إذا دخل أحدنا محلاً، لا يدري مَن المسلم، فما الرأي؟

ج: هذا شيء آخر، فينبغي أن يكون للشاب ميِّزةٌ في التَّنَقل في البلاد بين المسلمين والكفار، وينبغي أن يكون للكفار ميزة حتى يُعرَفوا وحتى لا يتشبهوا بالمسلمين؛ فإذا كان للمسلمين قوة ينبغي أن يُلزموا الكفار بزيٍّ خاص، وإذا لم يكن لهم قوة ينبغي أن يتزيَّوا هم بزيٍّ يُميِّزهم عن أعدائهم إذا كان هناك اختلاط كثير واشتباه، حتى لا يشتبهوا بالمسلمين في مراكبهم وفي لباسهم، فلا بد عند الاشتباه من العناية بزيٍّ يُميز هؤلاء عن هؤلاء، سواء كان في المسلمين أو في الكافرين.

ومن أحسن من كتب في هذا الباب شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية رحمة الله عليه، فقد كتب في هذا كتابة عظيمة ومفيدة في كتاب: =

....

= «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، وهو كتاب جيد ينبغي أن يقرأ وأن يُعتنى به اعتناءً كبيراً.

[تحويل القبلة]

۞ قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا

جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة: ١٤٢-١٤٧]. [٣]

[شرح٣] في هذه الآيات من التوجيه والإرشاد والدعوة إلى الخير والتنبيه على ضلال اليهود وجَحدِهم للحق واستكبارِهم عن اتِّباعه ما فيه عظةٌ وذكرى لأهل الإيمان، وهكذا شأن كتاب الله جل وعلا في كل مكان، كلُّه عِظة، وكلُّه ذِكرى، وكلُّه توجيه إلى الخير، لكن لمن تدبَّر وتعقَّل، ولمن آمن بأنه من عند الله جل وعلا، وأنه كلامه سبحانه، فجدير بالمؤمن أن يُعنى بهذا الكتاب العظيم، وأن يُقبل عليه دائماً بتدبر وتعقُّل، وأن يحرص على الاستفادة منه، فإنه كتاب الله الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقد قال سبحانه فيه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وفيه يقول: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ =

....

= مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ويقول أيضاً: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

فجدير بالمؤمن ـ ولا سيما طالب العلم ـ أن يَخصَّ هذا الكتاب بالعناية العظيمة في قراءته وتلاوته وتدبُّره، والحرص على الاستفادة منه، ومعرفة مراد الله منه، حتى يعمل بذلك.

فعندما نسخ الله القبلة قبل أن يأتي محمد ﷺ إلى المدينة، حيث صلَّى إلى جهة الشام دهراً طويلاً؛ نحو ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، ثم حوَّله الله إلى الكعبة في رجب أو شعبان من السنة الثانية للهجرة، فبيَّن الله سبحانه وتعالى قول السفهاء من اليهود: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ واستنكروا ذلك وعابوا عليهم هذا التحول عن القبلة التي كانوا يصلون إلى جهتها، وهذا من ظلم اليهود ومن جهلهم ومن عنادهم، فهم يعلمون أن الله جل وعلا ينسخ ما يشاء سبحانه وتعالى، وله التصرف في حُكمِه =

....

= وفي شرعه جل وعلا، ولكن للعيب على المسلمين وللطعن عليهم وللتشكيك فيما جاء به نبيُّهم عليه الصلاة والسلام، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فالمصرِّف هو الله سبحانه وتعالى يولي من يشاء ما يشاء جل وعلا.

ثم بين سبحانه وتعالى أنه جعل هذه الأمة وسطاً، يعني: عدلاً خياراً، حتى تشهد على هذه الأمة بأن الله بلَّغها، وحتى تشهد على الأمم الماضية بأن الرسل بلَّغت؛ فهي أمة عدلٌ لما أعطاهم الله من الإيمان والاستقامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمراد بذلك أن يستفاد منهم لأنهم أمة وسط، والخطاب لأهل الاستقامة الذين جعلهم الله وَسَطاً وعدلاً وخياراً، قال فيهم سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فهؤلاء مستشهَدون على هذه الأمة وعلى غيرها من الأمم أنها بُلِّغت، وأن الرُّسل عليهم الصلاة والسلام قد بلَّغوا، والرسول شهيد على هذه الأمة =

....

= أنه بلَّغها، وأنه أُرسِلَ إليها عليه الصلاة والسلام، وفي هذا بيان لحال اليهود وخُبثهم وضلالهم، وجنس أهل الكتاب مطلقاً، وأنهم يعرفون الحق ويكتمونه على بصيرة، ولكن ربُّنا جل وعلا يُملي ولا يأخذ، فأملى لهم كثيراً، وأمهلهم كثيراً، وعاقبهم كثيراً سبحانه وتعالى.

وهذا يدل على أن الإنسان ينبغي له أن يحذر مشابهة أهل الكتاب في جحد الحق وهو يعلم؛ اتِّباعاً لهواه وإيثاراً لدنياه وشيطانه، واتِّباعاً لما تُمليه عليه نفسُه الأمَّارة بالسوء، أو إيثاراً لحظٍّ عاجل يريد أن يحصِّله في جحده الحقَّ وعدم إقراره به، كما هو دَيدَن اليهود، وديدن رؤساء النصارى وقادتهم وأشباههم من دُعاة الباطل، فكثير منهم يعلم الحق وينكره لأسباب كثيرة، منها: الحسد والبغي، واتِّباع الهوى، وطاعة الرؤساء والأكابر، وطلب الحظ العاجل في الدنيا، ومنها الرشوة إلى غير ذلك.

ففي هذا تحذير من أن يعمل الإنسان مثل عمل أعداء الله من اليهود والنصارى أو غيرهم في إيثار الباطل، وفي جَحْد الحق، وفي =

....

= إنكار ما جاءت به الرسلُ من الهُدَى، من أجل بعض الحظوظ العاجلة، نسأل الله السلامة والعافية.

وفي هذا بيان أن اليهود كانت تعرف رسول الله، وتعرف الحقَّ كما تعرف أبناءها، ولكن حملهم البغي والحسد على إنكار الحق وعلى جحده، حتى لا يقول لهم عامَّتهم: لماذا تعرفون الحق وتُقرُّون به، ثم لا تتبعون هذا الحق ما دمتم تعرفون أن محمداً حق، وأنه رسول الله حقاً؟! فهم يجحدون هذا؛ لئلا يُقال لهم هذا الكلام، ولئلا يُحاجُّهم أتباعهم ورِعاعُهم وعامتهم فيما أقروا به من الحق.

ففي هذا دعوة للمسلمين وحثٌّ لهم على الانطلاق على الطريق السَّوي، وعلى عدم اتِّباع الهوى، وأن أهل الإيمان إذا اتَّبعوا أهواءهم واتَّبعوا أهواء أهل الكفر بالله من اليهود وغيرهم هَلكوا وضلُّوا، فالواجب هو اتِّباع الحق، ولن يرضى عنا مشركٌ قط إلا باتِّباع ما هو عليه من الباطل، وإذا اتبع المسلمون أهواء أعداء الله هلكوا وضلوا عن سواء السبيل، واتِّباع أهواء الكفار تارةً يكون رِدَّةً، وتارةً يكون معصيةً، وتارةً يكون دون ذلك. =

....

= فالحاصل أن الواجب على أهل الإيمان الحذر من اتِّباع الهوى، سواء كان الهوى لزيدٍ أو عمرو أو اليهود أو النصارى أو غير ذلك، وأن يكون هدفه اتِّباع الحق، سواء كان الحق مع أصحابه وأوليائه، أو كان مع خصومه وأعدائه، فهو يُؤثِر الحق ويقبلُه ممن جاء به مطلقاً، وهذا هو الدليل على سلامة الفطرة وسلامة القصد، رزق الله الجميع التوفيق والهداية.

[فضل الصابرين والمقاتلين في سبيل الله]

۞ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ

ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٣-١٦٤]. [٤]

[شرح٤] في هذه الآيات الكريمات من العِظة والذكرى والدلائل العظيمة على وجود الله وقدرته واستحقاقِه العبادة سبحانه وتعالى، وعلى فضل الصبر وفضل الصابرين، وعلى أن الله سبحانه قد يبتلي بعض عباده بشيءٍ من النقص، وأن لهم الفضل العظيم والعاقبة الحميدة إذا صبروا، وفيها الدلالة على الدعوة إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، وهكذا كتاب الله جل وعلا كله دعوة إلى الخير وتحذير من الشر، وبيانٌ لأحكام الله، وحثٌّ على التزامها، وتحذيرٌ مما نهى عنه جل وعلا.

ففي هذه الآيات يأمر سبحانه بالاستعانة بالصبر والصلاة عند =

....

= الـمُلِمّات، وأن الشدائد والكُربات والحاجات التي تنزل بالعبد ينبغي له أن يستعين فيها بالصبر والصلاة، بالصبر على ما ينبغي فيها من أدائها بكل نشاطٍ وقوة، واستكمال ما ينبغي فيها، والحرص على أن تكون على الوجه الذي شرعه الله جل وعلا، فإن الصبر عونٌ للعبد على المُهِمَّات، من جلبٍ مطلوب ودفعٍ مكروه. يُروى عن عمر ﷺ وأرضاه أنه قال: وجدنا خيرَ عيشنا بالصبر[1]. ويروى عن علي ﷺ أنه قال: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبرَ له[2].

فالصبر له شأن عظيم، وقد ذكره الله في مواضع كثيرة من كتابه، قال بعض السلف: إنه ذُكر في أكثر من تسعين موضعاً من كتاب الله، ومن هذا قوله جل وعلا هنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فأمَرَ بالاستعانة بالصبر والصلاة، ثم أخبر أنه مع الصابرين سبحانه وتعالى، =

---

(١) علَّقه البخاري، باب الصبر عن محارم الله، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، قبل الحديث (١٤٦٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢١٠٣١)، وابن أبي شيبة (٣٠٤٣٩).

....

= وهذه معيَّةٌ خاصةٌ تقتضي توفيق الصابرين ونصرهم وإعانتهم وتسديدهم إلى غير ذلك، كما في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦]، وقوله: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]، إلى غير ذلك. فالمقصود أن المعية الخاصة لها شأن غير المعية العامة، فالصابرون هم أهل التقوى والإيمان والثبات على الحق، وينال غيرَهم من أعدائهم من فضل الصبر شيءٌ كثير؛ فالصبر ثبات واستمرار على الحق، وهو الحرص على الأخذ بأسبابه، فإذا أخذ بها أهلُ الإيمان نجحوا وأفلحوا، وإذا أخذ بها غيرُهم فقد يُنصرون بها على ضدهم، فينبغي على أهل الإيمان أن يكونوا أصبرَ الناس وأثبتهم على حقهم، وعلى الدفاع والذَّبِّ عنه، وعلى إنكار الباطل ومحاربته، فإذا كان غيرهم قد يصبرون وهم على باطل،فأهلُ الإيمان والتقوى أولى بالصبر على حقهم والثبات عليه.

ثم فيه أيضاً الدلالة على أن العباد قد يُبتَلَون بالنقص في الأموال والأنفس والثمرات، وقد يُبتَلَون بشيء من الخوف والجوع، وهذا قد يقع لأولياء الله وأنبيائه، فأشد الناس بلاءً =

....

= الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، فالنبيُّ قد يُبتلى، والصالح قد يُبتلى، فينبغي أن يقابل ذلك بالصبر والثبات على الحق والحذر من الباطل، والأخذِ بالأسباب التي تعين على الصبر وعلى الحق وعلى ترك الباطل. والصابر: هو الذي يحبس نفسه على الشيء المطلوب، وعلى ترك الشيء المكروه، ويجاهدها حتى يقطع المسافة وينتهي وقت الخطر.

ثم بيّن جل وعلا ما للصابرين من الخير فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ فهذه بشرى من الله جل وعلا، لما لهم عنده من الصلوات والرحمة والهداية، وهذا من جزائهم؛ أن الله جل وعلا يثني عليهم في الملأ الأعلى ويرحمهم برحمته العظيمة الخاصة، ويهديهم سبحانه وتعالى، يروى عن عمر ﷺ أنه قال: نِعمَ العِدلان ونِعمتِ العِلاوة[1]. العِدلان: الصلاة والرحمة، والعلاوة: الهداية، فينبغي للمؤمن أن يجاهد نفسه في هذا الباب وغيره من أبواب الخير، وأن يتحرى ما شرعه الله له في جميع أموره وشؤونه، وأن =

(١) علقه البخاري في «صحيحه»، باب الصبر عند الصدمة الأولى، قبل الحديث (١٣٠٢).

....

= يحذر الجزاء وعدم الصبر في جميع الأمور، ومن ذلك ما يُبتلى به من موتِ قريبٍ وصديقٍ ونحو ذلك، وما يُبتلى به من مرض أو فقر أو ما أشبه ذلك، فليعالِج بالصبر وليأخذ بالأسباب، والصبر: حبسٌ على الحق وكفٌّ عما سواه مع الأخذ بالأسباب؛ كعلاج المريض وعلاج الفقر وعلاج الأشياء الأخرى التي يُبتلى بها، فيعالجها بما شرع الله جل وعلا، فيعالج ما يبتلى به من معاصٍ بالتوبة والندم والإقلاع، ويعالج المصائب التي تصيبه كالمريض بالدواء، وكالفقر بالأخذ بأسباب العيش المباحة، ويعالج البدع بإنكارها والحذر منها، والدعوةِ إلى السنة، ويعالج الكفر بالتحذير منه والدعوة إلى التوبة والإسلام، وهكذا المؤمن في جميع أحواله يعالج المشاكل بما شرع الله له من الدواء والعلاج، ويصبر على الحق ويثبت عليه، ويأخذ بالأسباب التي تعينه للثبات على الحق وعلى محاربة الباطل.

وفي هذه الآيات أيضاً الدلالة على وجوب إظهار الحق وبيانِه، وأن إظهار الحق أمرٌ لازم، وأن كتمانه من الكبائر ومن صفات =

....

= اليهود الخبثاء، فالمؤمن يُجاهد نفسه في إظهار الحق والدعوةِ إليه والصبرِ على ذلك، ومع ذلك يحذر الكتمان في أي شيء، وإذا وقع منه شيء من ذلك بادر بالتوبة والإصلاح والبيان.

ويبيِّن الربُّ سبحانه وتعالى أن التوبة من تمامها ومن شرطها: الإصلاح والبيان، فمن تاب مما مضى من سيئاته يجب عليه أن يصلح أموره، ويُتبعَ التوبة بالإيمان الصادق والعمل الصالح وبيان الحق، قال: ﴿ وَبَيَّنُوا ﴾ فلا بُدَّ من إظهار الحق والدعوة إليه، ولا بد في التوبة من إتباعها العمل الصالح، ولا بد من إتباعها البيان، فإذا كانت توبة من كتمان فلا بد من بيان حتى يعلم أنه رجع عن باطله، وأنه ثبت على الحق وصار إليه، بخلاف اليهود وأشباه اليهود، فإنهم يرون إظهار الحق والتوبة نقصاً عليهم، فيستمرون في كتمان الحق وإنكاره؛ لأجل تثبيت أهوائهم وأغراضهم الخسيسة، فلا ينبغي للمؤمن أن يتشبه بأعداء الله في كتم الحق وعدم إظهاره لغَرَضٍ من الأغراض، ولا ينبغي له أن يستحيي من الرجوع إلى الحق، فالرجوع إليه فضيلةٌ وحقٌّ، والبقاء في الباطل رذيلةٌ وذلٌّ =

....

= وهو أن وتعرضٌ لسخط الله ﷻ، فلا بد من الرجوع إلى الحق، ولا بد من الحذر من الباطل، حتى تسلم من غضب الله وعقابه، وحتى تفوز بأسباب الكرامة والعاقبة الحميدة.

وفي قوله جل وعلا: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ دِلالةٌ على استحقاقه للعبادة، وأنه الرب العظيم، وأنه المانع القادر، وأنه الرحمن الرحيم، وأنه المالك لكل شيء، وأنه المتصرفُ في شؤون عباده، وأن العبادة حقه سبحانه وتعالى.

ولهذا ذكر بعد ذلك الدلائل على وجوده وربوبيته فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى آخر الآية، فذكر أشياء عديدة تدل على قدرته العظيمة من اختلاف الليل والنهار، واختلاف السماء والأرض، والفُلْكِ التي تجري في البحر بما ينفع الناس من الأرزاق والحاجات الأخرى، فكلها من فضله وإحسانه جل وعلا، فالذي خلق السماوات والأرض وجعل الليل والنهار مختلفَيْنِ، وثبَّت هذه الجواري في البحار من مواخرَ وسفنٍ وغير ذلك، وثبَّت هذه الطائرات في الجو، وأعطى =

....

= العباد ما أعطاهم من المراكب، كل ذلك يدل على استحقاقه العبادة، وأنه الخلاق العليم، وأنه قادر على كل شيء، وهكذا تصريف الرياح، وهكذا السحاب المسخر بين السماء والأرض، وهكذا ما بث في الأرض من دواب، وهكذا ما فيها من معادنَ وجبال وأنهار وبحار، كل هذه دلائل على قدرته العظيمة، وأنه رب العالمين، وأنه الخلَّاق العليم.

فينبغي للمؤمن أن يتفكر وينظر كثيراً في مخلوقات الله وما فيها من الدلائل على عَظَمته سبحانه، كما ينظر كثيراً في شرعه وما أمَرَ به من أحكام؛ لما فيها من الدلالة على حكمته العظيمة، وعلى علمه العظيم، وعلى أنه سبحانه شرع لعباده ما فيه صلاحُهم ونجاتُهم، واستقامة أخلاقهم وحالهم مع ربهم ومع الناس.

ومن تدبر ونظر رأى العِبَر، ورأى الفوائد العظيمة، وكان هذا من أسباب صلاح قلبه وصلاح أعماله، قال بعض السلف: من كانت له فكرة كان له في كل شيء عبرة. فالتفكر والنظر في مخلوقات الله وما أودع في الأرض والسماء، والتفكر في نفسك وما =

....

= جعل فيك من عجائب وآيات وعِبر، والتفكر في غيرك، كل ذلك من الدلائل على عَظَمة خالقك سبحانه وتعالى، وعلى أنه ربُّ الجميع، وعلى أنه الإله الحق، وأنه مستحق العبادة، وأن العبادة لغيره كفرٌ وضلال.

[التوجيه إلى مكارم الأخلاق]

۞ قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٥-١٧٧]. [٥]

[شرح٥] في هذه الآيات التوجيه إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن =

....

= الأعمال، والتحذير من سفاسف الأخلاق، وسيئ الأعمال، وفيها الدعوة إلى القول بالعِلم والأخذ به، والحذر من التقليد الأعمى الذي يشبه صاحبُه البهيمة، وينقاد لكل ناعق، ولا يعرف حقاً ولا باطلاً بدليله، وهذه حال أعداء الله من المشركين ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وفي هذا يقول جل وعلا: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

والمعنى: أنه ليس لهم عناية بالفهم ولا بالدليل، ولكنهم كالبهائم التي يُنْعقُ لها يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ فليس عندهم إلا اتِّباع الأسلاف والأجداد والأصحاب والأصدقاء وما أشبه ذلك.

فالمؤمن مأمور بأن يتَّبع ما أنزل اللهُ، ويأخذ بالحق ويلزمه وإن خالف آباءه وأجداده وأسلافه، وإن خالف عادةَ بلده وقومه، =

....

= ويدعَ الباطل وإن كان عليه أسلافه؛ لأن الله بعث الرسل عليهم الصلاة والسلام لبيان الحق والدعوة إليه، وإنكار الباطل والنهي عنه، فليس لأحدٍ أن يُعرِض عما جاءت به الرسل، ويقول: هذا كلام أبي وجدي، أو عادة قومي، بل يجب عليه أن يقصد الحق ويطلبه، وأن يعمل به مع من كان وممن كان، ولا يتقيد بأنه قال فلان أو ذهب إليه فلان أو ما أشبه ذلك.

وفي الآيات المذكورات أيضاً الدلائل على أن الأصل في الأشياء الحِلُّ والإباحة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ والخطوات: هي ما يدعو إليه من الباطل، فالواجب على المؤمن أن يحذَرَ خطواته، وأن يأخذ بما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام من الهدى والعلم.

ويبيّن جل وعلا أن الشيطان يأمرُ بالفحشاء والمنكر، ويدخل في هذا كل ما نهى اللهُ عنه من الشرك وما دونه، ومن خطواته: الدعوة إلى القول على الله بغير علم، والله حرَّم ذلك كما قال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ =

....

= ﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فجعلها في المرتبة العليا فوق الشرك؛ لأن المشرك قد قال على الله بغير علم، وهكذا كلُّ كافر وكل مخالف للحق قال على الله بغير علم، فالواجب على المكلَّفِين قَبول الحق والأخذ به والحذر من القول على الله بغير علم، وهذا يوجب النظر في الدليل والعناية بما جاءت به الرسل ولا سيما نبينا محمد ﷺ وهو نصيبنا وحظنا. فإن لم يكن عند الإنسان علم فعليه أن يقول: الله أعلم، ويقول: لا أدري، ولا يتكلم بلا علم، فإن القول على الله بغير علم يوقع في شرٍّ كثير، في كفر ومعاصٍ وضلال وتحليلِ ما حرم الله، إلى غير ذلك، وهذا ما يدعو إليه الشيطان، فهو يدعو الناس إلى أن يقولوا على الله بغير علم حتى يكثر الباطل وتكثر البدع والأهواء، وحتى يقِلَّ الحق.

وفي هذه الآيات أمر الله تعالى بالأكل من الطيبات مع الشكر فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فالواجب شكر الله على =

....

= نِعَمه، وإن كان الأصل في الأكل من الطيبات هو الإباحة إلا أن الإنسان مأمور بأن يأكل مما رزقه الله حتى يحفظ قوَّته وصحتَه، ويستعين بنعم الله على طاعته، فالأكل يكون حلالاً ويكون مباحاً ويكون مستحباً ويكون واجباً، ولهذا أطلق الله الأمر بذلك ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ فقد يكون الأكل عليه واجباً إذا كان تركُه يُفضي إلى هلاكه، وقد يكون مستحباً إذا احتاج إلى ذلك، وقد يكون مباحاً على حسب حاجة العبد.

فالحاصل أن الله أباح لنا الأكل من الطيبات وأمرنا بالشكر ووجب علينا أن نشكره سبحانه، وشكرُه يكون بالقيام بحقه قولاً وعملاً وعقيدةً، وهذا مثل قوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، فلو أن أحداً يُسامَحُ من العمل لكانت الرسل أولى بذلك، لأنهم خير الخلق وأفضلهم، وأعلم الناس بالله، ومع هذا أُمِروا بالعمل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾، وهكذا قال للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ والشكر هو =

....

= العمل ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: ١٣]، والعمل يكون بالعقيدة الطيبة الموافقة لشرع الله، ويكون بالقول الطيب الموافق لشرع الله، ويكون بالعمل الصالح الموافق لشرع الله، فالقول وحده لا يكفي، فلا بد من قول طيب ولا بد من عقيدة طيبة ولا بد من عملٍ طيب، بأداء ما أوجبه الله وتركِ ما حرَّمه الله، فالشكر يكون باللسان ويكون بالقلب ويكون بالعمل، أما الشكر باللسان: فهو الثناء على الله جل وعلا بما هو أهله سبحانه وتعالى، وعملُ ما أمَرَ به والنهي عما نهى عنه، والإكثار من ذكره إلى غير ذلك، والشكر بالقلب: محبة المنعِم والإخلاصُ له وخوفه ورجاؤه، واعتقاد ما أباح وما أَحَلَّ وما أوجب إلى غير ذلك، والشكر بالعمل: أداء ما أوجب الله واجتناب ما حرم الله.

ثم ذكر بعد ذلك شدة الوعيد في حق من كَتم ما أنزل الله، وما وُعدوا من البلاء والعذاب بسبب كتمانهم الحقَّ ليشتروا به ثمناً قليلاً، والشراء هنا ليس معناه الشراء الاصطلاحي عند الفقهاء (البيع والشراء)، وإنما المقصود به: الاعتياض، كما في قوله ﷻ: =

....

= ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [لقمان: ٦]، يعني: يعتاض ولو دون بيع وشراء، فالمقصود أن اليهود وأشباه اليهود ممن كتَمَ الحق، ليعتاضوا عنه شيئاً من الباطل، وسمي شراءً لأن الشراء معاوضة، فهو اعتاض عن الحق الذي كتمه دياثة أو جحوداً أو عروضاً أو غير ذلك مما يُعْطاها كاتم الحق من اليهود وغيرهم.

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ إلى آخر الآيات، وهذه فيها أيضاً بيان الإيمان وأنه أقوال وأعمال وعقيدة، فالإيمان عند أهل السنة قولٌ وعمل، قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح، ويعبِّر بعضهم بقوله: قولٌ باللسان وعملٌ بالأركان وعقيدةٌ بالجنانِ، فقول القلب: إقراره واعترافه، وقول اللسان: نُطْقه، وعملُ القلب: بخوفه ورجائه ومحبته وإخلاصه إلى غير ذلك، وعملُ الجوارح: بأداء الفرائض وترك المحارم إلى غير ذلك.

أما مفهوم الإيمان عند أهل البدع، فهو عند بعضهم: القول فقط، وقال بعضهم: المعرفة فقط، وقال بعضهم: القول والكلام فقط، وقال بعضهم: قول وعمل ولكن لا يزيد ولا ينقص، =

....

= كالخوارج والمعتزلة، بخلاف أهل السنة والجماعة الذين قالوا: قول وعمل يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي.

وهذه الآية تدل على قول أهل السنة والجماعة، فقد ذُكر فيها الإيمان وذُكر فيها العمل، فذَكر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، هذه عقيدة القلب، ثم قال: ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ﴾ إلى آخره، هذه هي الأعمال التي تدل على أن الإيمان قول وعمل ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ وهذا أيضاً من عمل القلب والجوارح جميعاً.

ثم قال بعدُ: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ فدلَّ على أن الصادقين المؤمنين المتقين هم أهل القول والعمل، فهم أهل العقيدة الصادقة والعمل الصالح، فالمتقي الصادق المؤمن هو الذي يجمع بين هذه الأمور؛ يقول بلسانه، ويعتقد بقلبه الحق، ويعمل بجوارحه حسب طاقته. بخلاف الكذّابين والـمُقصِّرين، =

....

= فالمنافق يقول ولا يعمل، ليس بصادقٍ، وليس عنده عقيدة، وإنما يقول فقط لحَظِّه العاجل ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، هذا شأن المنافقين وأشباههم من العصاة، يقول ويعتقد ولكن لا يعمل، بل يطيع هواهُ، فتجده مقصراً فيما أوجب الله، تاركاً لبعض ما أوجب الله، فاعلاً لبعض ما حرمه الله عليه من الفواحش والمنكرات، فهذا من ضعف إيمانه وقلة بَصِيرته، وقع فيما وقع فيه من الباطل فصار إيمانه ناقصاً ودينُه ضعيفاً، بسبب أنه ليس عنده من الإيمان القوي والتصديق بالله وأمرِه ونهيه ما يجعله يدع ما حرَّمه الله عليه، ويؤدي ما أوجبه الله عليه بتمام.

فما حصل عنده من الضعف في التصديق والإيمان والرغبة فيما عند الله، والشوق إليه جل وعلا، والإيمان بما أخبر به سبحانه وتعالى من الوعد لأهل الإيمان، والوعيد لأهل الكفر والنفاق، لَـمَّا ضَعُفَ هذا في قلبه حصل عنده ما حصل من النقص، وقد جاء حديث أبي هريرة في «الصحيحين» يدل على هذا المعنى حيث قال =

....

= عليه الصلاة والسلام: «الإيمان بضع وسبعون شعبة»[1]، وفي رواية: «بضع وستون شعبة»[2]، وفي رواية مسلم: «فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان»[3].

هذا الحديث يدلُّ على ما قال أهل السنة والجماعة من كون الإيمان قولاً وعملاً يزيد وينقص؛ فبالأعمال الصالحات يزداد وبالغفلة والإعراض والمعاصي ينقص، فالواجب على المسلم أن يعنى بهذا الأمر، وأن يحذر من نقص إيمانه، وضعف إيمانه في إقدامه على ما حرم الله، أو تساهله بما أوجب الله، أو غفلته عما يجب عليه.

ومن أسباب هذا الخير التواصي بالحق والتناصح فيما بين المسلمين، والتعاون على البر والتقوى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الإنسان يغفل أو يجهل، فإذا وجد من إخوانه من ينصحه ويذكره ويشجعه على الحق ويحذره من الباطل ويزجره عنه =

---

(١) أخرجه مسلم: الإيمان (٣٥).

(٢) أخرجه البخاري: الإيمان (٩)، ومسلم: الإيمان (٣٥).

(٣) أخرجه مسلم: الإيمان (٣٥).

....

= ويبين له سوء مغبَّته صار بذلك من أسباب رجوعه إلى الحق، ومن أسباب نشاطه في الخير، ومن أسباب تركه لما حرَّم الله.

وأما الغفلة وقلة الداعي وقلة الـمُنْكِر للمُنْكَر وقلة الآمر بالمعروف، فإن هذا مما يزيد الباطل باطلاً ويزيد الغفلة غفلةً ويزيد الكسل كسلاً ويزيد المقصر تقصيراً إلى غير ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[حِكَم وأسرار خلق الأهلّة]

۞ قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ

مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾

[البقرة: ١٨٩-١٩٩]. [٦]

[شرح٦] في هذه الآيات الكريمات فوائد عظيمة وأحكام كثيرة، يعرفها طالب العلم بالتدبر والتعقل لهذه الآيات العظيمات، =

....

= وتُعرف أيضاً بدَرْس ذلك من كتب التفسير، ولكن نذكر بعض ما اشتملت عليه من بعض الأحكام:

يقول الله جل وعلا: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ يُبيِّن سبحانه وتعالى أن الله خلق هذه الأهلَّة لِحِكَمٍ وأسرار، ذكر منها أنها مواقيت للناس والحج، بها تُعرف الشهور والسُّنون، ويعرف الناس آجالَ ديونهم، وعدةَ نِسائهم، إلى غير ذلك، فالله سبحانه لم يخلق شيئاً عبثاً ولا سُدى، بل كل ما خلق وكل ما شرع هو لمحض الحكمة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٨٣]، قال بعضهم: إنهم سألوه عن الأهلَّة كيف تطلع ضعيفة دقيقة، ثم تنمو حتى تمتلئ ويكون نورها، ثم تضعف بعد ذلك، إلى آخره، وقيل: سألوه عن حكمة ظهورها وغروبها. فالله جل وعلا يُبيِّن لهم أن الحكمة تتحقق بكونها مواقيتُ للناس والحج، يعرف الناس بها مواقيت معاملاتهم وديونهم وحقوقهم وعِدَدِ نسائهم ووقت الحج ونحو ذلك.

ثم يُبين جل وعلا أن ليس البِرَّ بأن نأتي البيوتَ من ظهورها، =

....

= وليس البِرَّ بأن نُوجِّه وجوهنا قِبَل المشرق في آية أخرى، ولكن البِرَّ هو التقوى والإيمان، ففي هذه الآية: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ وفي الآية السابقة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية، فيبين سبحانه أن البِرَّ ليس بأن يُولّي العبد وجهه هاهناك أو هاهنا، ويدخل من هذا الباب أو ذاك، أو من ظهر البيت، ولكن البر هو إيمانه بالله وتقواه لله سبحانه وتعالى، وأن يكون عبداً مأموراً، وأن يكون مطيعاً لله ولرسوله ﷺ، مهما أُمرت ائتمرتَ، ومهما نُهيت انتهيت، وذلك عن إخلاص وعن إيمان، لا عن هوى وأغراضٍ خاصة، ولا عن تقليد أعمى، فهذا هو البِرُّ، وهذا هو الإيمان، وهذا هو الدين.

ومن فوائد هذه الآيات قوله جل وعلا: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ للناس في هذه الآية تفسيران:

أحدهما: أنه يُراد بذلك أننا نقاتل من قاتَلَنا، ونكفّ عن من كفَّ عنا، كما هو الحال في أول الأمر، فقد كان المسلمون يقاتِلون =

....

= من قاتلهم ويكفُّون عن من كف عنهم، كما قال جل وعلا في سورة النساء: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠]، ثم نُسخ ذلك في الآيات الأخرى التي بعدها: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] والآية في سورة التوبة: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

فمتى نكفُّ عنهم؟ قال: إن تابوا من الشرك، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، فخلُّوا سبيلهم، فدلَّ ذلك على أنه لا يُكَفُّ عنهم إلا إذا تابوا من شركهم وأدَّوا حق الله، أو أدَّوا الجزية كما ورد في الآية الأخرى في أهل الكتاب: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] من أهل الكتاب ومن يلحق بهم من المجوس، هذا أحد القولين وهو قول جيد. وقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ أي: ولا تبدؤوهم بقتال وهم ما بدؤوه. =

....

= والقول الثاني: أن الآية الكريمة ليست في هذا المعنى، وأن المراد: قاتِلوا مَن هو أهل للقتال ومستعد للقتال، وهم الرجال الكبار، بخلاف النساء والصبيان والشيوخ العاجزين وأشباههم، فإن هؤلاء ليسوا أهل قتال، قالوا: ويدلُّ على هذا أنه قال بعد ذلك بقليل: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ فدلَّ هذا على أن المراد بذلك قتال من هم من أهل القتال، وليس المراد قتال من قاتل والكف عمن كفَّ، فهذا أمر قد مضى وانتهى، ومن هذا قوله في سورة الأنفال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وهي الشرك، وتطلق الفتنة أيضاً على الكفر والردة عن الإسلام، فالمعنى: قاتلوهم حتى تزول فتنتهم لكم بإيقاعكم في الشرك، وحتى يزول الشرك نفسُه بالتوبة إلى الله ﷻ، وذلك ليكون الدين كله لله ويعبد الناس الله جل وعلا ويدَعُوا ما هم عليه من الباطل والشرك.

ولا منافاةَ بين القولين؛ فقد استقرت الشريعة على أن المسلمين يقاتلون من قاتلهم ويبدؤون من لا يقاتلهم إذا كانت لهم =

....

= القوة؛ لأنهم يَدعون إلى الجنة، ويَدعون إلى النجاة، ويَدعون إلى صلاح المجتمع، ويَدعون إلى عمارة هذه الدنيا بطاعة الله ورسوله وتوحيده سبحانه وتعالى، فلهم أن يبدؤوا ولهم أن يقابِلوا.

وأما قول من قال من الكُتّاب: إن الإسلام يُدافع فقط ويقاتل مَن قاتل فقط، على هذا الإطلاق، فهو خطأٌ من قائله، إنما كان هذا في فترةٍ من الزمان وفي وقت من الأوقات كان يدافع فقط، ويكف عمن كف، ثم لما قوي المسلمون وفتح الله عليهم مكة، وصارت لهم شوكة عظيمة وقدرة على قتال أعداء الله خرجوا لقتالهم؛ فخرجوا مع النبي ﷺ لقتال الروم في غزوة تبوك، وقاتلوا أهل خيبر عام سبع من الهجرة، وخرج المسلمون بعد وفاته ﷺ إلى الروم وإلى فارس وقاتلوا أعداء الله ولم يقفوا عند حدِّ الدفاع فقط، فالإسلام ليس دين دفاع ولكنه دين دفاع وبدء وهجوم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولإخراجهم من الباطل إلى الحق، لدعوتهم إلى ما فيه نجاتُهم وسعادتهم، والحكم بينهم بما فيه الخير لهم والصلاح والسعادة العاجلة والآجلة، فكيف يكون دينَ دفاع =

....

= فقط؟! هذا خطأ كبير، ثم هذا مخالف لهذه الآيات الكريمات، فكلها تتفق على أن القتال يستمر﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ فعُلم بذلك أنه يقاتل فداءً لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولإنقاذهم من الجَور والظلم ـ ظلم الأديان وظلم الظَّلَمة ـ إلى عدل الإسلام ونوره وسعته، وإلى الحق والهدى، وأن به نجاتَهم وسعادتهم في العاجل والآجل، وهذا هو الصواب، فالجهاد له أطوار:

الطور الأول: الجهاد فقط.

والطور الثاني: قتال من قاتل والكف عمن كف وجوباً.

والطور الثالث ـ وهو أعلى الأطوار ـ: القتال ابتداءً لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وإنقاذهم من الباطل، ولإخراجهم من حكم الجوَرَة والظَلَمة وضيق الدنيا إلى عدل الإسلام وسعته، وإلى أسباب النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة.

وإذا كان الكفرة يقاتِلون الناس لمصالحهم العاجلة، ويستعبدونهم ليأخذوا ثروات بلادهم ويظلموهم، فكيف =

....

= يستنكرون على الإسلام وكيف يعيبون الإسلام بالبدء بالقتال لإخراج الناس من الظلمات إلى النور لنفعهم ولمصلحتهم، لا لمصلحة المسلمين، ولا لأجل الطمع في الدنيا؟! إنما قاتلوا أعداء الله لإخراجهم من الظلمات إلى النور لا لأجل المال، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لعلي رضي الله عنه لما بعثه إلى خيبر: «والله لأنْ يهدي اللهُ بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمُر النعم»[1]، يبين للناس أن المقصود ليس هو المال ولا النساء ولا الذرية، إنما المقصود هدايةُ الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ولهذا هداية الواحد خير من الدنيا وما عليها. وفي الحديث: إذا أمَّر أميراً على جيش أو سَريةً أوصاه بتقوى الله[2]، كما في حديث بُريدة، ثم يأمره أن يستعين بالله ويقاتل الكفرة، ثم بعد ذلك إذا أبوا إلا الجزية أخذ منهم الجزية وكف عنهم.

وهذا ـ عند العلماء ـ في اليهود والنصارى والمجوس، لأن الرسول ﷺ أخذها منهم، وما سواهم يُقاتَل حتى يدخل في =

(١) أخرجه البخاري: المناقب (٣٧٠١)، ومسلم: فضائل الصحابة (٢٤٠٦).

(٢) أخرجه مسلم: الجهاد والسير (١٧٣١).

....

= الإسلام؛ لأن الرسول ﷺ لم يأخذ من أهل الجزيرة جزية بل قاتلهم حتى دخلوا في دين الله، فقاتل أهلَ مكة، وقاتل الصحابةُ بني حنيفة ولم يأخذوا الجزية ولم يرضوا بذلك ولم يدعوهم إليها، بل دعوهم إلى الدخول في دين الله، فالجزية تؤخذ من اليهود والنصارى بنص القرآن، ومن المجوس بنص السنة، أما ما سواهم فلا تؤخذ منهم الجزية عند أكثر العلماء، وقال آخرون: بل يلحق بقية الكفرة إذا أدوا الجزية لحديث بُريدة المتقدم.

والحاصل أن الإسلام ليس دينَ دفاع فقط، إنما كان دين دفاع عند العجز والضعف، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن الآية لم تُنسخ، وآيات الدفاع لم تُنسخ، ولكن المسلمين لهم حالات: حالة تكون عندهم قوة ونشاط وعددٌ وعُدة، فلهم حينئذٍ أن يدافعوا وأن يبدؤوا، وحالةٌ أخرى يكون عدوُّهم مسيطراً عليهم وليس عندهم من القوة ما يقابِل، ويُخشى عليهم من أن يستبيح العدو غيرتهم، ففي هذه الحالة يكتفون بالدفاع، والدليل الذي يقطع بالدفاع هو حال المسلمين في أول الإسلام وقبل أن يقووا كانوا يدافعون فقط. =

....

= وهذا هو أصل المقال، وهو الحق الذي ينبغي أن يُعلم، وقد أوضح هذا المعنى جماعة من أهل العلم منهم أبو العباس ابن تيمية رضي الله عنه في كتابه «الصارم المسلول للرد على شاتم الرسول» وغير ذلك، ومن تدبر كتاب الله وجد ذلك، وقد كتب الناس في هذا كتاباتٍ كثيرة لبيان هذا الحق وإيضاحه، ومن ذلك أني كتبت رسالة مختصرة في هذا السبيل لإيضاح هذا الحق وبيان وجه الصواب فيه، وقد طُبعت.

ومن أحكام هذه الآيات العظيمات: بيان حُكم الإحصار، وأن المُحصَر إذا أُحصِر يحل: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ فإذا أُحصِر المسلم قاصد الحج والعمرة فإنه يحل وينحر هدياً ويحلق ويرجع إلى بلاده. وقد وقع هذا للنبي ﷺ، فأحصره أهلُ مكة في عام ست من الهجرة، ولم يمكّنوه من دخول مكة، فنحر هديه وحلق رأسه، وهكذا فعل أصحابُه، ثم رجعوا إلى المدينه بعد ما تمت القضية بينهم على أن يعتمروا في العام القادم، وسميت هذه عمرة القضاء. =

....

= فالمقاضاة: المصالحة، وهذا لا بأس به وهذا من عدل الإسلام، ومن محاسن الإسلام أن يرضخ للحصر والاتفاق على الرجوع إذا دعت الحاجة إلى ذلك، أو عجز على مقاومة العدو، وله مصلحة في ذلك، فلا مانع من أخذه بحكم الحصر، فينحر الهدي ويحلق أو يقصر ويرجع إلى بلده إلى وقت آخر.

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ هذا في الحصر، أما في الحج فلا بأس أن يحلق قبل أن يُهدي، وقد ثبت عنه ﷺ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: يا رسولَ الله، حلقتُ قبل أن أذبح، قال: «لا حرج»[1]، فدل ذلك على أن المراد من ظاهر الآية الإحصار خاصة، لأن الرسول ﷺ نحر قبل أن يحلق وأمر أصحابه بذلك، أما في الحج فالأفضل أن يفعل أربعة أمور مرتّبة:

أولاً: رمي الجمار للمغيب.

ثانياً: النحر أو الهدايا لمن كان عنده الهدي. =

---

(١) أخرجه البخاري: الحج (١٧٢٢)، ومسلم: الحج (١٣٠٧).

....

= **ثالثاً**: حلق الرأس أو التقصير، والحلق أفضل.

رابعاً: الطواف والسعي لمن عليه سعي.

هذا هو الترتيب المشروع، لكن النبي ﷺ رخَّص في تقديم بعضها على بعض، فلما سُئل عن ذلك قال: «لا حرج»، وهذا من فضل الله وإحسانه بعباده.

ومن فوائد هذه الآيات العظيمات: تنبيهه سبحانه على أن الذي ينبغي للحُجّاج أن يتزودوا ولا يحجوا فقراء عالةً على الناس يسألونهم، بل إن قووا على الحج وعندهم مال حجُّوا وإلا تركوا، ولا ينبغي أن يكون الحاجُّ كَلًّا على الناس وسائلاً لهم، فإن سؤال الناس ذل لا ينبغي للمؤمن أن يرضى به إلا عند الضرورة.

ثم نبَّه على زاد أعظم وأكبر، والذي خُلق العباد من أجله، وهو التقوى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ نبَّه على الزادَين: زادِ الدنيا الذي يحتاجه المسافر، وزاد الآخرة، زادِ السفر العظيم من هذه الدنيا إلى الآخرة وهو التقوى: ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ فأنت يا عبد الله في أشد الحاجة إلى هذا الزاد العظيم، زاد من =

....

= تقوى الله وطاعته سبحانه وتعالى، وأن تستمر على الزاد وأن يكون معك هذا الزاد دائماً، فزاد الدنيا قد يستغني عنه الإنسان في بعض أحيانه، فقد يقضي المؤمن الليلة ولا يحتاج إلى طعام وشراب، لكن زاد التقوى يجب أن يكون معه دائماً أبداً عند كل نَفَس، فيكون مُلتزماً بتقوى الله وطاعته وتعظيمه وترهيبه، والإخلاص له في قيامه وقعوده وفي سفره وإقامته، وفي جميع الأحوال يكون مُلازماً لتقوى الله ومُلازماً للإيمان بالله ملازماً للوقوف عند حدود الله، أينما كان يرجو الله ويخشاه سبحانه وتعالى.

ومن فوائد هذه الآيات أيضاً: كأن الإنسان بعدما يمُنّ الله عليه بالعمل الصالح ويحسن إليه، ينبغي له أن يستشعر في نفسه أنه في حاجة إلى الاستغفار، وإلى الذكر، ولم يُعمل عملٌ يبلغ الكمال، فلا بد من نقص، فلا يُعجَب بعمله أحد، ولا يَمُنُّ بعمله أحد، بل يستشعر أن الفضل لله وحده، وأن الله هو الذي مَنّ عليه بهذا العمل ويسَّره له من حج أو صلاة أو صيام أو غير ذلك. فينبغي له أن يستشعر مِنَّةَ الله وفضله عليه وإحسانه سبحانه وتعالى، حتى =

....

= يستغفر من تقصيره، وحتى يُكثر من ذكر الله ومن الاستغفار، ويحصل إتمام ما قد نقص، إلى غير ذلك من الفوائد العظيمة.

ولهذا شرع لهم إذا أفاضوا من عرفات أن يستغفروا الله ويكثروا من ذكر الله بعد الحج، وهكذا في الصلاة إذا سلّم الإنسان يستغفر ربه، ويشعر وكأنه مقصِّر، وقوله: «أستغفر الله، أستغفر الله» بعد السلام استشعار بأنه لم يقم بالواجب كما ينبغي، وأنه محلُّ النقص في هذه الصلاة، فأنت يا عبدَ الله في حاجة إلى الاستغفار دائماً، وإلى طلب العفو، وإلى ذكر الله ﷻ، فإن مَن ذَكر الله ذكره الله ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، فإذا غفلتَ فأنت معرَّض لشياطين الإنس والجن، فينبغي لك في سائر أوقاتك أن تكون مُستشعراً لعظمة الله وكبريائه ومراقبته لعبادتك واستغفارك، وأنك محلُّ النقص ومحل العيب. فأينما كنت فلتُكثر من الاستغفار والتوبة والندم إلى الله، وإلى دعائه واستغفاره وذكره سبحانه وتعالى، ولاسيما بعد العبادة، حتى لا يقع في نفسك شيء من العُجْب أو منّة على الله سبحانه وتعالى، فالله =

....

= هو الذي وفقك وأعانك على العبادة قبلها وبعدها سبحانه وتعالى*.

* س: ما المقصود بقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]؟

ج: أجمع العلماء أن معنى «ال»: أن مَن دخل الحج وجب إتمامه، ومَن دخل العمرة وجب إتمامها، بخلاف النوافل الأخرى فلا بأس أن يقطعها مع أن الإتمام أولى، ولكن الحج والعمرة لا بد من إتمامها.

س: هل المعنى كما في قراءة مسروق وعلقمة: (وأقيموا الحج والعمرة لله)؟

ج: قد يكون المعنى، لكن القراءة المشهورة هي: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، ولا يعني الإقامة، فالإقامة لا تعني الإكمال والإتمام.

[حكم القتال في الشهر الحرام]

۞ قال تعالى: ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢١٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨) ﴾ [البقرة: ٢١٧-٢١٨]. [٧]

[شرح٧] في هذه الآيات الكريمات فوائد جمة، وكتاب الله كله فوائد، فالسعيد من تدبَّره وتعقَّله وعمل بما فيه، والشقي من أعرض عن ذلك واتبع الهوى والشيطان، نعوذ بالله من ذلك.

يقول سبحانه هنا: ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ =

....

= فقوله: ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدل من: ﴿ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ فهم يسألون عن حكم القتال في الشهر الحرام، قال تعالى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ يعني: كبير الإثم. فالله جل وعلا حرَّم القتال في الأشهر الحرم لِحِكَمٍ عظيمة، ومنها أن يتسهل للكفار التداول في حاجاتهم، والأسفار في حاجاتهم، والانتقال من بلد إلى بلد لمهماتهم في هذه الأشهر، وهي ثلاثة متوالية: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، والرابع: رجب بين جمادى وشعبان، هذه الأربعة الحرم.

وقد اختلف أهل العلم هل تحريمها باقٍ أم نُسخ إلى قولين الجمهور على أنه نُسخ، واحتج بعضهم على ذلك بأن الرسول ﷺ بدأ القتال مع هوازن في آخر شوال وفي بعض ذي القعدة أو أول ذي القعدة، وبعضهم يقول: في ذي القعدة، وليس ذلك بمحفوظ. والأرجح قول من قال بتحريم القتال فيها، وأنه لا يُبدأ الكفار بالقتال، فإن بدؤونا قاتلناهم، كالمسجد الحرام، لا نبدأ فيه بقتال، فإن قاتلونا قاتلناهم؛ لأن الآية مُحكمة، وليس هناك دليل واضح للنسخ، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ =

....

= شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٣٦]، والمقصود أن ظاهر الآيات يقطع بتحريمها، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

كل هذه الأشياء أكبر من القتال في المسجد الحرام؛ لأن المشركين عابوا على المسلمين ما قد وقع من بعض السَّرايا في ذلك، فبيَّن لهم سبحانه وتعالى أن هذا عظيم، وأنه إقدام على ما حرَّم الله، ولكن أعظم من ذلك وأكبر ما ذكره بعد ذلك ﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ يعني: صدُّكم الناس عن الحق والهدى وكفركم به جل وعلا.

﴿ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ يعني: كُفرهم بالمسجد الحرام =

....

= وحُرُماته ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ﴾.

ثم قال: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ يعني: فتنة الناس بدعوتهم إلى الشرك بالله أكبر وأعظم مما عِبتُم على المسلمين.

ثم قال جل وعلا: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ يبيِّن سبحانه أن الكفار ما يزالون في كيدهم للإسلام وأهله، وحرصهم على إخراجهم من دينهم الحق إلى الباطل، فهم لا يزالون هكذا يكيدون بكلِّ أنواع الكَيد والمَكْر، والواجب على المسلمين أن يحذروهم وألا يغتروا بما قد يُبدونه من ولاية أو مساندة، فإنهم قد يفعلون ذلك لمقاصد أخرى حتى يتمكنوا من باطلهم.

ثم يقول جل وعلا: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ يبين سبحانه أن من ارتدَّ عن دينه حَبِطَ عملُه وخسر الدنيا والآخرة، وباء بالخيبة والندامة بدخول النار، هذا حكمه في الآخرة، أما في الدنيا فيجب =

....

= أن يُقتل، ففي الحديث الصحيح: «من بدل دينه فاقتلوه!»[1]، وهذا يبين لنا نشاط الكفار وحرصهم على ارتداد المسلمين وكفرهم، وأن من يرتد عن دينه ومات على ذلك فقد حبط عمله.

ويستفاد من هذه الآية العظيمة أن حُبوط الأعمال معلَّق بالرِّدة والموت جميعاً، فمن ارتد ومات على ذلك حبط عمله، ومن هَداهُ الله ورجع إلى الحق وإلى دين الله لم تحبط أعماله؛ حيث يكون قد أسلم على ما أسلف من خير، وهذا يوافق ما جاء في حديث حكيم بن حزام، لما ذُكر للرسول ﷺ أنه فعل في كفره أشياءَ من عتاقةٍ وصدقةٍ وغير ذلك، فقال له النبي ﷺ: «أسلمتَ على ما أسلفتَ من خير»[2]. فالإنسان برجوعه للإسلام ودخوله في الإسلام، يُحْرِز ما سبق من العمل الصالح من صِلة رحم أو صدقات أو عتق وما أشبه ذلك، فإذا أسلم يبقى له هذا الشيء فضلاً من الله سبحانه وتعالى، وهذا يبين لنا أن المرتد تبطل أعماله من حج وصلوات وغير ذلك إذا مات على ردته، ولا تنفعه، =

---

(١) أخرجه البخاري: الجهاد والسير (٣٠١٧).

(٢) أخرجه البخاري: الزكاة (١٤٣٦)، ومسلم: الإيمان (١٢٣)، واللفظ لمسلم.

....

= قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] نسأل الله العافية، لكن لو رجع وتاب إلى الله بعد ردةٍ، واستقام، فإنه يبقى له العمل الصالح السابق؛ لأن الشرط لم يوجد، وهو موته على الكفر. ومما يدل على هذا أيضاً الآية الكريمة الأخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ [آل عمران: ٩١] فتقييده ذلك بقوله: ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يوافق هذه الآية. وهذه الآيات مقيِّدات للآيات الأخرى التي هي للإطلاق، مثل ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] وأشباهها، فحبوط العمل مقيَّدٌ بالموت على الردة، فمن هداه الله ورجع للحق والصواب بقي له عمله الصالح كما تقدم في حديث حكيم بن حزام، والله تعالى أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨] في هذه الآية دلالة على أن الرجاء الصحيح إنما يكون مع العمل، أما من فرَّط وأضاع فرجاؤه خِداعٌ وظلم لنفسه وتفريط، وهذا من =

....

= الشيطان ومن النفس الأمارة بالسوء، ومن الخداع للنفس حتى تستمر في باطلها، فالله جل وعلا يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ والمعنى: أن هؤلاء الذين فعلوا هذه الأشياء هم الراجون لرحمة الله، وأما المُفرِّطون والمضيِّعون فليسوا على الرجاء الحقيقي، بل على خطر، وعلى سوء عمل وتفريط، فهم جديرون بالعقوبة لتفريطهم وإضاعتهم.

ومن هذا قوله سبحانه وتعالى في سورة براءة: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة: ٧١] فعلَّق الرحمة بهذه الأعمال العظيمة، فهؤلاء الذين هذه أعمالهم وهذا شأنهم وهذه صفاتهم، هم الذين يرجون رحمة الله، فالراجي والخائف هو الذي يعمل، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ =

....

= ﴿لَا يُشْرِكُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١] فهؤلاء بإيمانهم وإشفاقهم وخوفهم من الله سارعوا إلى الخيرات، فإذا فرط منه شيء من التقصير في أداء الواجب أو ركوب المحرم بادر بالتوبة وبادر بالإصلاح والخوف من الله والتوبة إليه، هذا هو الدليل على صدق الرجاء، وعلى صدق الخوف، وعلى صدق الرغبة فيما عند الله سبحانه وتعالى، ولا حول ولا قوة إلا بالله*.

---

* س: ما حُكم الخوف من الجن عند بعض الناس؟ فإنا نسمع من بعض العامة أنك إذا أَرقتَ ماء حاراً تُسمي؟

ج: الخوف من الجن مثل الخوف من الإنس، والخوف الطبيعي لا بأس به، فلا بأس أن يتحرى الإنسان أسباب العافية، ويسمي الله عند أكله وعند شربه حتى لا يشاركه الشيطان في أكله وشربه، ويسمي الله إذا دخل البيت حتى لا يشاركه الشيطان في المبيت، أو أراق ماء حاراً فيقول: باسم الله، ويتعوذ بالله على ما قد يصيبه هذا الشيء وما أشبه ذلك، كذلك لا يطبق الأبواب بقوة أو يعمل عملاً زائداً لا حاجة إليه؛ فإن هذا قد يصيب أحداً =

....

= من الجن أو يضره.

فالمقصود أن الخوف منهم من الأشياء الطبيعية التي يتوقى بها شرهم كما يتوقى شر الإنس، فلا يسبهم ولا يتعدى عليهم ولا يظلمهم، ومن تعدى على الناس تعدَّوا عليه، ومن سبهم سبُّوه، فكما تخاف من الإنس وتبتعد عن شرهم ومكائدهم وشر اللصوص والسلاطين الظلمة وشر مَن حولك من المؤذين بالسلامة وحفظ اللسان وحفظ الجوارح، فكذلك الجن. فالجن جيل عظيم، فيهم الفاسق، وفيهم الظالم، وفيهم الكافر، وفيهم المبتدع، وفيهم الطيب والمسلم، فيجب تَوَقِّي الشر من هؤلاء ومن هؤلاء، وإن من المنكَر أن يدعوها من دون الله أو يخافها خوف السر، أو يعتقد أن لها تصرفاً في الكون.

كذلك ورد التعوذ من الشيطان عند القراءة لتأمن كيده وتلبيسه عليك.

[أحكام الحيض]

۞ قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢- ٢٢٧]. [٨]

[شرح٨] في هذه الآيات كلماتٌ وأحكام عدة، وتوجيه من ربنا سبحانه لعباده إلى خير الأخلاق وخير الأعمال، وتحذيرٌ لهم مما لا ينبغي من الأخلاق. =

....

= ومن جملة ذلك أنه سبحانه وتعالى أجاب السائلين لنبيه ﷺ عن المحيض، فأجابهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ ومعنى المحيض هنا: الحيض، وهو مصدر ميمي مثل: المقام والمقال وما أشبه ذلك، ﴿ فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ يعني: في حالة الحيض، والحيض: دم يخرج من قعر رحم المرأة في أوقات معينة، مختلفة بالنسبة إلى النساء، قد تكون ثلاثة أيام أو خمسة أو سبعة، وقد تكون أكثر أو أقل، لكن الغالب أنه خمسة أو ستة أو سبعة أيام من كل شهر، كتبه الله على بنات آدم لحكمةٍ عظيمة، وهي غذاء الولد حالَ وجوده في بطن أمه، كما أوضح ذلك أهل العلم.

فالله سبحانه وتعالى أوجب على الرجال اعتزال النساء كزوجاتهم وسبيَّاتهم طوال مدة الحيض، فلا يجوز للرجل الزوج أو السيد أن يقرب الزوجة أو السبيَّة في هذه المدة حتى تطهر، فإذا طهُرت بانقطاع الدم وتطهرت بالماء أو ما يقوم مقامه عند فقده أو العجزِ عنه حلَّت لسيدها أو زوجها.

ولـهذا قال: ﴿ فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ وهو أمرٌ =

....

= لوجوب الاعتزال، إذ جاءت الأحاديث التي دلَّت على تحريم وطءِ الحائض، بل غلَّظ التحريمَ في ذلك، ومما جاء في ذلك: «من أتى امرأته وهي حائض تصدَّق بدينار أو بنصف دينار»[1]، فعلى المسلم أن يحذر قِربانها وهي حائض من جهة الجِماع، أما كونه ينام معها ويباشرها فيما دون الفرج فلا بأس، وفي الحديث الصحيح عن أنس ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «اصنَعوا كلَّ شيءٍ إلا النكاح»[2]، فهو دليل على أنه لا بأس أن يقربها بالقُبلة والمباشَرة والمضاجَعة ونحو ذلك دون الجماع، وكان النبي ﷺ يأمر النساء إذا أراد أن يباشرهنَّ وهن حيض، أن يأتزِرْنَ[3]، فالأفضل والسنة الاتِّزار أو السراويل عند المباشرة، لأن ذلك أبعد عن الوقوع فيما حرَّم الله جل وعلا. =

---

(١) أخرجه الترمذي: الطهارة (١٣٦)، والنسائي: الطهارة (٢٨٩)، وأبو داود: الصيام (٢١٦٨)، وابن ماجه: الطهارة (٦٥٠).

(٢) أخرجه مسلم: الحيض (٣٠٢).

(٣) أخرجه أبو يعلى (٧٠٨٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٣) من حديث ميمونة. وأخرج مسلم (٢٩٥) معناه من حديث ميمونة أيضاً قالت: كان رسول الله ﷺ يضطجع معي وأنا حائض، وبيني وبينه ثوب.

....

= ثم قال جل وعلا: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ بيَّن سبحانه أن التحريم يمتد، حتى إذا طَهُرنَ من الدم وتطهَّرنَ بالماء ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ أي: حتى ينقطع الدم فيطهرن منه، ومن الخَبَث والأذى، ثم بعد هذا التطهر: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ﴾ فرتَّب المجيء على التَّطهر، ودَلَّ ذلك على أنه لا بُدَّ من التطهر بالماء، وعند فقده أو العجز عنه: التيمم، فإذا تطهرت بالماء أو التيمم عند العجز عن الماء حلَّ له إتيانها وغشيانها بالجماع.

وقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يعني: من الفرج، لا من الدُّبُر، فالدبر محرم، وإنما تؤتى المرأة من قُبُلها وهو محل الحَرْث، أي: محل الولد، أما الدبر فليس محل الحرث بل محل الأذى ومحل القذر، ولهذا جاء في الحديث: «ملعونٌ من أتي امرأته في دُبرها»[1]، وفي الحديث الآخر: «لا ينظر الله إلى رجل أتى امرأةً في دُبرها»[2]، والمقصود أن الحرث محله الفرج أي: القُبُل: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ من جهته القبل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ أي: من الذنوب، =

---

(١) أخرجه أبو داود: النكاح (٢١٦٢)، وابن ماجه: النكاح (١٩٢٣).

(٢) أخرجه الترمذي: الرضاع (١١٦٦).

....

= ﴿ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ أي: من الذنوب كذلك، ويدخل في ذلك أيضاً التَّطهر من الأحداث، فالله سبحانه يُحب المتطهر من المعاصي بالتوبة ومن الأحداث والنجاسات ومما جعله الله طهارة، فالله سبحانه يحب هؤلاء ويحب هؤلاء.

ولما كان التلطخ في المحرمات نجاسة ومن ذلك الوقوع في جماع على الحيض نبَّه سبحانه وتعالى أنه يحب لعباده التطهر من المعاصي بالتوبة، والتطهر أيضاً من الأخباث والأحداث بالطهارة الشرعية.

ثم يقول بعد هذا: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ النساء حرث للأزواج والسَّادة، ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ فالقُبُل هو محل الحرث ومحل الجماع ومحل الولادة، وليس الدبر ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي: مقبلات ومدبرات، وتوَهّم بعض الناس أن المراد به الدبر، وهذا من أقبح الغلط والجهل، بل المراد: أنى شئتم من جهة الإقبال، أو من جهة الإدبار، أو على جَنْبٍ، فلا بأس بذلك، لكن بشرط أن يكون ذلك في القبل، فالفرج هو محل الحرث، أما =

....

= الدبر فهو نوع من اللواطة، ومنكر ومحرّم، وهو من الكبائر، نسأل الله السلامة.

وفي هذه الآيات من الفوائد أنه ما ينبغي للمؤمن أن يجعل الله عُرْضة ليمينه حتى يمتنع من البر والإحسان والتقوى، بل إذا حلف على يمين ورأى البرَّ والتقوى في غيرها، فالسنة له أن يحنث فيها وأن يكفّر عنها، كما قال النبي ﷺ: «إذا حلفتَ على يمينٍ فرأيت غيرها خيراً منها، فكفِّر عن يمينك وأْتِ الذي هو خير»[1]، وقال ﷺ: «والله لا أحلفُ على يمين فأرى غيرها خيراً منها، إلا أتيتُ الذي هو خير وكفَّرتُ عن يميني»[2]. وذلك أن الرسول ﷺ حلف ذاتَ يوم أنه لا يحمل الأشعريين لما جاؤوا يطلبون حُملاناً، ثم جاءه إبل فدعاهم وحملهم، فقالوا له، فقال: «ما أنا حملتُكم، بل الله حملكم، وإني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفَّرت عن يميني وآتي الذي هو خير»[3]. =

(١) أخرجه البخاري: الأيمان والنذور (٦٦٢٢)، ومسلم: الأيمان (١٦٥٢).

(٢) أخرجه البخاري: الأيمان والنذور (٦٦٢٣)، ومسلم: الأيمان (١٦٤٩).

(٣) أخرجه البخاري: الأيمان والنذور (٦٧٢١)، ومسلم: الأيمان (١٦٤٩).

....

= وقد يكون هذا الحنث مستحباً، وقد يكون واجباً، فإذا قال: والله لا أصلي في جماعةً، وجب عليه الحنث، أو قال: والله لآتينَّ زوجتي على حيضها أو على نفاسها، وجب عليه الحنث، ولا يأتيها بهما فلا يفعل المُحرَّم، فالعاصي إذا كانت يمينه على فعل المحرم وترك الواجب، وجب عليه الحنث والكفارة.

وإذا كانت اليمين على ترْك المستحب أو فعل المكروه، سُنَّ الحنث فيها وشُرِع، ويكفِّر عن يمينه، وإذا كانت على مباح نظر في الأصلح، فيأخذ الأصلح، فيحنث إن رآه الأصلح، مثل: والله لا آكل هذا الطعام، أو والله لا أنام في هذا الفراش، أو ما أشبه ذلك، فينظر الأصلح، ومن هذا قول الشاعر:

قليلُ الأَلايا حافِظٌ ليَمِينِه فإِن سَبَقَت منه الأَلِيَّةُ برَّتِ

فإن من يقلل منها يبرُّ بها في الغالب، بخلاف من أكثر الأيمان فإنه قلّ أن يبر بها بسبب إكثاره منها، فينبغي أولاً التقليل من الأيمان وألا يحلف إلا لحاجة ومصلحة، ثم إذا بدرت منه يمين ورأى الحنث أصلح، بادَرَ بالكفّارة ولم يتساهل. =

....

= وقد بيَّن سبحانه وتعالى أنه لا يؤاخِذُ باللغو في اليمين واللغةِ الدارجة في كلامه من غير قصد، وهذه لا كفارة فيها.

وأما التي يقصِدها بقلبه مثل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩]، إذا قصدها وعَقَدَها بقلبه، فهذه هي التي فيها الكفارة.

ثم يبين سبحانه وتعالى شأن الْمُولِين، والْمُوْلي: هو الذي يحلف أن لا يطأ زوجته أكثرَ من أربعة أشهر، والألية: اليمين فقال سبحانه وتعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧] فإذا آلى أنه لا يطأ زوجته خمسةَ أشهر، أو سنةً، وما أشبه ذلك، يُمْهَلْ أربعة أشهر، فإن فاء ورجع فله ذلك وعليه كفارة اليمين، وإن لم يرجع فلها المطالبة بالطلاق، ولها أن تصبر*.

---

* س: نريد مثالاً عن المسألة الأخيرة (الإيلاء)؟

ج: إذا قال: والله لا أجامعكِ خمسة أشهر أو سنة أو ما أشبه ذلك، فإنه =

....

= يُمهل أربعة أشهر، فإن جامع فعليه كفارة وإلا يطالَب بالجماع إذا طالبت هي، يقال: إما أن تفيء وتطأها، وإما أن تطلّق.

س: الذين يحلفون إذا جاؤوا بالطعام بالطلاق أو يحلفون بالحرام، هل عليهم شيء؟

ج: في هذا الباب اختلاف بين أهل العلم، والصحيح أنها مثل اليمين، كقوله: عليَّ الطلاق لأذبحن هذه الشاة، أو علي الطلاق لأكرمنك، أو لَتأكُلنَّ وليمتك أو كرامتَك، أو عليه الحرام، والصواب أنه من جنس اليمين، فيه كفارة اليمين إذا حنث بأحدهما.

[كيف تحيا الأمم]

۞ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. [٩]

[شرح٩] فهو سبحانه على كل شيء قدير، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، جل وعلا.

ذكر الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة في مواضع خمسة عن إحياء الأموات؛ تنبيهاً على ما وعد به سبحانه من إحياء الناس يوم القيامة، ثم جَمْعِهم بين يديه ومُجازاتِهم بأعمالهم، سبحانه وتعالى، فذكر في أول السورة قصة الذين أخذتهم الصاعقة لما طلبوا الرؤية ثم بعثهم الله بعد موتهم، وكذلك قصة القتيل: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ =

....

= ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٢-٧٣]، فأحيا الله لهم ذلك القتيل حتى تكلَّم وبيَّن من قتله، وكذلك هذه القصة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾، والرابعة قصة الذي ﴿مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وكذا حِماره، والخامسة: قصة إبراهيم مع الطيور، حين طلب إبراهيم من ربه أن يُرِيَه كيف يُحيي الموتى، فأمره الله بالطيور فقطّعها وجعل على كل جبل مُنهنَّ جُزءاً، ثم دعاها فجاءت إليه، وردَّ الله إليها رؤوسها وأرواحها وجمع لها شملها.

هذه خمسة مواضع فيها بيان لإحياء الله الموتى سبحانه وتعالى في هذه الدنيا، فالذي أحياهم في هذه الدنيا هو القادر على إحيائهم يوم القيامة، ومجازاتهم بأعمالهم، سبحانه وتعالى.

وفي هذه القصة بيان أنه سبحانه وتعالى يبتلي عباده لعلهم يشكرون: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: أكثر الخلق لا =

....

= يشكرون نِعَم الله ﷻ، كما قال سبحانه: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣]، فهذا يُنبئ الإنسان على عِظَمِ هذا الخطر، وأن الغالب على بني آدم ـ مع كرم الله سبحانه وتعالى عليهم وإحسانه إليهم ـ عدم الشكر، فيأخذ الإنسان من هذا العِبرة والعِظة، ويُحاسب نفسه ويجاهدها لله، لعله يكون من الشاكرين القليلين.

والشكر ليس بمجرد الكلام، بل يكون بالقلب أيضاً محبةً وتعظيماً للمُنعِم سبحانه وتعالى، وطاعةً وإخلاصاً وتصديقاً له جل وعلا، ويكون باللسان ثناءً عليه سبحانه وتعالى، وطاعة لأوامره، وتركاً لنواهيه القولية، ويكون بالعمل أيضاً بأداء الفرائض، وترك المحارم، والوقوف عند الحدود، فالشاكر يعمل بما شرع الله، قال سبحانه: ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ [سبأ: ١٣].

كذلك فيه بيان مضاعفته الأجر سبحانه وتعالى للمنفِقين، وأن من أقرض الله قرضاً حسناً فالله جل وعلا يخلف عليه ويعطيه الخير الكثير، ويضاعف له الأجر والثواب، فإن فضله سبحانه وتعالى عظيم، قال بعض أهل العلم: القرض الحسن لا بد أن =

....

= يشمل ثلاثة أمور:

الأول: أن يكون من كسبٍ طيبٍ.

الثاني: أن يُصرَف عن إخلاص لله، ورغبةٍ فيما عنده جل وعلا، لا رياءً ولا سمعة.

الثالث: أن يكون في جهةٍ صالحةٍ يحبها الله، كمشروعٍ خيري، لا في فساد، فيأخذها من طريقها ويصرفها في طريقها عن إخلاص لله وإيمان به ومحبة له ورغبة في ثوابه عز وجل.

وفي الآيات فوائد كثيرة من أرادها وجدها.

[الحث على الإنفاق]

۞ قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤-٢٥٧]. [١٠]

[شرح١٠] في هذه الآيات فوائد جمة، وأحكام متعددة، ومن أهم =

....

= ذلك الحثُّ على الإنفاق في وجوه البر والإحسان، ما دام العبد في الحياة؛ فإن هذه الدار هي دار العمل، وهي دار الإحسان، والاجتهاد والسعي، والآخرة دار الجزاء والحساب، والله يأمر عباده بالإنفاق من قبل مجيء الأجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ﴾ ولهذا حثّه على الإنفاق في مشاريع الخير، ووجوه البر، وصلة الأرحام، ومواساة الفقير والمسكين واليتيم.

ثم يبين جل وعلا أن الآخرة ليست مثل الدنيا، ففي الدنيا قد ينفعك صاحبك، وقد يشفع لك بحق أو بباطل، أما الآخرة فلا بُدَّ من الحق، فالخُلَّة لغير الله لا تنفع، والشفاعةُ ليست بيد الإنسان، إذ لا بد من إذْنِ الله فيها، ورضاه سبحانه وتعالى، حيث يقول في هذه الآية: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾، وقال في غيرها: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، أما في الدنيا فقد يشفع الإنسان فيما حرّم الله، وقد يجيب المشفوعَ إليه، وهو لا يرضى؛ خوفاً من الشافع، أو خوفاً من التبعات الأخرى. =

....

= فيبين الله سبحانه وتعالى أن يوم القيامة ليس فيه بيعٌ ولا خُلّة ولا شفاعة، حتى تقول: أُدْرِكُ مطلوبي يومَ القيامةِ بشراء حاجتي، فتأتي يومَ القيامة أفقرَ ما كنت، إلا من عملك الصالح، يُبعث الناس يوم القيامة حُفاةً عراةً غُرْلاً، لا مال، ولا أنساب، ولا غير ذلك، فما هو إلا العمل الصالح؛ الإيمان بالله وتقواه سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١١]، ففي هذا حث وتحريض على إعداد العُدَّة كالمحبة في الله، لأنها تنفع، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، فالشفاعة التي تنفع يوم القيامة ما كان عن إذن الله ورضاه سبحانه وتعالى، فيُشفِّع مَنْ يشاء ـ جل وعلا ـ ممن رَضي عن قوله وعمله، في حق أهل التوحيد، وفي حق أهل الكبائر الذين ماتوا على شيء من معاصي الله، كما في الحديث: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»(١)، لكن هذه الشفاعة قد تكون قبل دخول النار، وقد تكون بعد دخولهم النار، وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ: أن هذه =

---

(١) أخرجه الترمذي: صفة القيامة (٢٤٣٥).

....

= الشفاعة تكون أربع مرات: في حق مَنْ دخل النار مِنْ أمته عليه الصلاة والسلام، وهم أهل التوحيد والإسلام الذين ماتوا على شيء من كبائر الذنوب، كالرِّبا والزِّنى والعقوق وقطيعة الرَّحِم وشُرب المُسْكرات وقتل الناس بغير حق وغير ذلك، فيشفع فيهم عليه الصلاة والسلام، فيسجد بين يدي ربه، ويَحمَد ربه بالمحامد، ثم يشفِّعه سبحانه وتعالى في قِسْم، ويحدُّ له حداً، ويخرجهم من النار، ثم قسم آخر، ثم قسم آخر، ثم قسم آخر، ويشفعُ لهم النبيون، والمؤمنون، والأفراط، والملائكة، ثم يبقى في النار جماعة بعد ذلك، لم يدخلوا في شفاعة الشافعين من أهل التوحيد، فيرحمهم الله برحمته سبحانه وتعالى، ويُخرجهم من النار بعدما احترقوا فيها.

فالمقصود أن يوم القيامة يوم عظيم، وأهواله شديدة، وليس فيه معوَّل إلا على رحمة الله وعفوه سبحانه وتعالى، لا على أنساب أو أموال، ولا على قَرَابات أو غير ذلك، فالمعوَّل بعد رحمة الله على ما قدمت من عمل صالح، ونفقة صالحة، أما بغير هذا فلا توجد شفاعة ولا تنفع، قال ﷻ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: =

....

= ٤٨] لأنهم كفرة، أي: ليس هناك شفاعة فيهم، لكن لو قُدِّر شفاعة، فما تنفعهم؛ لأنها لا تكون بعد إذن الله ورضاه، ولا يرضى سبحانه الشفاعة إلا في أهل التوحيد ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: يا رسول الله ﷺ، مَنْ أحقُّ الناس بشفاعتك؟ قال: «مَن قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إني اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يومَ القيامة، فهي نائلةٌ ـ إن شاء الله ـ مَنْ مات مِنْ أمتي لا يشرك بالله شيئاً»[2].

ثم قال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يبين سبحانه أن الظلم الأكبر في حق الكفرة، فهم الظالمون، وهذا نوع من الحصر، والمعنى: أنهم الظالمون لا غيرهم، لأن الظلم الأكبر هو الشرك والكفر بالله نعوذ بالله، أما الظالمون الآخرون بالمعاصي كالقتل والرِّبا والتَّعدي على الناس في مالٍ أو في عرضٍ، فهم دون ذلك، =

(١) أخرجه البخاري: العلم (٩٩).

(٢) أخرجه البخاري: الدعوات (٦٣٠٤)، ومسلم: الإيمان (١٩٩).

....

= هؤلاء ظلمة، ولكنهم دون ظلم الكفر، فإن الظلم الأعظم هو ظلم الكفرة، نسأل الله السلامة.

ثم ذكر آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، هذه الآية يقال عنها آية الكرسي؛ لأن فيها ذكر الكرسي، وهي أعظم آية في كتاب الله؛ كما روي عن ابن مسعود[1].

فهي آية عظيمة، ينبغي لك أن تحفظها، وأن تُعنى بها، وأن تقولها عند نومك، وفيها الفقه الأكبر، من بيان توحيد الله، وأن المستحق للعبادة هو الله جل وعلا ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ فلا معبود حقاً سواه سبحانه وتعالى، أما ما عبده الناس =

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٦٠٠٢)، والطبراني في «الكبير» (٨٦٦٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٣٩١) عن ابن مسعود موقوفاً عليه.

....

= من دون الله من أنبياء أو أولياء أو أشجار أو أحجار أو غير ذلك، فهو معبود بالباطل، كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، فالذي يعبد النبي ﷺ ويسأله، ويتوجه إليه لقضاء حاجته، أو يعبد البدوي أو الحسين أو عبد القادر أو المرسي أو ابن علوان أو فلان أو فلان أو غير ذلك، فقد عبده بالباطل، وغلط في ذلك، وضلَّ عن سواء السبيل.

أما المعبود بحق فهو الله وحده سبحانه وتعالى، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه، وكان الكفار الأولون يشركون في هذا الرخاء، فيدعون بعض الأموات وبعض الأشجار والأحجار ويعكفون عليها؛ كما فعلت قريش وغيرهم من العرب مع اللات والعُزَّى ومناة، ولكنهم يخلصون لله سبحانه وتعالى العبادة في الشدائد والكروب، ويلجؤون إليه وحده كما قال ﷻ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى =

....

= ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

أما الكفرة اليوم وقبل اليوم بزمن طويل فشِركهم مع آلهتهم دائماً في الرخاء والشدة، نعوذ بالله، بل في حال الشدة أشد، فإذا اشتدت بهم الأمواج، وخافوا من الغرق في البحار رأيتهم يلهجون إلى آلهتهم من دون الله، فهذا يقول: يا سيدي البدوي، وهذا يقول: يا سيدي الحسين، وهذا يقول: يا سيدي عبد القادر، وهذا يقول: يا سيدي فلان، وهذا يقول: يا رسول الله، وهذا يقول: يا ابن علوان، وهذا يقول: يا عيدروس، وهذا يقول: يا فلان وفلان، وهذا يقول: يا علي، وهذا يقول: يا فاطمة، كل واحد ذهب بإلهه، نسأل الله العافية والسلامة. وهذا الجهل العظيم والشرك الوخيم، والواجب أن يقول: يا الله، اللهم أنقذنا، اللهم عافنا، اللهم سلِّمنا، فالله سبحانه وتعالى هو القادر على كل شيء ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٦٢]، فهو القادر في الشدة والرخاء على نجاتك وعلى هلاكك. =

....

= ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ حي دائم، أما الأموات فما نفعوهم بشيء، فما دافعوا عن أنفسهم، فهو الحي القيوم جل وعلا، وهكذا الأحياء فمدتهم محدودة وقدرتهم محدوده، فلا يصلحون لشيء من العبادة، فهو الحيُّ الدائم والقيوم الدائم، الذي أقام كل شيء، فهو المقيم لهذه السماوات وهذه الأرض ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أي: لا يعتريه نُعاس وهو السِّنَة، ولا نوم وهو النوم الثَّقيل الذي فوق السِّنَة، بخلاف المخلوق فإنه يموت وينام، فتفوته أشياء، ويجهل أشياء، أما الرب ﷻ فهو حيٌّ قيوم، فلو اعتراه النوم أو السِّنَة لاختلَّ هذا العالم، ولكنه سبحانه حي قيوم ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ فحياته دائمة، لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه سبحانه وتعالى، حياة كاملة، ليست من جنس حياة المخلوقين الذين يعتريهم النوم والنعاس والفتور =

....

= والموت والغفلة؛ لأن ربنا ـ سبحانه ـ مُنَزَّهٌ عن الصفات الناقصة، فلا يعتريه نوم ولا نعاس، بل هو حي قيوم دائم الحياة ودائم العلم، ودائم القدرة جل وعلا.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا يدل على أنه مالك السماوات وما فيها، ومالك الأرض وما فيها: كما قال الله ﷻ في آخر سورة المائدة: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة: ١٢٠]، مالك السماوات ومالك الأرض، ومالك ما فيهن من الملائكة والجن والإنس وغير ذلك، فهو مالك الكل سبحانه وتعالى.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ الاستفهام معناه الإنكار، أي: لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه سبحانه وتعالى.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: لا تخفى عليه خافية سبحانه وتعالى.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ كرسيه مخلوق عظيم فوق السماوات وتحت =

....

= العرش، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى، والكرسي وسِع السماوات والأرض، وفوقه ما هو أكبر منه، وهو العرش، وهو سقف المخلوقات، والله تعالى استوى عليه؛ قال ﷻ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، فالله تعالى في جهة العلو، ترفع الأيدي إليه، وتقول في سجودك: سبحان ربي الله الأعلى.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ علو الذات، وعلو القهر والسلطان، وعلو القَدْر والشرف، له أنواع العلو سبحانه وتعالى، وفي هذا الردُّ على الجهمية وأشباهِهِم ممن أنكر علو الله سبحانه وتعالى، فهو سبحانه العالي فوق جميع خَلْقِه، وهو منزه عن اختلاطه بخَلْقِه جل وعلا.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا﴾ لا يشق عليه حفظ مخلوقاته ولا يُثْقِله؛ لأنه سبحانه إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون، فهو الحافظ والمقيم لهذه السماوات والأرض، والمقيم لعباده في هذه الدنيا حتى يأتي أجَلُ القيامة، ولا يشق عليه ذلك ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

ثم يقول جل وعلا: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ =

....

= ﴿ٱلۡغَيِّ﴾ فيبين سبحانه وتعالى أنه ليس هناك إكراهٌ في الدين، فقد ظهر الحق، وتبين الرشد، وهو دين الله الذي جاء به محمد ﷺ، وهو الرشد.

والغَيُّ: هو دين أبي جهل وأشباهه، وهو كفرهم والشرك بالله جل وعلا، فقد ظهر هذا، وقد ظهر هذا، واتضح هذا وهذا لأولي الأبصار، فلا إكراه في الدين بعد ظهوره واتضاح أمره.

وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية، فقال قوم: إنها منسوخة بأدلة وجوب قتال الكفار وجهادِهم حتى يدخلوا في دين الله، وقال آخرون: ليست منسوخة، بل يُراد بها أهل الكتاب ونحوهم؛ كالمجوس الذين تُؤخَذ منهم الجزية. ولا منافاةَ، فالإكراه هو مثلما قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: اتضح الحق وبان، فهي إما منسوخة بنزول الآيات الدالة على وجوب قتالهم وطلب الكفار ودعوتهم إلى الحق، فإن أجابوا؛ وإلا قُتلوا.

أو مخصوصةٌ بآيات الجزية، فهي في حَقِّ أهل الجزية فقط، فلا يُكرَهون إذا دفعوا الجزية كاليهود والنصارى والمجوس. وأما =

....

= غيرهم فلا مانع من إكراههم في الدين كقتالهم وجهادهم حتى يدخلوا في دين الله، كما قاتل النبيُّ ﷺ العرب، ولم يقبل منهم شيئاً إلا دخولهم في الإسلام، فقاتلهم حتى دخلوا في دين الله؛ كما قال ﷻ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، فلم يجعل لهم نهايةً في قتالهم إلا دخولهم في الإسلام، بخلاف اليهود والنصارى والمجوس، فإنهم إذا قدَّموا الجزية والتزموا بالصَّغار قُبلت منهم وكُفَّ عنهم. وقال آخرون من أهل العلم: بل هذا عامٌّ، فكل من بلغ الجزية قُبل منه، كما في حديث بُريدة في «صحيح مسلم»[١]: «فإن أبَوْا فسلهم الجزية» إلى آخر الحديث.

وقد زعم بعض الكُتَّاب أن الإسلام جاء مُدافعاً فقط، لا طالباً، ولا مُبادراً، يقاتل من يقاتله، ويكفُّ عمَّن كف عنه، وهذا =

(١) برقم (١٧٣١).

....

= كان في الطور الثاني من أطوار الإسلام، وكان الطور الأول واجباً فيه الجهاد، ثم الطور الثاني أن نقاتل من يقاتلنا، ونكفَّ عمن كف عنا؛ كما قال ﷻ في سورة النساء: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠] ولهذه الآية ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾، وانتهى الطور الثالث ـ وهو الأخير ـ أن نقاتلهم دفاعاً وابتداءً حتى يدخلوا في دين الله، إذا كان عندنا قوة؛ كما قال ﷻ: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وكما قال عز وجل: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وقال النبي ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منِّي دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام»[1]، ولم يقل: إلا أن يكفُّوا عنا.

فيُفهم من ذلك أن الشريعة استقرَّت على قتال الكفرة حتى =

---

(١) أخرجه البخاري: الإيمان (٢٥)، ومسلم: الإيمان (٢٢).

....

= يدخلوا في دين الله ابتداءً ودفاعاً، إلا من أباح الله أَخْذَ الجزية منهم، فهؤلاء إذا بذلوها والتزموا الصَّغار، سواء أكانوا من أهل الكتاب أم كانوا من المجوس، فنقبلها منهم؛ لقول الله في أهل الكتاب: ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

وجاء في أهل المجوس أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أخذها منهم؛ كما أخذها من اليهود والنصارى.

فالحاصل أن هذه الآية الكريمة إما منسوخة بالطور الأخير من أطوار الجهاد، وأن وقتها كان وقت ضعف المسلمين، فيكف عمن كف عنهم، ويقاتل من قاتلهم، ثم شرع الله قتالهم ابتداءً ودفاعاً حتى يدخلوا في دين الله ﷻ، وهذا هو الصواب، أَنْ يقاتِل المسلمون عند الضعف من قاتلهم، ويكفوا عمن كف عنهم، وعند القوة والقدرة على القتال وإخراج الناس من الظلمات إلى النور يقومون بذلك؛ لأن فيه إحساناً إلى الناس، وإخراجاً لهم من ظُلمة الكفر والشرك إلى نور الإسلام والهدى، وإنقاذاً لهم من أسباب دخول النار إلى أسباب دخول الجنة، فالمسلمون إذا قاتلوهم قد =

....

= أحسنوا فيهم، لأن قتالهم إما أن يكون من أسباب دخولهم في الإسلام، فيكون خيراً لهم في الدنيا والآخرة، وإما أن يعجِّلوهم إلى النار، فيكون خيراً لهم من مزيد الأعمال السيئة، فإن بقاء الكافر في حياته يزيده شراً إلى شره، وعذاباً إلى عذابه، فإذا قُوتِل وعُجِّل مَوتُه صار عذابه أقل، نسأل الله السلامة.

وإذا كان أعداء الله من الكفرة يقاتِلون الدُّول والشُّعوب قتالاً شديداً، ولا يألون جُهداً في ذلك، ولا يَرْقُبون في مؤمن إِلًّا ولا ذِمَّةً، بل يُبيدونهم لأهوائهم ولمصالحهم، وابتزازِ ثَرَوات بلادهم، ولا يرون في هذا بأساً عندهم، فكيف يستنكرون من الإسلام أن يقاتل ابتداءً إذا قوي على ذلك؛ لإنقاذ هذه الأمم من الكفر، ولإدخالها في الإسلام، وإخراجها من الظلمات إلى النور، أليس هذا رحمة؟! أليس هذا إحسانا؟! أليس هذا فعلَ خير بهم؟! لينقلهم من أسباب عذابهم ونكالهم وغضبِ الله عليهم إلى أسباب الرضا والسعادة، فهذا هو الإحسان الواضح.

ولهذا قال بعده سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ =

....

= ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ هذا شأن الإسلام، يُخرجهم من الظلمات إلى النور، فجَمَع الظلمات؛ لأن الكفر أنواع مُنَوَّعة، ووحَّد النور؛ لأنه دين واحد، وصراط مستقيم.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ يخرجونهم من نور الحق والهدى، الذي فَطَرَ الله عليه الناس، إلى الظلمات، وهي أنواع الكفر والضلال والشرك والفساد، وَفَرْقٌ بين هذا وهذا لو عَقَلَ الناس، ولكن أهل الهوى والحسد والبغي والظلم لا يعقلون؛ لأنهم يَتَّبعون أهواءهم، فيرمون الإسلام بأنه دين السيف ودين القتال، ودين هذا وذاك، ولا ينظرون في أعمالهم الخبيثة من قتالهم للشعوب وقتالهم الناس، وأخذِهم أموالهم بغير حق، وظلمهم الناس لأهوائهم ومصالحهم، فيعمون عن أعمالهم الخبيثة، وينظرون إلى الإسلام بالعين العوراء الحاسدة الحاقدة، نسأل الله العافية والسلامة*.

---

* س: هل هناك مبررات لترك الجهاد في هذه الأيام؟

ج: لا يوجد مبررات إلا العجز وضعف الإيمان، ولو كان هناك اجتماع =

....

= على الحق وتعاون، فالمسلمون كثيرون، قرابة المليار وربع، لكن أين الاتفاق؟ وأين التعاون؟ وأين معرفة الدين أيضاً؟ فقلَّ مَنْ يعرف الإسلام اليوم، وإن ادعاه، والله المستعان.

س: أتُقبَل الجزية من الكفار غير الكتابيين، كالشُّيوعيين مثلاً؟

ج: لا تُقبل على الصحيح، وتقبل من أهل الكتاب والمجوس فقط؛ لأن الأصل قتالهم، فلا نأخذها إلا ممن جاء الشرع بأخذها منهم صريحاً.

س: وحديث بُريدة ألا يدل على جواز أخذِها منهم؟

ج: احتج به من يراه، لكنْ حملُه على المقيَّد أقرب، وإلا فهو حُجَّةٌ لمن قال بجوازها من الآخرين، وقد يقال ذلك عند الحاجة والعجز.

س: الذين يقولون إن الإسلام لم ينتشر بالسيف، إنما انتشر بأخلاق الصحابة وبكذا وبكذا، فكيف يُفهم هذا؟

ج: انتشاره بالأمرين، فانتشر بأخلاقهم ودعوتهم إلى الله في الأغلب، ولكن السيف مؤيد لهم لمن عاندهم، ففتحوا البلاد بالإيمان والقرآن، وبالسيف لمن عاند، فدخل الناس بعد الفتح، ودخلت الشعوب في الإسلام، بدون قهر لها لما رأت ما فيه من الخير والهدى والصلاح.

س: المجوس ليسوا من أهل الكتاب؟

ج: المشهور أن لهم شبهة كتاب، وتؤخذ منهم الجزية. =

....

= س: هل ورد في النصوص الثابتة تسمية آية ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]: بالكرسي.

ج: ورد في بعض الروايات عن أبي هريرة في «الصحيحين»[1].

(١) انظر البخاري: فضائل القرآن (٥٠١٠).

[عاقبة المرائي]

۞ قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١-٢٦٤]. [١١]

[شرح١١] وهذا من شقائه، ومن غضب الله عليه، ومن تهيئته لأعمال الشر، نسأل الله العافية. =

....

= وفي الآيات أيضاً: الدلالة على أن المُرائي بأعماله التي يعملها ويتكلَّفها ويتعب فيها ثم تضيع عليه، بمثابة من له جَنة برَبْوةٍ، فيها أنواع الخير وأنواع الثمار الطيبة، ثم يُبتلى بإعصار فيه نار يحرقها ـ نعوذ بالله ـ عندما يكون أشدَّ احتياجاً إليها عند كِبَر سِنِّه وضعف ذُرِّيته، وهكذا المُراؤون والمُنافقون يعملون أعمالاً كثيرةً شديدةً متعبة، فقد يعملون ويُجاهدون جِهاداً كبيراً، ويتصدَّقون ويُعطون العطاء الجزيل ويُصلُّون وغير ذلك، ثم تذهب هباءً وتضيع عليهم؛ لأنهم ما أرادوا بها وجه الله سبحانه وتعالى، ولأنها فقدت الإخلاص لله ﷻ.

وقد يقع الإخلاص في بعض الأعمال، ولكنها تفقد الموافقة للشريعة، كما قد يقع لبعض الناس من البدع الكثيرة التي يقومون فيها أثناء الاحتفال بالموالد النبوية أو في التهجد والعمل في ليلة الإسراء والمعراج، أو في غير ذلك أو فيما يتعلق ببناء القبور وتعظيمها والإنفاق الكثير في قِبابها وزخرفتها وغير ذلك، وهي تكون وبالاً عليهم وباطلاً وإثماً وهباءً منثوراً ـ نعوذ بالله ـ لأنها =

....

= ما وافقت الشريعة وصارت بدعة ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

ففي هذه الآيات كلها وما أشبهها الحث على الإخلاص في الأعمال، والصدق فيها، والعناية بها، وأن تكون لله وحده، وأن تكون موافقة للشريعة، وفيها التحذير من إتباع الصدقات والإحسان الـمَنَّ والأذى، وأن الواجب على المؤمن أن يكون في حاله كلها متقيداً بالشريعة لا يخرج عنها لا هاهنا ولا هاهنا؛ لا في صدقاته ولا في سائر أعماله، لا برياء ولا ببدعة ولا بإيذاء للفقراء والمحاويج، ولا بغير هذا مما يخالف شرع الله، وقد قال ﷺ: «ثلاثةٌ لا يكلِّمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: المنَّان الذي لا يعطي شيئاً إلا مَنَّةً، والـمُنفق سلعتَه بالـحَلِف الكاذب، والـمُسْبِلُ إزاره»، رواه مسلم في «الصحيح»[1]*.

* س: الـحديث الذي فيه الأمر بإعادة الوضوء لـمن أسـبل إزاره، مـا =

(١) برقم (١٠٦).

....

= درجته؟

ج: ظاهره في «سنن أبي داود»[1] أنه لا بأس بإسناده، فبعدما تأولوا على التحذير والترهيب من الإسبال ينبغي للمؤمن أن يحذر ذلك غاية الحذر، وأن يكون ذلك بصفة خاصة في الصلاة، لأن فيه الأمر بإعادة الوضوء، ولا يزال كلام أهل العلم فيه لا يفهم الناسُ منه الشيء الكثير، ولا بد من إعادة النظر فيه.

س: قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]؟

ج: أي: عالم بالله سبحانه وتعالى وشرعه وسُنته.

س: المُتسوِّلون، إذا عرف الإنسان حقيقتهم أنهم غير صادقين وأن سلوكهم غير صحيحة، فإذا آذاهم الإنسان، ما حكم ذلك؟

ج: الظاهر أن هذا منكَر، فإن المنكر لا يُرد بمنكر، وهذا داخل في مسألة الأذى بالصدقة، فهؤلاء فعلوا منكراً؛ فمن سأل الناس أموالاً تكثُّراً فقد سأل الناس جمرة، فإنه لا يستقل ولا يستكثر، فهو مزور كذاب يغش ويدعي أشياء ما لها صحة، فيدعي أنه مَدين وليس بمدين، ويدعي أنه فقير وليس بفقير، فهو صاحب منكر، فوجب الإنكار عليه؛ لأن هذا من =

---

(١) برقم (٦٣٨).

....

= التزوير والكذب، وصاحب الدعوى الباطلة هو الذي يسأل الناس تكثُّراً وعنده ما يغنيه وليس بحاجة كذلك، قد أتى المنكر، نسأل الله العافية.

[بعض أحكام الإنفاق]

۞ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧-٢٧١]. [١٢]

[شرح١٢] في هذه الآيات حثٌّ وتحريض على الإنفاق في سبيل الله، وتوجيهٌ للعباد إلى هذا الخير العظيم، وأنه ما يحبه الله ويدعو إليه، =

....

= وأن الشيطان يثبِّط عن ذلك ويدعو إلى تركه.

ويبين سبحانه وتعالى أن الإنفاق في سبيله يعود نفعه على المنفِق، ويحصل له به أجر عظيم وخير كثير، وأنه بذلك يسلَم من الخوف والحزن، فلا خوفٌ على صاحبه ولا حزن عليه، وهذا فضل عظيم للإنفاق في سبيل الله ﷻ. وفيها دلالة على أنه من أسباب الأمن والسعادة يوم القيامة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ يأمر سبحانه بالإنفاق من الطيبات لا من الرديء، ويدخل في هذا كتاب الزكاة، ويعلم أن ما أنفقه أهم نفقة في باب الزكوات فهي أهم النفقات وأعظمها، وهي فرض الإسلام، وهي الركن الثالث من أركان الإسلام الخمسة.

ويدخل في ذلك الإنفاق في وجوه البِر والإحسان في غير الزكاة، وفيه توجيه العباد إلى الإنفاق من الطيبات، فكثير من الناس قد ينفق ولكن لا يتحرى الطيبات بل ينفق من الرديء، ثم إذا دُفع إليه لاستكره ذلك وبنى عليه فوارق ونقصاً، ولامتنع من =

....

= أخذه على سبيل التغاضي والتساهل بذلك وصَبرِ النفس وحَبْسِها على قبوله، وهذا ليس من شأن المؤمن ولا ينبغي له أن يكون هكذا، إن ربه غني حميد سبحانه وتعالى، وهو إنما ينفق لنفسه لا لله، فربنا ليس بحاجة إلى نفقاتك ولكن كما قال جل وعلا: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، و﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦].

ولهذا قال بعدها: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ فمعنى تَيَمَّموا: تقصِدوا، والتَّيمم: القصد، والخبيث: هو الرديء من ـ أي شيء ـ الحبوب والثمار والنقود المزيفة أو ما أشبه ذلك.

﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ أي: لستم بآخذي هذا الخبيث إلا على سبيل التغاضي، فإذا كان شيء لا ترضون بأخذه ولا تحبون أكله، فكيف ترضون بتقديمه لله ﷻ، فالله سبحانه إنما أمر لمصلحتكم ولنجاتكم، فجدير بكم أن تنفقوا من الطيبات التي تنفعكم وتُرضي الله سبحانه وتعالى.

ولهذا نبّه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ =

....

= ﴿حَمِيدٌ﴾ فالله عز وجل ليس بحاجة إلى نفقاتكم، وهو حميد بمعنى المحمود؛ أي: حميد بالأقوال والأعمال، محمود في قوله وعمله، وبكمال إحسانه وعونه جل وعلا، وليس هو بحاجة إليكم، ولكنها مصلحتكم والإحسان إليكم بهذا الإنفاق.

ثم يبين أن الشيطان يثبِّط عن هذا الخير، و﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، هذا الشيطان الخبيث يدعو إلى كل شر، وهو يَعِدُ الناس الفقر، ويقول لهم: إن أنفقتم قَلّت أموالكم، وربما افتقرتم، ويثبطهم عن الإنفاق والإحسان بوعدهم الفقر، وأن هذا الإنفاق كلما زاد فقد تعرضتم للفقر، ويأمرهم بالفحشاء والمنكرات التي حرَّمها الله جل وعلا والتي من بينها البخل. والفحشاء تنطبق على جميع السيئات المحرمة، ولكن هنا خصَّ البخل، وهو من الفحشاء، والشيطان يدعو إليه ويأمر به، فهو يأمر بكل شر ويُثَبِّط عن كل خير أعاذنا الله منه.

والله سبحانه ردَّ عليه ووعد المؤمنين بضد ما قال الشيطان، قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ =

....

= يعدكم مغفرة في مقابل الفحشاء، وفضلًا في مقابل الفقر، ويعدكم الزيادة والجود والكرم، كما يقول جل وعلا: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩] ويقول سبحانه وتعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧]، والله يعدنا الفضل والمغفرة على إحساننا وطاعاتنا وإنفاقنا ضد ما وعد الشيطان من الفقر وأمر به من الفحشاء.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ فإنه سبحانه وتعالى واسع الجود واسع العطاء واسع الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال عباده.

ثم قال جل وعلا: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ الحكمة: كلمة عظيمة تُطلق على كل ما يردع عن باطل ويحث على خير، وله من هذا ما جاء في الحديث الصحيح: «إن من الشعر حكمة»[1]، فالشعر يقع فيه أشياء رادعة عن الباطل وعن الشر، مشجعة على الخير، فكل كلمة دعتك =

---

(١) أخرجه البخاري: الأدب (٦١٤٥).

....

= إلى خير وردعتك عن باطل فهي حكمة، ومنها سُميت السُّنة حكمة، وعلمُ الكتاب حكمة، فالحكمة في السنة أنها تدعو إلى الخير وتردع عن الباطل.

ومن هذا حُكم القاضي لأنه يردع الظالم فسُمّي حُكْماً، ومنها حَكَمة الفرس التي في اللجام، سميت حكمة لأنها تردع الفرس وتمنعها من العدو الزائد على رغبة صاحبها. ومن هذا إحكام الآيات وهو إيضاحها وبيان معناها حتى لا يقع هناك اشتباه، فإحكام الآيات وإحكام الكلام يمنع من الاشتباه ويمنع من الافتراء عليه أو تحميله ما لا يحتمل، فكلما كان الكلام أوضح فهو أحكم؛ لأنه يمنع الاشتباه ويمنع التردد في بعض معناه، ويجعل مستمعه على واضح من الأمر.

وأحسن ما جاء في الحكمة التي في الآية: أنها الفقه في الدِّين، فالفقه في الدين يردع عن كل شر ويدعو إلى كل خير، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدِّين»[1]، فمن =

(١) أخرجه البخاري: العلم (٧١)، ومسلم: الزكاة (١٠٣٧).

....

= علامات الخير ومن الحكمة العظيمة أن تُفَقَّه في دين الله، وعلى رأس الفقه في دين الله الخشية لله وتعظيم حرماته والعلم بما شرع سبحانه وتعالى، ومَن رُزق الفقه في الدين فقد أوتي الحكمة التي بها يَدَعُ ما لا ينبغي ويأتي ما ينبغي، فبها يدعو إلى الخير وينهى عن الشر، وبها يقف عند حدود الله، وبها يؤدِّي فرائض الله، وبها ينتهي عن محارم الله، ولهذا قال بعد: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

[خطورة الربا]

۞ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٨٠ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ

إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

[البقرة: ٢٧٥- ٢٨١]. [١٣]

[شرح١٣] لـمَّا ذكر سبحانه وتعالى الآيات التي فيها الحثُّ على الإنفاق والصدقة والإحسان، وذكر ما للمنفِقينَ من الأجر العظيم والمضاعفة لأجورهم بسبب إنفاقهم الأموالَ الطيبة في الجهات الخيرية، وذكر أن النفقة في سبيل الله تُضاعَف إلى سبع مئة ضعف وإلى أضعاف كثيرة، وذكر سبحانه وتعالى الحث على الإنفاق من الطيبات، لا من الرديء أو من الخبيث.

وذكر سبحانه أن الشيطان يَعِدُ بالفقر ويأمر بالفحشاء، ليثبِّط عن الإنفاق، ويخوِّف الناس من الفقر والحاجة، وأما الرب ﷻ فإنه سبحانه يَعِدُ الناس مغفرةً لذنوبهم، وفضلاً منه عليهم بإنفاقهم وإحسانهم، وأن الله جل وعلا يبارك لهم فيما أبقَوا ويُخلِف عليهم، ويضاعف أجورهم.

وبعد أن ذكر قوله سبحانه: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: =

....

= ٢٧١]، فالصدقات سواء كانت ظاهرة أو خفيَّة، كلها فيها خيرٌ عظيم، سواء أظهرها وأعلنها لمصلحةٍ في ذلك؛ ليُقتدَى به ويُتأسَّى به في مواساة الفقير والمحتاج عند الحاجة إلى ذلك، أو أخفاها ـ وهو أفضل ـ عند عدم الحاجة للإعلان، فالأصل في الصدقات أن السر فيها أفضل، وإذا دعت الحاجة للإعلان فلا بأس بالإعلان للمصلحة الشرعية.

وبعد أن بيَّن سبحانه فضلَ المنفقين بالليل والنهار وما لهم عنده، ذكر بعد ذلك المرابين وما لهم عند الله من العقوبة؛ فالمرابي أساء إلى الناس وضيَّق عليهم في شؤونهم وفي أموالهم، وابتغى من وراء مُعاملته الأخذَ من أموالهم والزيادة عليهم، فهو مضيِّق عليهم ومُسيء إليهم بالربا، وأما المنفِق فهو مُتصدِّق محسن إليهم ومراع لأحوالهم وموسِّعٌ عليهم. فشتان بين الفريقين؛ فالمنفقون والمتصدقون قد أحسنوا وفرَّجوا ويسَّروا، والمرابون قد ضيقوا وأساؤوا وابتزوا بأخذ الأموال بغير حق، فلهذا جاء الوعيد في حقهم، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا =

....

= يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ ففي هذا تحذير من الربا، وأن أكَلَتَه يقومون يوم القيامة من قبورهم مجانين، نعوذ بالله، يتخبطون من مَسِّ الجن لهم، ويُروى عن ابن عباس وجماعة: أن آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يُخنَق، وهذا من باب إظهار سوء عمله ومن باب الفضيحة له.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ يعني: اعترضوا على الله وقالوا: لماذا حرَّم هذا وأباح هذا؟ إنما البيع مثل الربا؛ فإذا كان الربا حراماً فليكن البيع حراماً، وإن كان البيع حلالاً فليكن الرباً حلالاً، أي: ليس هناك فرق، فخفي عليهم الأمر واشتبهت عليهم الحكمة، فلهذا قالوا ما قالوا. وهذا الاعتراض على الله من باب سوء الظن به سبحانه وتعالى، وأنه يَعبثُ بالأحكام، وأنْ ليس =

....

= هناك حكمة في الفرق بين هذا وذاك، ومن اتهم الله في حُكمه وأساء به الظنَّ، فقد ارتكب منكَراً عظيماً وكفراً شنيعاً، نسأل الله العافية.

ثم بين جل وعلا أنه حرّم الربا وأحل البيع لحكمة بالغة؛ فقد أحل البيع لما فيه من المصالح، وحرم الربا لما فيه من المفاسد، وما ذلك إلا لأن الإنسان من طبعه يحتاج إلى ما في يد غيره من طعام أو لباس أو مركوب، إلى غير ذلك، فماذا يفعل؟ إذا أخذه منه بالقوة صار النزاع والفتنة، وربما أفضى إلى قتال ومضاربات، فهذا ظُلمٌ وعدوان، وإن انتظره حتى يعطيه إياه هديةً فقد لا يحصل ذلك، فليس كل أحد يُهدي إليك ما تريد، فماذا تفعل عندئذٍ؟ أتبقى على حالك محتاجاً مضطراً ليس لك حيلة؟ فكان من حكمة الله أن أباح البيع حتى يتيسَّر لك أن تشتري حاجتك من أخيك برضاه، ويتيسرَ له أيضاً أن يشتري منك حاجته بالرضا بالثمن المتفق عليه بينكما، وتُقضى حاجة هذا وتُقضى حاجة ذاك، بدون نزاع ولا خصام ولا عدوان ولا ظلم، فهذا من حكمته سبحانه وتعالى. =

....

= ثم يبين سبحانه وتعالى أن من جاءه موعظةٌ من ربه فانتهى عن الربا وعما حرم الله عليه، فله ما سلف، فالله يغفر له ويعفو عنه فيما سلف، وهذا من فضله جل وعلا أن التائب يُغفر له ما سلف، ومن عاد للربا وما حرم الله عليه فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، وهذا وعيد لمن عاد للمعاصي والكبائر بالنار، وهذا يوجب الحَذَر من العَود إلى المعاصي، ويوجب الحثَّ على الاستمرار في التوبة والثبات عليها حتى تلقى ربك ﷻ.

ويبين سبحانه أن الربا ممحوقٌ منزوعُ البركة، صاحبه كشارب ماء البحر لا يزال يطلب المزيد ولا يزال ظمؤه يزيد، فمآله إلى قلة وإلى غضب الله ﷻ، نسأل الله العافية، وأما صاحب الصدقات فيُرْبي الله له صدقاته، ويزيده من فضله سبحانه وتعالى؛ كما في الحديث الصحيح: «من تصدق بعِدْل تمرةٍ من كسب طيِّب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يُربيها لصاحبه كما يُربي أحدكم فَلُوَّه أو فصيله، حتى تكون أعظم من الجبل»[1]، وهذا =

(١) أخرجه البخاري: الزكاة (١٤١٠)، ومسلم: الزكاة (١٠١٤).

....

= من فضله سبحانه وتعالى.

وفي هذا أيضاً بيان أن أهل الإيمانِ والعمل الصالح وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة سالمون من هذا البلاء، ولهم عند الله الفضل العظيم، وليس عليهم خوف ولا حزن، فقد اعترض سبحانه بهذه الآية بين آيات الربا؛ ليُبيِّن أن من آمن بالله وعمل الصالحات وأقام الصلاة وآتى الزكاة فإن الله جل وعلا يَأْجُرُه الأجرَ العظيم، ويُنجيه مما وعد به هؤلاء المُرابين.

ويبين سبحانه أن في أداء الزكاة وأداء الصدقات غُنْيَةً عن الربا وعن المحارم، فالذي يؤمن بالله ويعمل الصالحات ويُقيم الصلاة ويُؤتي الزكاة له الأجر العظيم، وهو بعمله ذلك ممن يُزيل أسباب الربا، وممن يعين الفقراء على السلامة من الربا والحاجة إلى الناس.

ثم يبين سبحانه وتعالى ما للمرابي بقوله: ﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فمن لم يتب من الربا، فليأذن بحرب من الله ورسوله، يعني: فاعلموا بحرب من الله ورسوله.

﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا =

....

= ﴿تُظْلَمُونَ﴾ فالتائب يُعطَى رأس ماله، فلا يَظلم ولا يُظلم، فإذا باع مثلاً عشرة بخمسةَ عشَرَ، أو مئةً بمئة وعشرين، أو أقل أو أكثر، ثم تاب الله عليه، فله رأسُ ماله: العشرة أو المئة، والزيادة تسقط، يقول: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ لا تَظلمون في الزيادة، ولا تُظلمون في رأس المال، فيعطى رأس ماله ويكفيه.

ثم يبين سبحانه وتعالى أنه لا حاجةَ إلى الربا، ولا حاجةَ ليظلم الناسُ من كان معسراً، فالواجب إنظاره ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ فإن أغلب المرابين هم الفقراء، والتجار الذين يُنظرونهم يسيئون إليهم، حتى يضطروهم إلى المعاملة الربوية، فالواجب على التاجر أن يُنظِر ولا يُسيء إلى الفقير، فليُنظِرْه ويُمهِلْه حتى يُوسِّع الله عليه، فيرد الدَّيْنَ الذي عليه، ولا يُلجِئه إلى الرِّبا.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ فإنظار: مصدر معناه الأمر، يعني: فأنظروه إلى ميسرة، وهذا واجب، فلا يجوز حبسُه ولا إيذاؤه ولا ظلمه إذا ثبت عُسره، بل يجب أن يُنظَر، وأما =

....

= المرابون فيقولون: لا نُنظرك، بل لا بد أن تزيد في المال حتى نُمهلك، فإذا كنتَ معسِراً فاجعل الزيادة في المال حتى نُنظرك شهراً أو شهرين أو سنة، وهكذا، ثم إذا حَلَّ الأجل يزيدون في المال وفي الأجل حتى يتضاعف المال ويكثر.

هذا مرادهم، فرد الله عليهم وأبى عليهم ذلك بأنَّ عليهم الإنظار بدون زيادة، فقد كانوا في الجاهلية يقولون للفقير إذا حل الدين عليه: إما أن تُرْبي وإما أن تقضي؛ يعني: إما أن تزيد في المال حتى نمهلك، وإما أن تقضي لنا حقنا في الحال، وليس عنده قضاء، فيضطر إلى الربا، ثم إذا حل الأجل بعد ذلك قالوا: أعطنا ـ وليس عنده شيء ـ، فيزاد المال، وهكذا، وهذا هو نفس عمل البنوك الآن فيما بلغنا عنهم ـ وإن لم يُظهروا ذلك ـ، فعملهم كعمل الجاهلية: إما أن تربي وإما أن تقضي.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: إذا كان معسراً فالإنظار واجب، ولكن الأفضل من الإنظار الصدقة، وهذه من الوسائل التي تكون النافلة =

....

= فيها أفضل من الواجب، فالإنظار واجب والصدقة مستحبة، وهي أفضل لصاحب الدَّيْن من الإنظار، فالإنظار إمهالٌ له، والصدقة إبراءٌ له من الحق، وذلك أكمل وأفضل.

ثم يُحذِّر الناسَ من يوم القيامة سبحانه وتعالى فيقول: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ فهذا تحذير من ربنا للعباد أن يعصُوه ويخالفوا أمره، فيندموا يوم القيامة غاية الندامة، فيوم القيامة يجازى فيه العباد بأعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فالواجب أن يُتَّقى هذا اليوم وأن يحذَر؛ حتى لا تَقْدَمَ عليه وأنت مُحمَّلٌ بالأوزار، بل ينبغي أن تُعِدَّ العُدَّةَ حتى تَقْدَمَ في هذا اليوم وأنت صاحبُ توبة وعمل صالح، وإياك أن تَقْدَمَ يوم القيامة بأوزارٍ وسيئاتٍ وربما وأعمالٍ قبيحةٍ، تندم يوم القيامة إذا رأيت جَزاءها ورأيتها في كتاب سيئاتك، ولا حول ولا قوة إلا بالله*.

---

* س: آية ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ هل الصحيح أنها آخر آية نزلت في القرآن؟

ج: رُوي هذا، ولكن ليس بظاهر، والأقرب أن آخر آية نزلت هي: =

....

= ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، التي نزلت على النبي بعرفات عليه الصلاة والسلام. [انظر: «فتح الباري» (٨/ ٢٠٥)]

س: كيف نجمع بين قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]؟

ج: الخلود خلودان: خلود مؤبد، وخلود إلى وقت معين، فخلود الكفار مؤبد أبد الآباد، نعوذ بالله، وخلود العصاة خلود مؤقت، والعرب تطلق على المدة الطويلة خلوداً، فيقولون: قاموا فأخلدوا، يعني: قاموا طويلاً، وهذا هو المراد في حق أهل المعاصي، كما هنا في المرابين إذا كانوا غير كافرين، وكما في قوله جل وعلا: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

فإذا كان غير مستحل لذلك فهو خلود مؤقت، كما ذكر في أحاديث: «من قتل نفسه بحديدة فهو في نار جهنم خالداً مخلداً فيها»[1]، يعني: إلى أجل، هذا عند أهل السنة والجماعة خلافاً للمعتزلة والخوارج.

---

(١) أخرجه البخاري: الطب (٥٧٧٨)، ومسلم: الإيمان (١٠٩).

[أحكام المداينة]

۞ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (٢٨٢) ۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ

تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

[البقرة: ٢٨٢-٢٨٣]. [١٤]

[شرح١٤] هذه آية الدَّين وهي أطول آية في كتاب الله ﷻ، وقد اشتملت على آداب المُدايَنَة والمعامَلة، وما ينبغي أن يعامَل به الشُّهود والكُتَّاب، وهي في الحقيقة منهج عظيم في المُدايَنَة والمُعاملة، فينبغي للمسلم أن يسير عليها وأن يلزمها لما فيها من حفظ الحقوق والعناية بأمر الشهود والكُتّاب الذين بهم تُحفظ الحقوق.

وهي أصلٌ في بيع الأجَل وبيع السَّلَم؛ لأنهما داخلان في إطلاق الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ فإن الدَّيْن يشمل بيع الحاضر إلى أجَل، ويشمل بيع المؤجَّل بثمن مقدَّم وهو السَّلَم، وكلاهما عقدان جائزان ومعاملتان شرعيتان بشروطهما.

ونجد أصله أيضاً جواز المُداينات والبيوع المؤجلة من شخص إلى غيره، إلا ما حرَّمه الشرع من مثل العقود الربوية أو =

....

= العقود التي تشتمل على غَرَر، فالأصل في الإسلام صحة العقود وصحة المداينات ما لم يوجد ما يُبطلها أو يُفسدها من غرر أو رباً، وإنما الأصل كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة: ٢٧٥] فإن الأصل في المعاملات وفي الوفاء بالعقود: الحِل، كما في سورة المائدة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١] فالأصل حِل العقود، وحِل البيع والإجارة والمُساقاة وما أشبه ذلك بين المسلمين.

وهذا يقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ ففي هذا بيان حفظ الديون والحقوق بالكتابة، وأنه ينبغي الإملاء الحقيقي المطابق للحق والعدل، من دون زيادة ولا ظلم ولا نقص ولا بَخْس.

وكذلك أن يكون الدَّين إلى أجل مسمَّى؛ حتى لا يقع نزاع أو خصام، وحتى يكون كل منهما على بيِّنة وعلى بصيرة، فإذا كان إلى غير أجل مسمَّى لم يصح؛ إذ لا بد من تأجيل إلى أجل مُسمّى حتى =

....

= يتمكن طالب الحق من المطالبة بحقه، وهكذا قال الرسول ﷺ: «من أسلَفَ فلا يُسلفْ إلا في كيلٍ معلوم ووزنٍ معلوم إلى أجَلٍ معلوم»[1]، فإن الأجل المعلوم يحسم النِّزاع، فإن تقدم به فقد أحسن، وإن تأخر حتى يأتي الأجل فلا حَرَج عليه.

وفيه الكتابة كذلك، وهي من باب حفظ الحقوق، وهو أمرٌ للنَّدْب والإرشاد، والكتابة مستحبة ومشروعة، فإن الله سبحانه وتعالى أمَرَ بها إلا إذا كانت التجارة من المعاملات الحاضرة، فلا حرج في عدم الكتابة؛ لأنها قد تَشقُّ على المتبايعَين، فإذا كانت المُعاملة ناجزة ـ يأخذ ويعطي ـ فلا حاجة للكتابة، بخلاف المُداينة فإنها يتأخر فيها المبيع أو يتأخر فيها الثمن، ويُحتاج إلى الكتابة حذراً من النسيان.

وكذلك الإشهاد في البيع مستحب عند أهل العلم لقوله سبحانه: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ ويدل على عدم الوجوب ما وقع في بعض المعاملات من عدم الإشهاد منه عليه الصلاة والسلام، فالحاصل أن الإشهاد سُنة ومستحبٌّ لحفظ الحقوق، لما =

(١) أخرجه البخاري: السلم (٢٢٤١)، ومسلم: المساقاة (١٦٠٤).

....

= في ذلك من إعانة المُشتري والبائع على حفظ الحق، ولا سيما إذا كانت مُداينة؛ لأنه قد يَنسى، فوجود الكُتّاب والشهود أكمل في حفظ الحقوق.

وفي هذا دِلالة على أن المرأة في الشهادة تَعْدِلُ نصف الرجل، فإذا شهد بالحق امرأتان كان هذا بمثابة شهادة رجل واحد، والأربع بشهادة رجلين، ويبين العلة سبحانه بقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ لَّما كان ضبط المرأة أقلَّ من ضبط الرجل في الغالب، احتيج إلى أن تُعزَّز بأختها حتى تكون مُعِينةً لها في وقت الحمل.

وفي هذا أنه ينبغي للشهود أن لا يأ بَوا إذا دُعُوا، وأن عليهم أن يساعدوا إخوانهم في حمل الشهادة وفي أدائها، وهكذا الكاتب كذلك، فلا يأبى إذا دعت الحاجة إليه؛ لأن هذا من باب التعاون على حفظ الحقوق، ومن باب النفع للمسلم؛ والنبي ﷺ قال: «واللهُ في عَونِ العبد ما كان العبدُ في عونِ أخيه»[1]. =

---

(١) أخرجه مسلم: الذكر والدعاء (٢٦٩٩).

....

= ويقول أيضاً ﷺ: «مَن كان في حاجةِ أخيه كان الله في حاجتِه»[1]، وهذا من باب التعاون على أمور تنفعُه في الدنيا والآخرة.

وهذا فيه تحذير من المُضارَّة ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ فالواجب على المُتعاملين ألا يُضارُّوا الكاتب وألا يضارُّوا الشاهد، بحبسه والتطويل عليه أو تعطيلِه عن مصالحه، أو دعوته في الوقت الحرَج فيشق عليه، أو ما أشبه ذلك مما فيه ضَرَرٌ على الكاتب والشاهد، بل يُتحرّى في حقهما ما لا يضرهما من الميقات المناسب لهما، والدابة التي تريحُهما ـ السيارة ـ وما أشبه ذلك مما يُعِين على أداء الشهادة والكتابة.

وفيه بيان أن تَعمُّد المُضارة فسوقٌ لمن فعل ذلك ﴿وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡ﴾ يعني: هي معصية بكم، فالحاصل أن الواجب على المسلم ألا يُضارَّ أخاه الكاتب ولا الشاهد، بل يتحرى ما ينفعه وما لا يشق عليه ويسهل؛ حتى يحصل التعاون والمساعدة على حفظ الحقوق. =

(١) أخرجه البخاري: المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم: البر والصلة (٢٥٨٠).

....

= ثم قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ وهذا فيه الأمر بالتقوى، وأن المتقي لله ﷻ حريٌّ بأن يُعلِّمه الله ويوفقه ويعينه، فالتعليم مِنَّةٌ من الله عز وعلا، وعليك يا عبدَ الله أن تتقيَ ربك وهو يعلمك سبحانه وتعالى، وليس معنى ذلك أن تتقيَ الله وتترك التَّعلم، فالتعلم من التقوى، فمن اتقى الله يتعلم، والتعليم له أسبابه فأنت تأخذ بها. وهكذا بقية الأمور التي أنت مأمور بها من طلب الرزق الحلال، ومن الزواج، وصِلة الرحم وغير ذلك، فأنت مأمور فيها بالأخذ بالأسباب، وأن تتقي الله في ذلك كله، ومِن تقوى الله: بِرُّ الوالدين وصلة الرحم والكسب المباح وطلب العلم وغير ذلك، والله جل وعلا هو مسبب الأسباب، وهو المعين على كل شيء سبحانه وتعالى، وإنما عليك أن تتعاطى الأسباب وأن تأخذ بها.

وأنت أيضاً في أخذك بالأسباب تكون في رحمة الله وإحسانه، فبدون رحمته وإحسانه لما قَدَرْتَ على شيء، ولما أخذت بسبب، ولما قويت على شيء، ولكن انظر؛ هو المُعلِّم والمُعِين سبحانه وتعالى، وهو المُسهل، فعليك أنت أن تسارع إلى ما ينفعك، وأن تبادر إليه، =

....

= وأن تستعين بالله سبحانه وتعالى، وفي الحديث الصحيح: «احرِص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجِز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلتُ كذا لم يصبني كذا، ولكن قل: قدَّر اللهُ وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»(١). فالمؤمن يحرص على ما ينفعه في الدنيا والآخرة ويستعين بالله سبحانه وتعالى، والله معينُه، فمن اتقى الله سبحانه يسر له أموره ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤] ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩] والفرقان: هو العلم، ومن اتقى الله يسَّر له أموره، وفرَّج كُرُباته، وأعطاه العلم النافع.

ومن أسباب العِلم النافع: أن تكون مُتقياً لله، وأن تتعلم وتُسارع إلى حلقات العلم، وأن تُنقِّب عما أشْكِل عليك، وأن تسأل عما خفي عليك، فكل هذا من الطرق المُرشدة إلى تعليم الله لك سبحانه وتعالى، وهو حصول الفرقان، وقد يغلط بعض الناس =

---

(١) أخرجه مسلم: القدر (٢٦٦٤).

....

= ويظن أن ما وعد الله به من الخير والهدى والصلاح والعلم وتفريج الكروب وأشباه ذلك لا يحتاج إلى أسباب، وإنما يحصل بمجرد الوعد من دون الأخذ بالأسباب من العبد، وهذا غلط، فقد يحصل ذلك عند الشدائد وعندما يعجز العبد عن الأسباب، وعند ضيق الأمور عليه، لكنه مأمور بالأسباب، وعليه أن يتخذ فعل الأسباب التي يستطيعها.

وقد لا تنفع الأسباب، وقد تُعطَّل وقد يُحال بينه وبينها، فعند هذا يجيء فرج الله وتيسيره ويأتي مددُه سبحانه وتعالى، فكم من مضايَقٍ عاجِزٍ عن الأسباب يأتيه المدد من الله سبحانه وتعالى، لكن مع القدرة والاستطاعة على الأسباب فالواجب ألا يتأخر عن ذلك، وأن يكون عاملاً بالأسباب آخذاً بها، فالجنة لها أسباب، والنار لها أسباب، والرزق له أسباب، وقضاء الدَّين له أسباب، وطلب العلم له أسباب، وهكذا، ومع ذلك فعلى المسلم أن لا يعتمد على الأسباب وحدها، بل يأخذ بها ويستعين بالله عليها سبحانه وتعالى. =

....

= ومن ذلك الرهن، فالرهن لا بأس به؛ لأنه يقوم مقامَ الإشهاد، ومقام الكتابة عند عجز الإنسان عن الكتابة والإشهاد، فيستفيد من الرهن؛ لأن فيه حفظَ الحق، وإذا جمع بين ذلك؛ فكتب وأشهد وأخذ رهناً، فكل هذا نوع من الاحتياط، فلا بأس. والواجب على المُرتَهِن أن يؤدي الأمانة التي اؤتمن عليها؛ فإن الرهن أمانة عنده، فليتق الله في ذلك، وأن يعتني بالأمانة ولا يخونها حتى تؤدَّى، فصاحب الحق قد يؤدي الحق كاملاً فيسترد رهنه، وقد يعجز عن الرهن فيباع هذا الرهن، فالمرتهن أمين فليؤدِّ الأمانة وليحذر أن يخونها أو يُضيِّعها.

وكذلك الشهادةُ أمانة، فليتّقِ الله في أدائها، فلا يكتمها وأخوه بحاجة إليها، ولا يزد فيها ولا ينقص، بل يحفظها ويصونها ويستعين على ذلك بالكتابة، وليتذكرها دائماً حتى تؤدَّى كما تحمّلها ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ نسأل الله العافية*.

* س: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، هل =

....

= يعني هذا أن الله يعلم المتقين الأحكام التي وردت في الآية فقط؟

ج: هذا قيد ليس له لزوم، فالمعنى: الأحكامَ وغيرها، لكن الأحكام الموجودة من باب أولى، ولكن من اتقى الله علّمه الله أحكام الدين عامةً، والأهم أحكام العقيدة الصحيحة.

س: تقدم تقديمُ المثمَّن وتأخير الثمن، هذا معروف بين الناس، ولكن تقديم القيمة وتأخير المثمَّن، كيف يكون؟

ج: هذا يسمى بيع السَّلَم، كأن أقول: يا زيد أنا أشتري من ذمتك مئةَ صاع من بُرٍّ بمئة ريال، وتؤدي لي هذا العيش في رمضان أو في شعبان أو في رجب، فهذا يسمى بيع السَّلم، وقد قدِم النبي ﷺ المدينة وهم يُسلفون في التمر السنة والسنتين والثلاثة، فقال رسول الله ﷺ: «من أسلفَ في تمرٍ فليُسلف في كيلٍ معلوم ووزن معلوم إلى أجَلٍ معلوم»[1]. فالسَّلَم: تعجيل الثمن وتأخير المثمن أو المبيع، وعكسه بيع الأجل، وهو تسليم المبيع وتأجيل الثمن.

---

(١) أخرجه البخاري: السلم (٢٢٤١)، ومسلم: المساقاة (١٦٠٤).

[إحاطة علم الله وتمام ملكه وقدرته]

۞ قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٤-٢٨٥]. [١٥]

[شرح١٥] هذه الآيات الكريمات توجهُ العباد إلى الإيمان بأن ربهم سبحانه وتعالى هو المالك لكل شيء، وهو على كل شيء قديرٌ، وأنه يعلم ما في الضمائر، ويعلم ما تنطوي عليه القلوب، فلا تخفى عليه خافيةٌ جل وعلا، وهو مالك السماوات ومالك الأرض، والمالك لما فيهما، كما قال سبحانه في سورة المائدة: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة: ١٢٠]. =

....

= ولـمّا نزلت آية البقرة هذه شَقّ ذلك على أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، وجاؤوا إليه وقالوا: يا رسول الله، حُمِّلنا من التكاليف ومن الشرائع ما نستطيع، ونزلت هذه الآية ولا نستطيعها، أو كما قالوا رضي الله عنهم وأرضاهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟! قولوا: سمعنا وأطعنا» فقالوها[1].

فلما قالها القوم نزل على إثرها قوله سبحانه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥].

فلما نزلت هذه الآية أنزل الله على إثرها ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] الآية، فرفع الله عنهم ما خافوا وخشوا، وهو أن يحاسَبوا بما في القلوب وما يخطر من الأشياء في الصدور؛ لأنه قال: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ =

(١) أخرجه مسلم: الإيمان (١٢٥).

....

= ﴿يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾، وقد خافوا من هذا لأن الإنسان يخطر له خواطر ويكون في نفسه أشياء، ولكنه لا يُصِرُّ عليها ولا ينفِّذها، بل تخطر وتزول، فرفع الله عن المسلمين هذا الشيء بهذه الآيات، ولهذا في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان(١) أن النبي ﷺ قال: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدَّثت به أنفُسَها ما لم تعمل أو تكلم»، وهذا من رحمته سبحانه وتعالى وإحسانه، وفي الحديث الآخر يسأل بعض الصحابة النبي ﷺ: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «وقد وجدتموه» قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان»(٢) يعني: أن وساوس الشيطان قد تَرِدُ على الإنسان حتى يقع في نفسه وفي قلبه أشياء يتعاظم من أن ينطق بها لقُبحها، فالشيطان حريص على أن يوقع الناس في الوساوس الخبيثة والأفكار الباطلة، فإذا عالجها بذكر الله واستغفارِه والتبتل إليه والتعوذ بالله من الشيطان زالت وارتفعت.

ولهذا في حديث آخر يقول عليه السلام: «يأتي الشيطان =

---

(١) البخاري: الطلاق (٥٢٦٩)، ومسلم: الإيمان (١٢٧).

(٢) أخرجه مسلم: الإيمان (١٣٢).

....

= أحدكم فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا، حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته»[1]. وفي رواية: «فليقل: آمنت بالله»[2]. فالشيطان لا يزال بابن آدم يُلقي عليه الوساوس والأفكار الرديئة، فإن كان عنده نور وإيمان وهدى دافع هذه الوساوس بالتعوذ بالله، والإيمانِ بالله ورسله، والعلمِ بأنها من الشيطان، فيرتفع ذلك عنه ويزول، وإن كان الإنسان ليس عنده علم ولا بصيرة استرسل مع هذه الأفكار السيئة، حتى تكون عظيمة فتستقرَّ في نفسه، والعياذ بالله.

وفي هذا بيان أن الواجب على العباد عند الشرائع وعند نزول الآيات أن يتقبَّلوها بالإيمان والتصديق وبصدر رحب، ولا يكفروا بها ولا ينفِروا منها، ولا يقولوا: لا نؤمن بها ولا نستطيعها، بل يجب قبولها والإيمان بها، ثم سؤال الله التيسيرَ والتسهيلَ فيما إذا كان هناك شيء من الشدة، والله المعين سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ =

(١) أخرجه البخاري: بدء الخلق (٣٢٧٦)، ومسلم: الإيمان (١٣٤).

(٢) أخرجه مسلم: الإيمان (١٣٤).

....

= يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وفي هاتين الآيتين ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ وما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه»[1]، وهما: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ إلى آخر السورة، أي: كفَتاه من كل سوء، وكفاه الله من الشيطان، وقيل: كفَتاه عن قيام الليل، ولكن الصواب هو المعنى الأول، أي: أنها تكفيه وتكون له حرزاً من الشيطان، وكفاية له من كل سوء.

وأما قيام الليل فهو على حاله وشرعيته وسُنيته، فقد كان النبي ﷺ يقوم من الليل ويتهجد، وكان يقول هاتين الآيتين عليه الصلاة والسلام.

وفي هاتين الآيتين الدلالة على أن الواجب على العباد الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، كما في حديث جبرائيل لما سأل =

(١) أخرجه البخاري: فضائل القرآن (٥٠٥١)، ومسلم: صلاة المسافرين وقصرها (٨٠٨).

....

= النبي ﷺ عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرِّه»(١)، وجاء ذكر هذه الأصول في الآية: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦]، فهذه الأصول الستة عليها مبنى الإسلام ومبنى الإيمان في القلوب.

وأما الأركان الخمسة الظاهرة فهي العَمَد الظاهرة للإسلام، وهي: الشهادتان، والصلوات الخمس، والزكاة، والصوم، والحج، وللإسلام أيضاً عَمَدٌ وأصول باطنة تكون بالقلوب، ولا بد منها، ولا يستغنى عنها بالأعمال الظاهرة، وهي أصول الإيمان الستة. فمن جمع بينهما فهو مسلم حقاً، ومن أدى الأركان الخمسة الظاهرة ولكنه لم يفِ بالأصول الباطنة فهو منافق، فالذي يقول بلسانه ويعمل ظاهراً ما ليس في قلبه لا يكون مؤمناً مسلِّماً بها، إلا إذا جمع بين الأمرين، وأدى الأعمال الظاهرة، وآمن بالأصول الباطنة، وصار إيمانُه يصدق ما أظهره من إسلامه ودينه، ويصدقه ما أبطن، =

(١) أخرجه مسلم: الإيمان (٨).

....

= فهو جامع بين الظاهر والباطن، أي: بين الأصول الظاهرة والأصول الباطنة.

فهو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، عن إيمان صادق، وعن تصديق بأن الله معبود بحق، وأنه رب العالمين، ويشهد بالرسول عن إيمان وعن تصديق أنه رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وهكذا إقامته الصلاة، وإيتاؤه الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت، إلى غير ذلك مما يأتي به عن إيمان بأن هذا من شرع الله، وأن الله أمر بهذا، فلا يأتي به رياءً كالمنافقين، بل يأتي به عن إيمان وعن تصديق وعن علم أن هذا من شرع الله وأنه مما أمر الله به.

وفيه أيضاً من الفوائد أن الله جل وعلا لا يكلف العبادَ إلا ما في وُسْعهم، وطاقاتهم وأن الله جل وعلا قد أجاب هذه الأمة في إعفائها من تكليفها بما فيه آصارٌ وأغلالٌ مما جرى على الماضين، ولهذا جاء في «الصحيح»: أن الله سبحانه وتعالى لما أنزل قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾. قال: قد فعلت، إلى آخر الآيات، في كل =

....

= دعوة يقول: قد فعلتُ[1]، فأجاب الله هذه الدعوة ورفع عن المسلمين الحرج والآصار التي أصيب بها مَن قبلهم من بني إسرائيل وغيرهم في تكليفهم بأمور ثقيلة وعظيمة بسبب أعمال ارتكبوها وسيئات اقترفوها، كما قال ﷻ: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١] فهم ابتُلوا بسبب أعمالهم السيئة وإقدامِهم على محارم الله جل وعلا، فشُدِّد عليهم، ومن ذلك أنهم أُمِروا أن يقتلوا أنفسهم في توبتهم، وهذا من الآصار العظيمة.

ومن رحمة الله جل وعلا بهذه الأمة أن اكتفى منها سبحانه بالندم على الماضي، والإقلاع عن الذنوب، والعزم الصادق على ألا يعود إليها، وعدم الإصرار، وردِّ المظالم إلى أهلها، وجعلها توبة كافية لـمحو السيئات بغير حاجة إلى أن يقتلوا أنفسهم، فهذا من =

(١) أخرجه مسلم: الإيمان (١٢٦).

....

= رحمة الله تعالى ومن تيسيره جل وعلا.

فالمقصود من هذا كله بيان أن الواجب على العباد السمع والطاعة في كل شيء، والإذعانُ لأمر الله ورسوله، وألا يخالفوا أمر الله بالعصيان، وألا يتأسَّوا بالماضين من الأمم المخالفة العاصية التي احتالت على الأنبياء وعصت، بل يجب على الأمة ـ التي هي خير الأمم ورسولُها خير الرسل ـ أن يقابلوا أوامر الله بالصبر والانشراح وطيب النفس والامتثال، وأن يصدِّقوا أخباره سبحانه وتعالى، وأن ينقادوا لأمره، وأن يقفوا عند حدوده، وأن يعلموا أن في ذلك الخير العظيم والعاقبة الحميدة، هذا الذي وعد الله به مَن صَبَر واستقام واتقى، فالله ﷻ يقبل توبته، وييسر له أمره، ويعينه على أداء الحق، ويزيل ما في قلبه مما قد يضره من وساوس وأفكار تضره رحمة منه وإحساناً سبحانه وتعالى.

﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ دلالة على أن المصير والمرجع إلى الله، فمن أحسن فلنفسه، ومن أساء فعليها، والدار داران: إما الجنة وهي دار المتقين المحسنين الصابرين، وإما النار =

....

= وهي دار الكافرين العاصين المخالفين المتابعين للهوى، نسأل الله السلامة! فالواجب على العباد استشعار ذلك، فالمصير إلى الله جل وعلا، وسيجازيهم بأعمالهم، فإذا علمت أن المصير إلى الله، وأنك مجازى بعملك، فالواجب عليك أن تُعِدَّ العدة، وأن تكون على أُهْبة صالحة إذا صرت إلى الله، فتلقى الخير العظيم، والإحسان والعاقبة الحميدة*.

*** س: ما صحة حديث «إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[1]؟**

ج: في صحته نظر، وقد حَكَم عليه بعضُ الحفاظ بأنه غير ثابت، لكن له شواهد؛ فالخطأ أو النسيان شاهده الآية الكريمة ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقد قال الله: قد فعلتُ[2].

وأما ما استُكرهوا عليه، فمعروف أن الإكراه يرفع الحرج ويرفع الحُكم، كما في قوله سبحانه: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ [النحل: ١٠٦].

فالحديث له شواهد من جهة المعنى، أما سنده فهو ضعيف عند أهل =

(١) أخرجه ابن ماجه: الطلاق (٢٠٤٣).

(٢) أخرجه مسلم: الإيمان (١٢٥).

....

= العلم، قال أبو حاتم: لا يثبت. وقال آخرون: لا بأس به. فالحاصل أنه حديث ضعيف عند أهل العلم، ولكن حديث «إنَّ الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به نفسها ما لم تعمل أو تكلم»[(١)].

س: بمناسبة ذكر كلمة التقليد الأعمى، إذا قلنا بمنع التقليد، فهل نحكم على المقلد الأعمى بالخطأ أم بالضلال أم بالكفر؟

ج: هذا فيه تفاوت وتفصيل، فابن القيم رحمه الله بسط هذا المقام وأوضحه في كتاب «إعلام الموقعين»، وتقدم أن التقليد ثلاثة أقسام: قسم واجب، وقسم محل اجتهاد ونظر، وقسم منكَر محرَّم لا يجوز أبداً لأنه قد يوقع في الكفر والضلال.

القسم الأول: للعامة، فالواجب على العامة الذين لا يعرفون الأحكام أن يسألوا أهل العلم، ويقلدوهم في ذلك، ويجتهدون في تحري الأعلم فالأعلم والأورع فالأورع، حسب طاقتهم، وليس يسعهم إلا هذا، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، فليس عليهم إلا أن يسألوا أهل العلم عن الحق والشرع، وعلى أهل العلم أن يبينوا لهم شرع الله، وعليهم أن يصدقوا وأن ينقادوا لهذا البيان؛ إذ ليس في طاقتهم التقعيد والعلم بآيات الله وأدلته. =

---

(١) أخرجه البخاري: العتق (٢٥٢٨)، ومسلم: الإيمان (١٢٧) عن أبي هريرة ﷺ.

....

= **القسم الثاني**: للمجتهد، والمجتهد يعلم الأحكام، ولكن قد تأتي حادثة يضيق الوقت عن استيفاء الأدلة فيها، فيقلد من يغلب على ظنه أنه أعلم بالأحكام وأقرب إلى الشرع في هذه المسألة التي نزلت به.

القسم الثالث: المجتهد طالب العلم المتبصر، الذي لا ضيق عليه، وفي إمكانه النظر، فالواجب عليه النظر، ولا يجوز له التقليد في ذلك، لا في العقائد ولا في الأحكام.

س: ما الشروط التي تشترط للمجتهد، فهل يجب أن يكون عالماً باللغة...إلخ؟

ج: على حسب طاقته، حتى يكون عالماً بالأدوات التي تمكنه من معرفة الأدلة، أما توسعه فيها فليس بشرط، فالمهم أن تكون عنده بصيرة تمكنه من معرفة الأدلة الشرعية، من جهة اللغة ومن جهة القواعد الشرعية التي قررها العلماء في أصول الفقه وفي مصطلح الحديث.

فليس المراد أن يكون كاملاً أو يغلب عليه ذلك، وإنما المقصود أن تكون عنده بصيرة تمكنه من معرفة الدليل ومعرفة ما يعارضه، حتى يرده أو يسلم له.

س: هل يعني هذا أن من شروط المجتهد أن يكون عالماً باللغة أو بأصول الفقه أو....إلخ؟ =

....

= ج: لا يشترط أن يكون عالماً بكل شيء، ولكن يكفي أن يكون عنده معلوماتٍ تُعينه على الاجتهاد، فعبارات الإطلاق ليست على إطلاقها، فالمراد أن يكون عنده معلومات تكفيه.

س: هل العامِّي يسأل عن الدليل كما في قول الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٣-٤٤]؟

ج: يسأل عن الشرع، وإلا فهو لا يعرف الدليل ـ الآية أو الحديث ـ فيسأل: يا فلان، أخبرني بما شرع الله في هذا الشيء، أو ما يجب علي في هذا الشيء؟ وعلى المسؤول أن يتقي الله فيه، وأن يتحرى الحق؛ لأن هذا العامِّي لا يعرف الدليل.

سورة آل عمران

[إثبات التوحيد لله، وإنزال الكتب على رسله]

۞ قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٦ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران: ١-٧]. [١٦]

[شرح١٦] في هذه الآيات الكريمات توجيه للعباد وإخبارٌ لهم =

....

= بصحة ما أنزله سبحانه على أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وأنه أنزل التوراة والإنجيل، وأنزل القرآن بالحق جل وعلا.

يقول تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴾ هذه حروف مقطعة مثل ما تقدم في سورة البقرة.

قال أهل العلم فيها: الله أعلم بمعناها سبحانه وتعالى، فهي حروف افتتح بها سبحانه بعض السور لحكمة بالغة، قيل: ليعلم الناس أن هذا الكلام العظيم الذي أنزله على الرسل هو من هذه الحروف، ففي ذلك عبرة جمع الله بها خيراً كثيراً، وأنزل بها علماً عظيماً. وقيل: إن الله جل وعلا بدأ بها لحكمة بالغة لا نعلمها، هو سبحانه أعلم وأحكم بها.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ وهذه الكلمة العظيمة هي أصل الدين وأساس الملَّة، فـ«لا إله إلا الله» هي أصل الإسلام الذي جاءت به الرسل؛ فالرسل بُعثوا كلهم بهذه الكلمة، وهي أساس دين الإسلام ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ فهو انقيادٌ لله وتوحيد وإخلاص له، وهذا هو معنى «لا إله إلا الله» أي: =

....

= لا معبودَ بحق سواه جل وعلا، فهو المعبود بالحق، وما سواه معبود بالباطل، كما قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٦٢]، فبهذا يُعلم أن ما عليه عُبَّاد غيرِ الله كله باطل، سواء كانوا عبدوا بشَراً أو جِنّاً أو ملائكةً أو غير ذلك.

و«الحيُّ القيوم»: اسمان عظيمان يجمعان صفات الكمال، فالحياة والقَيُّوميَّة بها صفات الكمال، والحيُّ مَن له صفات الحياة من سمعٍ وبصرٍ وقيام بنفسه إلى غير ذلك؛ فالله تعالى له الكمال في صفاته وأسمائه جل وعلا؛ فهو حيٌّ لا يعتريه نوم ولا نعاس ولا موت ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وفي الآية الأخرى ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فهو كامل الحياة سبحانه، لا يعتريه في هذه الحياة موت ولا نعاس ولا نوم، ولا غير ذلك من النقص، فله الكمال المطلق في الحياة من كل الوجوه.

وله الكمال المطلق في القَيُّوميَّة، فهو قائم بنفسه غنيٌّ عن خَلقه سبحانه وتعالى، وجميعُ العباد كلهم محتاجون إليه سبحانه وتعالى، بإذنه قامت السماوات والأرض ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ =

....

= ﴿وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر:٤١] فهو المقيم لغيره وقائم بنفسه سبحانه وتعالى.

وبيَّن أنه أنزل الكتاب على محمد عليه الصلاة والسلام، وأنه مصدِّق لما بين يديه من التوراة والإنجيل، وأنه أنزل التوراة والإنجيل من قبلُ هدىً للناس، وأنه أنزل الفرقان الذي هو الحق وهو الفرق بين الحق والباطل، فهذه كتب أنزلها الله جل وعلا لبيان الحق وهدي الناس إلى الخير والسعادة، فالتوارة مُنزَّلة على موسى، وهي كتاب عظيم فيه أحكام ومواعظ وذكرى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، وهكذا الإنجيل فيه هدى ونور، وفيه مواعظ أحكام؛ فهما كتابان عظيمان، التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى عليهما الصلاة والسلام، وهناك الزبور على داود عليه الصلاة والسلام، وهناك كتب أخرى أنزلها الله على الرسل عليهم الصلاة والسلام، فيها الشرائع، وفيها الأحكام، =

....

= وفيها العظات والذكرى؛ لكن أعظمها وأكبرها شأناً القرآن العظيم المنزَّل على محمد عليه الصلاة والسلام، ثم التوراة، ثم الإنجيل، ثم الزبور، فهذه الكتب الأربعة نوَّه إليها سبحانه وتعالى لِعِظَمِ شأنها، وبين في الآيات الأخرى أنه أنزل على الرسل كتباً أخرى، أي: على الجميع ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥] فالله أنزل معهم الكتب، وأنزل معهم العدل بين الناس، والحكم بينهم بما فيه العدل والنجاة والسعادة في الدنيا والآخرة.

ثم بيَّن بعد ذلك أنه يُصَوِّر العبادَ في الأرحام؛ ليُبين بذلك أن عيسى عليه السلام عبدٌ من عباد الله، مُصَوَّر في الأرحام، فهذه السورة نزلت في كُفر النصارى والرَّدِّ عليهم في تأليههم عيسى عليه الصلاة والسلام، وقد كان مخلوقاً مُصوَّراً في رحم أنثى، فكيف يكون إلهاً؟! تعالى الله عما يقول الظالمون عُلوّاً كبيراً.

وبين سبحانه وتعالى أن الـمُنَزَّل على محمد ﷺ من الكتاب فيه آيات مُحْكَمات، وفيه أُخَرُ مُتشابهات، فالـمحكمات فيها =

....

= الأصول الواضحة البيِّنة التي أوضح الله معناها للناس، وجعلها عُمدةً في بيان الأحكام والرجوع إليها عند النزاع، وهناك آيات قد يشتبه معناها ويَخفى، فيجب أن تُردَّ إلى المُحْكَم وأن تُفسَّر بما يقتضيه المُحْكَم، فبيَّن سبحانه وتعالى أن أهل الزَّيغ يتَّبعون ما تشابه منه ولم يتضح، ويتركون المُحْكَم الواضح؛ لِما في قلوبهم من الزَّيغ، والعياذ بالله. ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا رأيتم الذين يتَّبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سَّمى اللهُ، فاحذروهم»[1]، فسمَّاهم أهلَ الزَّيغ، فاحذروهم لئلا يُضلُّوكم عن الحق.

فالمُحْكَمات أحسن ما قيل في معناها: أنها الآيات الواضحات المعنى التي ليس فيها اشتباهٌ ولا خَفاء، ومن ذلك مُعظم القرآن؛ فكلُّه مُحْكَمٌ واضحٌ قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، فهي مُتقَنةٌ مُوضَّحةٌ مُبيَّنةٌ ليس فيها خَفاء، وفيها آيات الصلوات، وآيات الزَّكَوات، وآيات الصوم، =

---

(١) أخرجه البخاري: تفسير القرآن (٤٥٤٧)، ومسلم: العلم (٢٦٦٥).

....

= وآيات المُحرَّمات ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] إلى آخره، فهي بحمد الله من أوضح الأشياء. ومن هذه المحكمات آيات التوحيد، وآيات الرسالة، وآيات الأسماء والصفات، خِلافاً لمن قال: إنها من المُشتبهات، بل إنها محكمات؛ لأن الله أوضح معناها، فليس فيها شبهة، وليس فيها ما يدل على مشابهة المخلوقين؛ لأنه أوضح أسماءه وصفاتِه سبحانه وتعالى؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] فما بقي اشتباه؛ فهي آيات واضحات فيها أسماء وفيها صفات بيَّنها ربُّنا عز وجل؛ فليس فيها صفات المخلوقين، وليس هناك بعد هذا بيان، فليس لأحد أن يقول بعد ذلك: إن هذه مشتبهة ومن قال مثل ذلك فقد غلط وخالف في التفسير.

فآيات الصفات كُلها مُحْكمات؛ ولكن بالنسبة إلى بعض الناس قد تشتبه عليه لقلَّة معلوماته وقلَّة بصيرته، وإلا فهي =

....

= مُـحْكمةٌ واضحةٌ عند الرَّاسخين في العلم وأهل الإيمان، وليس فيها خلاف.

كما أن الآيات التي فيها الأحكام مفصَّلة مُحكَمة؛ أما ما قد يُشتبه معناه أو يخفى بالنسبة إلى بعض الناس فهذه يجب أن تُردَّ إلى المُحكَم وأن تُفسَّر بالمُحكَم، مثل قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] زعم بعض الناس أنها تدلُّ على عبادة الأولياء، وصرف العبادة لهم، واعتقاد ما لا يجوز إلا لله سبحانه وتعالى، وهذا من أقبح الاعتقاد، ومن أقبح التفسير؛ فهي عند من تَعَمَّد ونظر في آيات الله يجد أنه ليس فيها اشتباه أو خَفاء، وإنما يجد أن معناها واضح؛ وهو الثناء على أولياء الله، وأنه لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وأنهم أهل الإيمان والتقوى، فأيُّ اشتباهٍ في هذا؟! لكن إذا حَمَّلها ضعيفُ الإيمان أو زائغُ القلب أو الجاهل ما لا تحتمل، فهذا النقص فيه إنما يُردُّ إليه، وكذا التقصير فيه إنما يُردُّ إليه، لا إلى الآية؛ فالآية لِـمَن تَأَمَّل وتَعقَّل واضحة؛ فهي ثناء على الله، وعلى الأولياء، وإخبارٌ عنهم بأنهم لا =

....

= خوف عليهم ولا حزن، وأنهم أهل الإيمان والتقوى، فأيُّ شيء في هذا يدعو لأن يُعبدوا من دون الله؟ أو يُعتقد فيهم أنهم يعلمون الغيب، أو يتصرَّفون في الكون، أو تُصرف لهم العبادة؟! فهذا تحميلٌ للآية غير ما تحتمل؛ بل هو غلط واضح وظلم في التفسير وباطل من القول.

كذلك حين يُخبر الله عن نفسه بـ«إنّا» و «نحن» و «أنزلنا» ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] إلى غير ذلك، ليس في هذا شبهة للنصارى القائلين بالتثليث؛ فإن الله سبحانه وتعالى هو العظيم الذي لا أعظم منه، ومن عادة العرب أن تأتي بحرف الجماعة للجماعة وللعظيم، فالعظيم يقول: نحن، وفعلنا، وأنزلنا، وأمرنا، والجماعة يقولون ذلك، وهل هناك أحد أعظم من الله سبحانه وتعالى؟ فهو أعظم الأعظمين جل وعلا، وهو مستحق لهذا التعظيم؛ فإذا قال: «نحن» و«أنزلنا» فليس المراد أنَّ معه شُركاء سبحانه وتعالى، حاشا وكلّا، فكيف يُترك المُحكَم الواضح ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] =

....

= ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨] ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى غير ذلك، ثم يُقال: إنَّ قولَه:«أنزلنا» و«بيَّنّا» و«أمرنا» يدلُّ على أن معه عيسى ومريم؟! هذا من أقبح القبيح، ومن أبطل الباطل، وهكذا مِـمّا أحدثَ أهل الزَّيغ والرَّيب، فهم يأخذون بالْمُشتَبِهات ويُفسِّرون على حسب ما أرادوا ويَدَعُون الْمُحكَماتِ لمرضٍ في قلوبهم وزَيغ؛ ولهذا ذمَّهم اللهُ ورسوله وعابهم، وأخبر أنهم أهل الزيغ.

فينبغي عليكَ يا عبدَ الله أن تكون على بيِّنةٍ، وأن تُعنَى بالآيات الْمُحْكَمات، وأن تُفسِّر بها ما اشتبَه عليك، فإذا خَفي عليك آيةٌ في المعنى فرُدَّها إلى الآيات الأخرى الواضحات؛ حتى لا يبقى اشتباه ويتضح الأمر؛ أما أن تَأخُذَها وَحدَها على خَفاءِ معناها بالنسبة إليك، وتَدَع تَأويلَها بالآيات الْمُحْكَمات، فهذا مِنَ الزَّيغ، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والله أعلم.

فإذا أخذنا بعض الآيات من أولها ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا =

....

= ﴿ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وما أشبه ذلك فإنه يتبين لنا بأنها ليست متشابهة.

وأما ما جاء في بعض أوائل السور مثل: ﴿الٓمٓ﴾، ﴿الٓمٓصٓ﴾، ﴿صٓ﴾، ﴿نٓ﴾، ﴿قٓ﴾، فهذا عند الجمع من أهل العلم حروف أنزلها الله لحكمة بالغة، إذا اشتبه علينا معناها لا نفسرها بشيء يخالف القرآن*.

---

* س: هل التحذير من الذين يتبعون المتشابه ثابت بحديث صحيح؟

ج: نعم هذا ثابت في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم الذين يَتَّبعون ما تَشابَهَ منه فأولئك الذين سمَّى اللهُ، فاحذَروهم»[1].

س: هل التوراة والإنجيل معمول بهما في الوقت الحاضر؟

ج: لا، انتهى حكمهما؛ وذلك: أولاً: لأن اليهود والنصارى غيَّروا وبدَّلوا فيهما وحرفوا. ثانياً: لأنَّ شريعة محمد ﷺ ناسخة لكلِّ ما قبلها، فأرسل الله محمداً خاتماً للأنبياء، وشريعته خاتمة للشرائع وناسخة لما قبلها ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] =

---

(١) أخرجه البخاري: تفسير القرآن (٤٥٤٧)، ومسلم: العلم (٢٦٦٥).

....

= ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨].

س: يُروى أنَّ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه جاء بورقة من التوراة، فلمّا رآها الرسول ﷺ غضب لذلك، فهل هذا صحيح؟

ج: نعم يُروى هذا، والحديث في سنده ضعف، وفيه أنه ﷺ قال: «لو كان موسى حيّاً ما وَسِعَه إلا أن يَتَّبعَني»(١)، وهو حديث مشهور، لكن ليس سنده بذاك. ثم إن الآيات القرآنية واضحة، وما جاء فيها كافٍ في نسخ هذه الأشياء، وكذا الأحاديث النبوية، فإنه فيها أنه ﷺ رسولُ الله إلى جميع الناس.

س: عبارة التعظيم «نحن» التي جاء بها القرآن على سبيل التعظيم لله جل وعلا؛ هل يجوز للمخلوق أن يقول نحو: «نحن ذهبنا»، «ونحن كذا» وهو مخلوق فرد؟

ج: نعم، إذا لم يُرِدِ التَّكَبُّر، أو جاءت على اللسان عَرَضاً من غير قصد التَّعظيم فليس فيها شيء.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧)، والدارمي (٤٣٥).

[إن الدين عند الله الإسلام]

۞ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا

كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩ - ٢٥]. [١٧]

[شرح١٧] يبين الله جل وعلا في هذه الآيات الكريمات أحكاماً عظيمةً، وأخباراً مهمةً فيها إرشاد العباد إلى الخير، وتوجيههم إلى أسباب النجاة، وتحذيرهم من أسباب الهلاك، كبقية كتاب الله عز وجل، فإنه فيه الهدى والنور، وفيه الدعوة إلى كل خير، وفيه التحذير من كل شر في الدنيا والآخرة، ومن هذا قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ يوضح سبحانه أن الدين عنده جل وعلا هو الإسلام في الأولين والآخرين، ليس هناك دين آخر، فدين الله واحد هو الإسلام، هو دين آدم، ودين نوح ومن بعده من الأنبياء والمرسلين، وهو دين محمد عليه الصلاة والسلام وأمتِه.

ولهذا قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وفي آية أخرى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]، فهو سبحانه رضي للعباد الإسلامَ ديناً، وأخبر أنه لا يقبل من أحد ديناً سواه، وأخبر أن الدِّين عنده هو الإسلام. =

....

= والدِّين: هو الطاعة والخضوع والذُّل لله تعالى يكون بالطريقة التي بَعَث بها رسلَه، وأنزل بها كتبَه، ولهذا سماه إسلاماً، وسماه أيضاً بِرّاً وتقوى وهدى وإيماناً.

وسُمِّيَ هذا الدِّين الذي بَعث الله به الرُّسل إسلاماً؛ لِما يتضمَّنه من الانقياد لله، والذُّل له سبحانه وتعالى، والقيام بأوامره وترك نواهيه، هذا يسمى إسلاماً، لأن الإسلام في اللغة العربية معناه: الذُّل للمُسلَم له والانقياد له، يقال: أسلَمَ فلان لفلان: إذا انقاد له.

والإسلام عند الله: هو الانقياد لأمره والذُّل لعظمته، فيُسلِم العبد لله بتوحيده، والإخلاص له، والانقياد لأوامره، وترك نواهيه، والوقوفِ عند حدوده. هكذا يكون الإسلام ذلاً وانقياداً للرب عز وجل بطاعة الأوامر، وترك النواهي، وإخلاصِ العمل لله وحده سبحانه وتعالى، فآدم عليه الصلاة والسلام على الإسلام، وهكذا مَن بعدَه إلى أن وُجد الشرك في قوم نوح، ثم لَـمّا وقع الشرك في قوم نوح بعبادة الصالـحين بعث الله إليهم نوحاً عليه =

....

= الصلاة والسلام بالإسلام؛ بتوحيد الله، والإخلاص له، والانقيادِ لأوامره، واتِّباع نبيه نوح عليه الصلاة والسلام، وهكذا مَن بَعدَه.

فالإسلام في حق كل أمة هو: ما جاء به نبيها من الهدى يسمى إسلاماً، فمن لم يَنْقَدْ لذلك فقد خرج عن الإسلام، فالذين لم يُصدقوا نوحاً قد خرجوا عن الإسلام، والذين عصوا هوداً وصالحاً وشعيباً وإبراهيم ولوطاً قد خرجوا عن الإسلام. فالإسلام هو اتِّباع الأنبياء فيما جاؤوا به من الشرائع في كل أمة بحسبها، ثم انتهى الأمر إلى خاتم النبيين وأفضلِ عباد الله أجمعين محمدٍ عليه الصلاة والسلام، فصار الإسلام هو ما بعث الله به محمداً عليه الصلاة والسلام من الشرائع والأحكام والأصول العظيمة.

فقد جاء ﷺ بما جاءت به الرسل من توحيد الله، والإخلاص له، والإيمانِ بجميع المرسلين والأنبياء، والإيمان بالآخرة بما فيها من الجنة والنار وغير ذلك، وجاء بشرائعَ وأحكامٍ هي أكمل من الشرائع التي قبلها، صالحةٍ لزمانه عليه الصلاة والسلام، وصالحةٍ =

....

= لكل زمان يأتي بعده إلى يوم القيامة، وهي أيضاً لجميع الأمم، لا تخص العرب فهي لجميع الأمم؛ العرب والعجم على اختلاف أجناسهم ولغاتهم، فهذا الدين لهم جميعاً وهذه الشريعة لهم جميعاً، فعليهم جميعاً أن ينقادوا لله، وأن يخلصوا له العمل، وأن يعظموه كما أمر، وأن ينقادوا للشرائع التي جاء بها كتابه ورسوله محمد ﷺ.

فالإسلام في حق هذه الأمة هو: الانقياد لما جاء به نبيها محمد عليه الصلاة والسلام، مع الإيمان بالله وحده، وتوجيه القلوب إليه، وإخلاص العبادة له سبحانه وتعالى حتى يلقى ربه وهو على هذه الحال. فإذا جحد شيئاً مما أخبر الله به في كتابه، أو أوصى به الرسول ﷺ مما هو معلوم من الدين بالضرورة من واجب أو محرم أو مباح؛ خرج عن هذا الإسلام. وهكذا إذا استهزأ به أو سخر، أو استهان أو استحقر، فإنه بذلك أيضاً يخرج من الإسلام، فالإسلام له نواقض تُخرج العبد منه، فهو أعمال وأقوال وعقائد جاء بها الكتاب العزيز، وجاءت بها السنة المُطهَّرة، يجب على كل من عرفها أن يؤمن بها، وأن ينقاد لها، وأن يعظِّمها وألا يسخر منها أو =

....

= يستهزئ بها أو يحتقرها أو يكذب بشيء منها، فهذا هو الإسلام.

ولما سُئل النبي ﷺ عن الإسلام؟ فسَّره بالأعمال الظاهرة: وهي الشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج، ويلتحق بها كلُّ ما شرع الله من الأعمال والأقوال، فهي ملتحقة بأركان الإسلام التي ذكرها الرسول عليه الصلاة والسلام. ويلتحق بذلك أيضاً ما يُسمَّى إيماناً، فإنه جاء في النصوص الأخرى ما يدل على تسميته إسلاماً، فقد سمَّى النبي ﷺ الشهادتين والصلاة والزكاة والصيام وأداء الفروض سَمّاه إيماناً، وسمى جميع الدين إيماناً، قال: «الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة»، وفي رواية: «بضعٌ وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[1]، فجعل الدين كلَّه إيماناً، وجعل كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) التي هي أصل الإسلام جعلها أيضاً إيماناً، فالإسلام والإيمان: هو توجيه القلوب إلى الله، والاستقامةُ على ما شرع، محبةً وتعظيماً وإخلاصاً، وأداءُ الفرائض، وتركُ المحارم، =

---

(١) أخرجه البخاري: الإيمان (٩)، ومسلم: الإيمان (٣٥).

....

= والوقوفُ عند الحدود.

يبيِّن بعد هذا أن الذين اختلفوا من أهل الكتاب إنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم، فلما جاءهم العلم من الله جل وعلا تنازعوا واختلفوا؛ لما في قلوبهم من الميل إلى الرئاسات والأطماع وغير ذلك، حتى اختلفوا في الحق، وتنازعوا فيه، وهذا هو عمل اليهود والنصارى؛ تنازعوا واختلفوا على فِرَق كثيرة، فاليهود على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة. ثم جاء العِلم والهدى لهذه الأمة، فاختلفت أيضاً وتنازعت حتى صارت على ثلاثٍ وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهذه الواحدة هي التي عملت في الإسلام وانقادت له واستقامت عليه، فهي الفرقة الناجية في الدنيا والآخرة، ثم المنحرفون عن هذا الإسلام وهم الثنتان وسبعون فرقة هم أقسام؛ منهم الكافر الذي بلغ الغاية في الكفر بالله، ومنهم مَن دون الكفر، ولكنه عصى فاستحق الوعيد بالنار.

وفي الآيات من التوجيه إلى الخير، والدعوةِ إليه، والتحذير =

....

= من أعمال الكفرة قتلةِ الأنبياء، وفيها التحذير من أعمالهم السيئة وكفرهم وضلالهم. وفيها بيان أحوال أهل الكتاب وإعراضهم عن الحق، وأنهم دُعُوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم فأبوا وانحرفوا عن الحق، وزعموا افتراءً على الله أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودات، إلى غير هذا مما قَصَّه الله جل وعلا عنهم في هذه الآيات وفي غيرها.

ففي كتاب الله الهدى والنور والبصائر لِمَن تدبَّره وتعقَّله، وفيه الإخراج من الظلمات إلى النور، وفيه التوجيه إلى أسباب النجاة قولاً وعملاً، والتحذيرُ من أسباب الهلاك قولاً وعملاً، وفَّق الله الجميع لما يحبه ويرضاه*.

---

* س: قوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، كيف يقرأ قوله: ﴿اتَّبَعَنِ﴾ عند الوقف وعند الوصل؟

ج: ﴿اتَّبَعَنِ﴾ يوقف على النون بالسكون، مثل: ﴿أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥] ﴿أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٦] وأشباهها، وهذه قاعدةٌ عند القراء، في مثل هذا إذا لم تكن فيه ياء يوقف بالسكون، أما إذا كان فيه ياء يوقف على الياء =

....

= الساكنه مثل: ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ وما أشبهه.

س: الذين يدخلون الجنة بغير حساب، هل لهم عدد معلوم؟

ج: كلا، لا أحد يعرف ذلك، أخبر النبي ﷺ أن طوائفَ يدخلون الجنة بغير عذاب ولا حساب، وأن منهم مع كل واحد سبعون ألفاً، لكن ليس لهم عدد محصور، لا يعلم عددهم إلا الله جل وعلا.

[التحذير من موالاة الكافرين]

۞ قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

[آل عمران: ٢٨-٣٣]. [١٨]

[شرح١٨] قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ =

....

= ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ في هذه الآيات الكريمات يبين جل وعلا أنه لا يليق ولا ينبغي لأهل الإيمان أن يُوالوا أهل الكفر بالله؛ ولهذا قال: ﴿لَّا يَتَّخِذِ﴾ فهذا نهي، والنهي يُصرف إلى التحريم. أي: لا يتخذونهم أصحاباً وأصدقاءً من دون المؤمنين، أو يتخذوهم أحبةً وأهل مودة ونصح ونحو ذلك؛ بل يتخذون المؤمنين أصحاباً وأصدقاء دون الكفرة بالله جل وعلا؛ لأن الكافر لا يؤمَن على دينك، ولا يؤمَن على مصلحتك، فهو حريٌّ بأن يكون بعيداً منك لا قريباً؛ لأنه ليس على دينك، ومن كان ليس على دينك فهو حريٌّ بالعِداء وغمار الشر، والإعانة على كل ما يضر.

قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ هذا وعيد شديد لمن يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فليس من الله في شيء، فهو وعيد شديد يفيد الحذر من هذا العمل السيئ.

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ يعني: إلا أن يفعل ذلك المؤمن =

....

= تُقاةً له من جَورهم وسلطانهم، ويخشى شرهم؛ فيُجاملهم ويُداريهم من باب المُداراة واتقاء الشر، لا من باب المحبة في الباطن، والله يعلم ما في القلوب؛ ولهذا قال جل وعلا: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فالله يعلم ما في القلوب والضمائر ويعلم مَن يواليهم عن محبة وقصد، ومن هو ليس بذلك؛ ويجازيهم على نياتهم.

والموالاة تصنع الحبَّ في القلوب، ثم ينتج عنها موالاة بالنصرة والتأييد والمساعدة على المسلمين، والمعاداة تصنع البغضاء في القلب، ثم ينتج عنها ما يجب من مُقاطعة ومن جهاد ومن غير ذلك؛ فالموالاة والمعاداة تكون بالأفعال، وأصل الموالاة الحب، وأصل المعاداة البغضاء.

فالواجب حبُّ المؤمنين وموالاتهم ونصرتُهم على أعدائهم، والواجب بغضُ الكافرين ومعاداتهم وجهادهم في الله عز وجل حسب الطاقة والإمكان؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿يَا أَيُّهَا =

....

= ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران:١١٧]، وفي آية أُخرى قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣]، وهذا كله يبين لنا وجوب معاداة أعداء الله وبغضهم في الله عز وجل، ولو كانوا آباءً أو إخواناً أو غيرهم من الأقارب، ووجوب محبة أولياء الله وموالاتهم وإن كانوا بعيدين منك نسباً وقرابة؛ فالإسلام جمع بين أهله وإن تباعدت أقطارهم وأنسابهم، والكفر يباعد بينهم وإن تقاربت أنسابُهم وأوطانهم.

ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى الميراث لمن كان على دين الإنسان وإن كان بعيداً، وجعل قطع ذلك لمن خالف دينه وإن كان قريباً، فابنك وأبوك على غير دينك لا يرثانك، وابن عمك: ومولاك البعيد؛ كابن ابن عمك وابن عم جدك، وأشباه ذلك؛ =

....

= فأولئك في إرثك وإن كانوا بعيدين، وذلك من أجل الإسلام، حتى ولو لم يكن لك أقارب؛ فإن هذا المال يكون لبيت مال المسلمين، ولا يكون لأولئك الأقارب الذين على غير دينك.

والتَّولِّي: هو الانضمام إليهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ أي: ينضم إليهم ويكون في معسكرهم، أو ينصرهم على المسلمين، وهذه رِدَّةٌ عن الإسلام؛ ولهذا ذكر العلماء في نواقض الإسلام: مُظاهرة المشركين ومُعاونتهم على المسلمين؛ فإن نصرهم وأعانهم على المسلمين، فهذا هو التولي.

والموالاة أوسع من ذلك؛ فيجب على المؤمن أن يحذر التولي والموالاة للكفار، وأن يكون حَذِراً من هذه الأشياء، وبعيداً منها، وأن يوالي المؤمنين، ويحبهم في الله جل وعلا، يرجو بهذا مرضاة الله سبحانه وتعالى.

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ ومسألة التُّقاة شيءٌ آخر، مثل مسألة الإكراه، قال الله جل وعلا: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، =

....

= فإذا أظهر لهم بعض الموافقة لتوقي شرهم وخطرهم، لا عن حبٍّ لهم، ولا عن موافقة دينهم؛ فهذا شيء آخر غير الموالاة، وذلك من باب التَّقِية أو من باب الإكراه.

ومن هذا ما يؤثر عن أبي الدرداء ذكره البخاري رحمه الله في بعض تراجمه تعليقاً[1]: «إنا لنَكْشِر في وجوه أقوام وإن قلوبنا تلعنُهم» نَكشر أي: نتبسم أو نضحك لهم وقلوبنا تلعنهم؛ لبغضهم في الله عز وجل؛ لكن نتقيهم؛ إما لسلطانهم، وإما لغير هذا من الأسباب التي توجب اتقاء شرهم، حتى لا يضروا المسلمين، ولهذا قال عز وجل: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ ثم قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي: أن البَهْرَج والشيء الذي ليس له حقيقة لا ينفعكم؛ فالله يُحذِّركم نفسه أن تُظهروا خلاف ما تُبطنون، وأن تشاركوا أهل النفاق في إظهار الحق وأنتم على غيره، فالله يعلم كل شيء ولا تخفى عليه خافية سبحانه وتعالى، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا =

---

(١) علقه البخاري، باب المداراة مع الناس، قبل الحديث (٦١٣١).

....

= ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا فيه التحذير من محبة أعداء الله وموالاتهم، والأمر بِبُغض أعداء الله ومُعاداتهم، وأن هذا هو دين الله الذي بعث به رُسُله وأنزل به كتبه، ولهذا قال في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، فدل ذلك على أن هذه العداوة وهذه البغضاء أمدُها دخولهم في الإيمان، فإذا دخلوا في الإيمان؛ انتهت هذه العداوة والبغضاء، وصاروا من جملة الأولياء والأحباب في الله سبحانه وتعالى.

ثم يقول جل وعلا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ هذا يبين لنا أن جميع أعمالنا سوف تُحضَر يوم القيامة، وسوف تُقدَّم للعبد في كتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، كل شيء قد كُتب وضُبط، =

....

= فهي محصورة ومحفوظة، فتقدَّم لأهلها يوم القيامة، فأهل الخير يرون في ذلك ما يسرُّهم وما يَحْمَدون الله عليه جل وعلا، وأهل السوء إذا رأوا ما قدَّموا لأنفسهم من الشر، فإن كلَّ واحد يودُّ لو أن بينه وبينهم أمداً بعيداً، حتى يسلم من مَعَرَّتِه ومن عاقبته الوخيمة.

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾؛ فأنت اليوم في غاية الإمكان، وفي غاية القدرة من أن تبتعد عن هذا الشيء الذي تودُّ أن يكون بينك وبينه أمداً بعيداً، وذلك بالجد في طاعة المولى سبحانه وتعالى والاستقامة على أمره، والتوبةِ عن ممارسة الذنوب والمعاصي، والاستمرار في ذلك، فأنت اليومَ في دار العمل، ويومُ القيامة ليس بدار عمل؛ ولكنها دار الجزاء ودار الحساب، فإذا كنت تريد النجاةَ والعافية: فاعمل اليوم في طرق النجاة، وفي أسباب السلامة قبل أن يأتي يوم ليس فيه حيلةٌ ولا تنفع فيه معذرة، يوم لا ينفع الظالمين معذرتُهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار.

ثم قال: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ =

....

= ومن رحمته ورأفته بالعباد: أنه بين لهم ما يجبُ عليهم وما يحرم عليهم، وحذَّرهم نفسه سبحانه وتعالى، فهذا من رحمته وإحسانه؛ حيث أنذر وبيَّن وأوصى وأمر ونهى؛ حتى لا يقول قائل: ما جاءنا من بشير ولا نذير، وما عَلِمنا، وما أُمرنا، وما نُهينا؛ فقد جاء البشير وجاء النذير وجاء البيان؛ فلا يلومن لائم إلا نفسه إذا قصَّر وأعرض وغفل.

ثم يقول بعد هذا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذه الآية عظيمة، وهي تسمى آية المحنة؛ لأن بعض الناس ادعى محبة الله وهو على غير الطريق، فامتحنهم الله بهذه الآية: ﴿قُلْ﴾ أي: قل يا محمد، أو يا أيها الرسول للناس: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فدل ذلك على أن الدليل والبرهان على صدق المحبة لله هو اتِّباع النبي محمد ﷺ؛ فمن كان صادقاً في حبه لله اتبع رسوله ﷺ، وانقاد لما جاء به من الهدى في الأقوال والأعمال والعقيدة، وأما الدعاوى الطويلة والكلام الكثير؛ الذي ليس له حُجَّةٌ ولا بُرهانٌ يدل على الصدق؛ فإنه لا =

....

= يُجزئ عن أهله شيئاً، فلا بد من بيان، ولا بد من برهان بالعمل وهو اتِّباع الرسول ﷺ في الأقوال والأعمال، والبعد عما نهى عنه قولاً وعملاً، والاستقامة على ذلك حتى تلقى ربك وأنت على ذلك.

هذا هو الدليل على حبك لله عز وجل، أن تستقيم وتثبت على ما جاء به نبيك محمد عليه الصلاة والسلام، وأن تستمر على ذلك حتى تلقى ربك، وأن تبتعد عما نهى عنه؛ كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وفي الآية الأخرى يقول جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣-١٤]، فإذا قال: رَبِّيَ الله، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، أو قال: أنا مسلم أو ما أشبه ذلك، فالدليل على صدق ذلك هو الاستقامةُ على طاعة الله ورسوله، بأداء الفرائض، وترك المحارم، والوقوفِ عند الحدود، وأما إذا كانت دعوى من =

....

= دون دليل، ومن دون حجة من الفعل؛ فتجده يخالف أمر الله، ويرتكب محارمَ الله، ويتأخر عن فرائض الله سبحانه وتعالى.

ثم أكَّد ذلك بقوله سبحانه: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ إشارة إلى أن من أعرض عن الله وعن طاعة الله ورسوله فهو من الكافرين، والله سبحانه وتعالى لا يحبُّه، فالدليل على صدق المحبة لله هو اتِّباع الرسول محمد ﷺ، وطاعة أوامر الله ورسوله، وتركُ نواهي الله ورسوله، فمن أعرض عن ذلك، وتابع الهوى والشيطان؛ فليس بصادق في دعواه حبَّ الله ودعواه الإسلام.

ثم بَيَّن الله جل وعلا أنه اصطفى من عباده آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران، واصطفاهم يعني: اختارهم من بَينِ عباده؛ فالله يصطفي من الملائكة ومن الناس من يشاء سبحانه وتعالى؛ فقد اختار آدمَ عليه الصلاة والسلام وجعله أبا البشر، وهداه ووفقه ومَنَّ عليه بالتوبة مِنْ زَلَّتِهِ، ثم اصطفى أيضاً نوحاً من ذريته، وجعله أول رسول أرسله الله إلـى أهل الأرض، وأنجاه الله من =

....

= الطوفان، ثم اصطفى ما شاء من الأنبياء، إلى أن اصطفى نبي هذه الأمة عليه الصلاة والسلام، فهذه أشياء خص الله بها مَن يشاء سبحانه وتعالى؛ فله الخيار، وله الخِيَرة جل وعلا ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] من بني آدم ومن غيرهم من الملائكة ومن البلاد؛ كما اختار مكة، وجعلها محلَّ عبادته، ومحل قِبلة عباده، واختار المدينة، وجعلها محل مهاجَرِ الرسول ﷺ، فالله يصطفي من يشاء سبحانه وتعالى*.

* س: رواية أبي الدرداء (إنا لنَكْشِر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم) هل هو مرفوعٌ، أم من كلام أبي الدرداء؟

ج: من كلام أبي الدرداء الصحابي الجليل رضي الله عنه.

س: إذا مَرَّ أحدنا في الطريق على النصارى - وهم موجودون الآن في الوقت الحاضر - هل نُضَيِّقُ عليهم كما في حديث النبي ﷺ؟

ج: معنى الحديث: أن تمشي في وسط الطريق؛ حتى يمشوا على أطرافه، لكن إذا خالفت النظام فلا؛ حتى لا يحدث التصادم؛ أما إذا كان الطريق واسعاً فتأخذ وسط الطريق، وتجعل لهم الأطراف، وهكذا الماشي إن استطاع ذلك. =

....

= س: ما الحكم إذا سَلَّم النصراني أو اليهودي؟

ج: يُرَدُّ عليه بـ «وعليكم»، مثل ما قال الرسول ﷺ.

س: فإن قال النصراني أو اليهودي: (السلام عليكم) كاملةً؟

ج: لا يزيد على «وعليكم».

س: قوله عز وجل: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾، هل هذا حَدٌّ؟

ج: هذا على من أُكره؛ إما بسوطهم أو بسلطانهم أو قدرتهم، كقُطّاع الطريق وأشباههم.

س: هل يجوز لعن اليهود والنصارى؟

ج: نعم، يجوز لَعَنُ اليهود والنصارى؛ لكن لَعْن المُعيَّن، كأن تقول: فلان بن فلان، هذا محلُّ نظر بين أهل العلم؛ أما لعن اليهود والنصارى ـ بشكلٍ عام ـ فقد فعله النبي ﷺ، فقال عليه السلام: «لعن الله اليهود والنصارى»[1]، وقال تعالى: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩]، ويجوز الدعاء لهم بالهداية؛ كما قال النبي ﷺ: «اللهم اهدِ دَوساً وائْتِ بهم»[2].

---

(١) أخرجه البخاري: الجنائز (١٣٣٠)، ومسلم: المساجد (٥٣١)

(٢) أخرجه البخاري: الجهاد والسير (٢٩٣٧)، ومسلم: فضائل الصحابة (٢٥٢٤).

[عظمة قدرة الله تعالى في قصة زكريا ويحيى عليهما السلام]

۞ قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٣٨- ٤١]. [١٩]

[شرح١٩] يبين الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات عِظَمَ قُدْرته على كل شيء، وأنه عز وجل على كل شيء قدير، وبكل شيءٍ عليم، وأنه يقول للشيء كُنْ، فيكون؛ كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. =

....

= فزكريا عليه الصلاة والسلام لما رأى ما رأى من الرزق الذي يأتي في غير وقته لسيدتنا مريم فيسألها: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] وجاء في تفسير هذه الآية ـ فيما ذكروا في هذا المقام ـ أنه كانت توجد عندها فاكهةُ الصيف في الشتاء، وفاكهةُ الشتاء في الصيف، فتأتيها أرزاق تُساق إليها في غير أوقاتها المعتادة، وهنالك رأى مِنْ قدرة الله عز وجل ما رأى في إحسانه سبحانه إلى مريم، وسياقه لها بعض الأرزاق التي ساقها إليها في أوقات تخالف العادة.

قال: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ [آل عمران: ٣٨] أي: انْتَبَهَ لهذا الأمر، وهو أن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، وليس يُعجِزُه أن يرزقه ولداً على كِبَر سنِّه، وعلى كِبَر سن زوجته، فهو قادرٌ على كل شيء سبحانه وتعالى، كما هو قادرٌ على سوق الأرزاق إلى مَنْ يشاء من عباده في الأوقات غير المعتادة.

وهو سبحانه قادر أيضاً على أن يرزق الولد مع كبر السن وعقم الزوجة، ولهذا قال جل وعلا: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ﴾ =

....

= ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨] وعند ذلك رزقه الله جل وعلا الولد، وتقبَّل دعوته ويسَّر له ابنه يحيى عليه الصلاة والسلام.

لما بشرته الملائكة بذلك استنكر ذلك واستغرب، كيف يكون له ولد مع كِبَر سنه، ومع كون امرأته عاقراً عقيماً لا تلد، قد بلغت الكِبَر عتيا، فبين الله سبحانه وتعالى له أنه على كل شيء قدير، يفعل ما يشاء جل وعلا، فطلب آيةً تكون علامة على أن هذه البِشارةُ سوف تحصل، فبين الله سبحانه الآية ـ أي: العلامة على أن ما بشره به سوف يحصل ـ وهذه الآية: ألا يكلم الناس ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ أي: لا يكلم الناس الكلام المعتاد، ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ يعني: إلا إشارة، بغير كلام ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١] فمن آيات الله عز وجل العظيمة أن جعل لسانه يُعقلُ عن الكلام المعتاد، فلا يستطيعه، لكنه يُسبِّح ربه ويذكره كثيراً بلسانه =

....

= المعتاد، فهو معقول عن الكلام المعتاد، ولكنه مطلَقٌ في ذكر الله وتسبيحه وتهليله سبحانه وتعالى، وهذه من الآيات الدالة على أن المطلوب سوف يحصل، وأن الله جل وعلا هو الذي وعده به، فهو من عنده وليس من عند غيره، وأنه حقٌّ ووعدُ صدقٍ، فالذي قَدَرَ على سَوْقِ الأرزاق في غير أوقاتها، وأعطى إبراهيم ـ الشيخ الكبير ـ ولداً من سارة مع كونها عجوزاً عقيماً كبيرة، فرزقهم الله إسحاق عليه السلام، وهكذا حصل بيحيى بن زكريا، فَوُلِدَ مع كبر سن زكريا، وزوجته عاقر، فربك على كل شيء قدير سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وكذلك طهَّر مريم وصانها وهداها، وقد استنكرت أن يرزقها الله ولداً من غير أن يمسها بشَرٌ، ومن غير أن تكون بغياً أو زانية، فقيل: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران:٤٧] سبحانه وتعالى. فكل هذه من آياته جل وعلا الدالة على قدرته العظيمة، وأنه سبحانه إذا أراد شيئاً فلا رادَّ له، فإنه هو مَن يعلم سبحانه وتعالى، وهو على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم. =

....

= وفي هذا حقُّ العباد في اللجوء إليه، والضراعة إليه، وسؤالِه سبحانه ما يهمهم، وما يحتاجون إليه، وما فيه صلاحهم، ونجاتهم، وأن يحسنوا الظنَّ به، وأن يعلموا أنه على كل شيء قدير، وأنه بكلِّ شيء عليم، وأنه الناصر لأوليائه، وإن كثر عددُ خصومهم، وإن عظُمت قوة خصومهم، فهو سبحانه على كل شيء قدير، يقدر أن يهزم الجُند الكثير بالجند القليل، فـ ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وذَكَر لهم من آيات عيسى عليه السلام الدالة على صدق رسالته من إحيائه الطير بإذن الله، وإبرائه الأكْمَهَ والأبرصَ، وإحياء الموتى بإذن الله، وإخباره لهم بما يأكلون، وما يدَّخرون في بيوتهم، ستةَ أشياء ذكرها لهم للدلالة على صدقه:

أوَّلوها: أنه عليه الصلاة والسلام، يخلُق كهيئة الطير، أي: يأتي بأشياء ويصنعها كصفة الطير، ثم ينفخ فيها، فتكون طيراً بإذن الله، وقومه يشاهدون ذلك.

وكذلك: إبراء الأكْمَهِ والأبرص، وهما مرضان خطيران ليس =

....

= من شأن الأطباء علاجهما؛ والأكمَه قيل في تفسيره: هو الذي وُلد ضريراً ليس له بصر، وقيل: الأكمه هو الذي ذهب بَصَرُ عَينيهِ ذهاباً لا حِيلةَ للأطباء فيه. والأبرص: هو الذي به برَصٌ ويصعُب على الأطباء علاجه. وبكل حال فهي من آيات الله سبحانه وتعالى لصدق نبيه عيسى عليه الصلاة والسلام، فجعل الله من آيات عيسى عليه الصلاة والسلام ودلائل صحة رسالته: إبراء هذا المرض، وإزالته، فالله عز وجل يقول للشيء: كنْ، فيكون، كما ثبت في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «إنَّ الله جل وعلا ابتلى ثلاثةً من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، وأزال الله عن الأبرص برَصَه، وعن الأقرع قرَعَه ورد على الأعمى بصره بقدرته سبحانه وتعالى»[١].

كذلك إحياء الموتى، وإخبارهم بما يأكلون في بيوتهم، وما يدخرون، وغير ذلك من الأمور التي ليس عند عيسى خبر منها من جهة الـمعتاد، ولكنه من خبر الله سبحانه وتعالى، فعيسى لا =

(١) أخرجه البخاري: أحاديث الأنبياء (٣٤٦٤)، ومسلم: الزهد والرقائق (٢٩٦٤).

....

= يستطيع أن يعلم شيئاً من أحوالهم الداخلية إلا بمُخبِرٍ منهم، أو بإخبار الله عز وجل، فالأشياء التي لا يخبرونه بها ولا يخبره بها أحد، يخبره الله جل وعلا بها كي يخبرهم بذلك، وهذه أيضاً من الدلائل على أنه رسول الله، وليس ولداً لله.

وقد انقسمت اليهود والنصارى اتجاهه، فاليهود نفت وأنكرت نبوته ورسالته عليه الصلاة والسلام، وزعمت فيه الزعم الخبيث، وأنه ولد بغِيٍّ ـ قاتلهم الله أنَّى يؤفكون.

والنصارى بضلالهم وجهلهم غَلَوا فيه، وجعلوه ابن الله، أو أنه الله، أو ثالثَ ثلاثة، لعنهم الله جميعاً.

ولا يتم إسلام أحد منهم ولا يصلح حتى يتبرّأ من قول الطائفتين الملعونتين: اليهود، والنصارى، ويأخذ بقول الوَسَط، وهو أنه عبدُ الله ورسولُه، خلقه الله من أنثى بدون ذكر، قال الله له: كنْ، فكان، ولهذا قيل له: كلمة الله، كما قال الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] أي: بعيسى. وعيسى ويحيى ابنا خالة، أمهما أختان، فأم يحيى =

....

= وعيسى أختان، ولذلك فإنه يقال لهما: ابنا الخالة، وزكريا زوج خالة عيسى عليه السلام.

ففي هذا كلِّه دلالة على عظيمِ قدرة الله عز وجل، وأنه سبحانه وتعالى المالك لكل شيء، والقادر على كل شيء.

وفي هذا حث العباد على اللُّجوء إليه، وسؤاله، وعدم استعظام الأمور بالنسبة إليه، وأنه يقول للشيء: كنْ، فيكون. فينبغي للعاقل أن يسأل ربه كل شيء، وأن يضرع إليه في صلاح قلبه وهدايته واستقامته على الخير والهدى، وأن يضرع إليه في سلامته من كل سوء، وعافيته من مضلات الفتن، كما يسأله الغنى من الفقر، والنصر على الأعداء، والحماية من كيد الأعداء، إلى غير ذلك مما يهمُّ العبد.

وفيه أيضاً تشجيع العباد على الجهاد في سبيل الله، وألا يَضجَروا من قلَّة عددهم، وكثرة خصومهم، بل عليهم أن يستعينوا بالله، وأن يستنصروه سبحانه وتعالى، وأن يَصدُقوا في ذلك، وسوف ينصرهم الله ويعينهم؛ لأنه سبحانه وتعالى هو القادر على =

....

= كل شيء، فلو قال للعدو: موتوا لماتوا، لكنه ابتلى هؤلاء بهؤلاء، ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]؛ ليتبين صِدقُ الصادقين، وكَذبُ الكاذبين، وجهادُ المجاهدين، وتأخُّرُ المتأخِّرين، ويتبين من يَرغب في أسباب النجاة، ومَن يريد الدرجات العالية، ومن يتصبَّر على ما يرضي الله، ويقرب لديه من الكسالى والكذابين والمنافقين وأشباههم.

ولو أن كلَّ داعٍ إلى الله، أو كلَّ رسول، أو كل مؤمن أُعطي ما يريد، وكلَّ كافر مُنع مما يريد، لكان الناس كلهم أمة واحدة، ولكانوا على دين الله جميعاً، ولكن بالابتلاء والامتحان انقسم الناس، والله المستعان*.

س: هل رِزْقُ الله سبحانه وتعالى لمريم وهي تحتسب، معناه أنها توكلت على الله حق التوكل، مصداق قول الرسول ﷺ في الحديث: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً»[1]؟ =

---

(١) أخرجه الترمذي: المزارعة (٢٣٤٤)، وابن ماجه: الزهد (٤١٦٤).

....

= ج: على كل حال فلها أسباب ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢ - ٣]، فهي من جهة صدق إيمانها وقوة يقينها وقيامها بأمر الله، صَدَّقَها اللهُ بأمور ليست في قدرتها، ساقها الله إليها، فالتوكل الصادق من التقوى.

س: هل من تَوكُّلِها أن تُرزق بغير حساب؟

ج: إن التوكل من جهة التقوى، فالمتوكِّلون هم من المتقين، والله يقول جل وعلا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، فالمتقي اللهَ يُرزق ويُصلح أمرُه، وليس معنى ذلك أنه يعطل الأسباب، فليس تعطيل الأسباب من التقوى، ومريم ليست ممن يعطل الأسباب، ولكن الله يسوق لها أشياء بغير أسبابها؛ ليبين فضلها وكرامتها، وليعلم الناس أن الأمور بيده جل وعلا، وأنه سبحانه وتعالى متى أراد شيئاً كان، ولهذا في حديث عمر رضي الله عنه، مرفوعاً: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصاً، وتروح بِطاناً». فقوله ﷺ: «تغدو خماصاً» أي: آخذةً بالأسباب في طلب الرزق، و«خماصاً»: جِياعاً، تذهب تطير هاهنا وهاهنا على الجبال والأودية والشعاب، تطلب الرزق، ثم ترجع «بطاناً» =

....

= أي: شِباعاً في آخر النهار، قد رزقها الله عز وجل، وأعطاها حاجتها. ومن الأخذ بالأسباب عند الطير: هو أن تطير تطلب الرزق، فلا تبقى في أوكارها.

وأنت كذلك من جملة الأخذ بالأسباب لك أن تخرج من بيتك، وأن تطلب الرزق حسب الطاقة، من البيع والشراء والعمل بالصناعات وفي الملاحة، أو في التجارة، أو بأي شيء مما أباح الله جل وعلا، فلا بد من هذا مع القدرة. وإذا عَجَز الإنسان عن ذلك، ساق الله رزقه إليه بقدرته سبحانه وتعالى، فإنه يرزقه من حيث لا يحتسب، إما بوجود مَنْ يهدي إليه، وإما بوجود أسباب أخرى يترتب عليها رِزقٌ له وهو في البيت، فهو جل وعلا على كل شيء قدير.

[قصة عيسى عليه السلام]

۞ قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٢-٥٥]. [٢٠]

[شرح٢٠] فقد ذكر ﷻ شأن عيسى عليه الصلاة والسلام، وشأن الذين كفروا به، وشأن الذين اتبعوه، وبين ﷻ أن الأنصار ـ وهم الحورايون ـ أجابوه وتابعوه، وأنه بعد ما ظهر من بني إسرائيل الكفرُ به والمعاداة له وإنكار نبوته رفعه إليه جل وعلا وكفاه شرهم، ووقاه بلاءهم. =

....

= يقول جل وعلا: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ يعني: لـمّا علم عيسى عليه السلام من بني إسرائيل الكفرَ وعدم الإيمان به ـ فإن اليهود عادوه، وكفروا به، وزعموا أنه ولد بَغِيّ، ولم يصدقوا بما جاء به من الهدى عليه الصلاة والسلام، وكفروا بذلك مكابرة منهم؛ فعليهم لعائن الله المتتابعة.

فلما رأى ذلك منهم ﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يعني: من ينصر دين الله ويتابعني في نصر دين الله، فقال الحواريون ـ وهم الأنصار والأتباع الصادقون ـ: نحن أنصار الله، والحوراي هو الناصر، ومنه الحديث الصحيح في قصة الزبير، «لكل نبي حورايٌّ وحواريَّ الزبير»[1] يعني: الناصر الخاص المتفاني في النصرة، ومنه الأنصار ـ الأوس والخزرج ـ الذين أووا المسلمين، ونصروهم، وجاهدوا في سبيل الله، وصدقوا فيما عاهدوا الله عليه رضي الله =

(١) أخرجه البخاري: الجهاد والسير (٢٨٤٦)، ومسلم: فضائل الصحابة (٢٤١٥).

....

= عنهم وأرضاهم.

وكل من ناصر الدين في أي مكان، وفي أي زمان؛ فهو من الأنصار في المعنى؛ وليس خاصًا بالأوس والخزرج، ولا بالحواريين في عهد عيسى، ولكن كل من نصر الحق وجاهد في سبيله؛ فإنه في الحقيقة من الأنصار، وله الفضل العظيم في ذلك، وكلما اشتدت الغربة، وقَلَّ من يساعد على الحق؛ صار فضل الأنصار أكثر وأكمل، فمن عادى الأنصار وأبغضهم، فذلك علامة نفاقه، ومن أحب الأنصار، ونصرهم، وأيدهم، وسار في ركابهم فذلك علامة الإيمان، ومن ذلك الحديث الصحيح، «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»[1].

وإن كان هذا في الأنصار المعروفين وهم الأوس والخزرج ولكنه في المعنى يعمهم، ويعم غيرهم في كل زمان وفي كل مكان، فمن الإيمان حب من نصر دين الله، وموالاته، وإعانته، ومن علامات النفاق بغض من نصر دين الله، وعاداه. في كل زمان وفي =

(١) أخرجه البخاري: الإيمان (١٧)، ومسلم: الإيمان (٧٤).

....

= كل مكان.

وفي هذا حث وتحريض على نُصْرَةِ دين الله، والتأسي بالأخيار، والحذر من صفات الأشرار الذين من شأنهم إنكار الحق والكفر به، ومتابعة الهوى والشيطان، كاليهود وأشباههم ممن عرف الحق وأنكره، وابتغى العيوب لأهل الإيمان، وآثر حب العاجلة.

فمَنْ جحد الحق لهوًى في نفسه؛ فإنه مشابه لليهود في هذه الحادثة، والله أعلم، ومن نصر الحق وأيده وجاهد في سبيله، وآوى أهله، فقد شابه الأنصار من الأوس والخزرج، ومن قبلهم من أنصار دين الله؛ فله من الفضل، ومن الأجر بحسب ما قام به من نصر دين الله جل وعلا.

وفي قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ دلالة على أن الله قبض عيسى إليه ورفعه إليه، وقد جاءت الأحاديث صريحة في ذلك متواترة مستفيضة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، بأنه رفع عيسى لما تعدى عليه بنو إسرائيل، واستثاروا عليه مَلِكَ زمانهم، وأرادوا قتله حتى خلصه الله من =

....

= شرهم، وأنجاه من بين أظهرهم برفعه إليه ﷻ.

وقوله: ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ يعني: قابضك، والتَّوَفِّي هنا ليس هو الموت ولكنه القبض، ويقال: توفى نصيبه من كذا، واستوفى نصيبه من كذا، يعني: قبضه، ومنه: توفى المكيال، أي: قبض المكيال، فالتوفي والاستيفاء بمعنى القبض.

وقد فُسِّرت هذه الكلمة بثلاثة معان: بالنوم، وبالموت، وبالقبض الذي هو الرفع، وأصح الذي قيل فيها وفي أمثالها أنه القبض، يعني: قبضه إليه ونقله إليه ﷻ؛ فالله قبضه إليه ونقله إليه، ثم يليه القول بأنه وفاة النوم، فأخذته سِنَةٌ من النوم عند رفعه، ثم أفاق منها بعد الرفع عليه الصلاة والسلام.

أما القول بأنه الموت، فهو قول ساقط لا وجه له، وهو مما يتشبث به القاديانيون وأشباههم ممن زعم أن عيسى مات، وأن القادياني هو خليفته وهو الذي جاء بعده يكمل النبوة، فهذا من الكلام الساقط الذي لا وجه له.

فالمقصود أنه عليه الصلاة والسلام رفعه الله إليه كما قال: =

....

= ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ [سورة النساء: ١٥٨] فهو مرفوع إليه، وسُمِّي الرفع توفيًّا؛ لأنه من القبض، وهو قبض الشيء وإحرازه، فالله جل وعلا قبضه إليه، ورفعه إليه، وليس المراد الموت؛ ولهذا أخبر في الآية الأخرى:

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡ﴾ [سورة النساء: ١٥٧] وقد ذيلها الله ﷻ بقوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٥٨].

فالمقصود أنه رُفع إلى الله جل وعلا، وصار في السماء، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة واضحة في أنه مرفوع، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام لقيه في السماء الدنيا مع يحيى بن زكريا، وأخبر في الحديث الصحيح، أنه رُفع إلى السماء، وأنه ينزل في آخر الزمان، وأن وجوده في آخر الزمان علامة من علامات الساعة، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [سورة الزخرف آية: ٦١].

فالمقصود أنه ينزل في آخر الزمان، وقد رُفع لما تُعُدِّي عليه =

....

= وأراد اليهود قتله، فرفعه الله وخلصه منهم، وسوف ينزل في آخر الزمان، وهو من علامات الساعة، وسوف يقتل الدجال، ثم يموت بعد ذلك، كما في قوله جل وعلا: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [سورة النساء آية: ١٥٩].

فالموت لا بد منه وسوف يقع ويحصل؛ لكنه بعد نزوله، وبعد حكمه بشريعة محمد عليه الصلاة والسلام فترة من الزمن، وقد جاء في بعض الروايات أنها سبع سنين، وجاء في رواياتٍ أخرى أنها أربعون سنة.

فهو سينزل ـ عليه السلام ـ، وسوف يحكم بشريعة محمد ﷺ، ويقود الناس للجهاد، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ولا يقبل من الناس إلا الإسلام أو السيف؛ كما جاءت بذلك الأخبارُ عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، فهذا هو الحق في أمر عيسى عليه الصلاة والسلام.

والحق فيه أنه مثلما قال الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] فكما أن آدم خُلق من تراب، وأوحى الله =

....

= إليه، وجعل له شريعة يسير عليها، فعيسى عليه الصلاة والسلام كذلك، خلق من أنثى بلا ذكر، فكما أن آدم لا يُستنكر ولا يمكن التكذيب بأنه خلق من تراب من دون أب ولا أم؛ بل من تراب، فعيسى لا يُستنكر أيضًا أن يكون من أنثى بلا ذكر؛ لأن هذا أسهل وأيسر من وجود آدم من تراب ـ بلا أب ولا أم ـ.

والله جعل الناس أقساماً أربعةً، وبوجود عيسى تَمَّت القسمة:

القسم الأول: وُجد من تراب بلا أب ولا أم.

القسم الثاني: خُلق من ذكر بلا أنثى، وهي حواء خلقها الله من آدم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١].

القسم الثالث: خُلق من أنثى بلا ذكر على عكس حواء؛ فحواء من ذكر بلا أنثى، وعيسى من أنثى بلا ذكر، بقدرته تعالى خلقهما بقوله: كن، فكان.

القسم الرابع: بقية الناس من ذكر وأنثى كما قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [سورة الحجرات: ١٣]. =

....

= هذه حال الناس في هذه الأقسام الأربع، وبوجود عيسى تَـمَّت القسمة الرباعية، وربُّك على كل شيء قدير ﷻ، وهذه من آياته الدَّالة على قدرته العظيمة، وأنه يقول للشيء: كن، فيكون.

وأيُّ شيء يُستنكر من هذا؟! فليس وجود الذَّكر لحمل الأنثى أمرًا مُتحتِّـماً؛ بل قدرة الله ﷻ شاملة له، وفي قدرته سبحانه أن يُوجِد أنثى بلا ذَكر، وذَكراً من أنثى، و يُوجِد أنثى من ذَكر، وذَكراً بلا أنثى، كل هذا وقع منه ﷻ، كما وقع في قدرته جل وعلا إيجاد إنسان بلا ذكر ولا أنثى؛ بل من التُّراب وهو آدم أبو البشر عليه الصلاة والسلام، ثم البقية من ذَكر وأنثى؛ فالله على كل شيء قدير، وهو بكل شيء عليم.

وفي هذا دلالة أيضاً على أن أتباع عيسى هم المنصورون إلى يوم القيامة، وأتباعه ـ كما قال أهل العلم ـ هم أتباع محمد عليه الصلاة والسلام، وهم الذين صدقوه وآمنوا بأنه رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأنه عبد الله ورسوله وأنه خُلق من أنثى بلا ذَكر، وأنه لا أبَ له؛ فهم أتباع محمد عليه الصلاة والسلام، والطائفة =

....

= القليلة التي تابعته عليه الصلاة والسلام، ثم أوذيت، هؤلاء هم أتباعه عليه الصلاة والسلام، فاتِّباع عيسى هم الذين تابعوا محمداً عليه الصلاة والسلام، وجعلوا وجوده آية من آيات الحق، ودلالة من دلالات الحق الذي بعث الله به نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام، وفي الآيات فوائد معلومة لمن أرادها*.

---

* س: هل هناك مكان معين لدفن عيسى عليه السلام؟

ج: يُروى في بعض الأحاديث ولكن في صحته نظر أنه يدفن في الروضة النبوية عليه الصلاة والسلام؛ لكن لا أعلم في ذلك شيئًا ثابتًا؛ إنما يقال هذا؛ فقاله ابن كثير وغيره؛ لكن ما أعلم سندًا متصلًا أنه سوف يدفن في الروضة النبوية، وهذا لا يُعْتَمَد عليه، والله أعلم.

س: وهل هناك مكان معين لدفن المهدي؟

ج: فيه أحاديثُ كثيرة منها الضعيف، ومنها الموضوع؛ ويوجد أيضًا عِدَّةُ أحاديث صحيحة جيدة، وسوف يخرج المهدي كما جاء في الأحاديث، ويملأ الأرض قسطًا وعدلًا، بعدما ملئت جورًا.

والأشهر والأكثر من أهل العلم على أنه يكون قبل عيسى عليه الصلاة والسلام ـ هذا هو المشهور عند أهل العلم من قول الجمهور ـ أنه يخرج =

....

= ويوجَد قبل عيسى عليه الصلاة والسلام، وأنه يُطلَب ويُسعى له حتى يُبايَع، وقد جمع في هذا جمع من أهل العلم أحاديث، ومنهم أبو داود رحمه الله، جعل له كتابًا مستقلًّا في كتاب «السنن»: (كتاب المهدي)، وجمع غيره في ذلك أحاديث المهدي عليه الصلاة والسلام، فجُمع فيه أحاديث؛ لكن مجموعها فيها الضعيف، وفيها الصحيح، وفيها الحسن، وفيها الموضوع.

من ذلك حديث ابن مسعود وحديث علي، وحديث أم سلمة، أحاديث جيدة في هذا الباب، في قصة المهدي.

س: وما معنى الحديث الذي فيه: «يصلحه الله ﷻ في ليلة»؟

ج: يعني: يتم الله أمره، ويقضي أمره، ويُبايَع له في ليلة، وهذا أحسن ما قيل فيه.

س: يوجد بعض من أنكر هذا الحديث وضعَّفه؟

ج: كل بحسب علمه، وصار أنه خفي عليه الأمر، مثل مَن قد ينكر بعض الأحاديث الأخرى الصحيحة، وصار أنه يُردُّ عليه، ويقال له: قد غلط وأخطأ.

س: إن الذي أنكره وضعفه من العلماء المعاصرين.

ج: من أنكر هذا من أهل العلم، يقال له: إنه غلط، أو تأوله على أنه من قول الرافضة، أو من أقوال الشيعة، وهذا غلط أكبر وأقبح. =

....

= يقال: المهدي شخص من بيت محمد ﷺ، يقال له محمد بن عبد الله يواطئ اسمه اسم النبي ﷺ، واسم أبيه اسم أبيه؛ فهو من أهل البيت وهذا ثابتٌ عن النبي ﷺ.

أما زمان خروجه، فالأشهر أنه قبل عيسى، وجاء في بعض الأحاديث أنه أمير الناس عند خروج عيسى عليه الصلاة والسلام، ولكن ليست الأحاديث في تحديد أنه قبل عيسى بواضحة، وفيها حديث لا بأس به رواه الحسن عن أبي أسامة، وهو غير شاهدٍ له ولكن ليس في القوة والجودة مما يُعْتَمد عليه.

فالحاصل والأقرب، أنه قبل عيسى، وأنه أمير الناس عند نزول عيسى وأن الحال في زمانه ـ مثل ما قال النبي ﷺ ـ تستقيم ويملأ الأرض قسطًا وعدلًا بعدما ملئت جورًا. ولكن كون ذلك أمرًا قطعيًّا قبل عيسى، فيه نظر، فقد يكون بعد عيسى عليه الصلاة والسلام، لكن الأغلب والأكثر من أهل العلم على أنه قبل عيسى، بعد تغير الأحوال مثل وقتنا الآن تتقارب الآن لأن الأرض ملئت الآن جورًا وشرًا وكفرًا وضلالًا في غالبها، ولم يبق إلا قليل، فالزمان مقارب أن يكون وجوده قريبًا على ما قاله الجمهور، ثم بعده يخرج الدَّجّال، فينزل عيسى عليه السلام إلى قتاله.

س: وما الأرجح من مكوث عيسى أربعين سنة أو سبع سنوات؟ =

= ج: الأقرب سبع سنوات، والحديث في صحيح مسلم[1].

س: وكم يبقى حكم المهدي؟

ج: الله أعلم، لا أعرف، وأذكر هنا أخونا الشيخ عبد المحسن العباد رئيس الجامعة الآن؛ فقد جمع مقالًا جيدًا وافيًا طُبع في مجلة الجامعة، جَمَعَ غالب ما في الباب من الأحاديث، وكذلك أخونا التويجري في إتحاف الجماعة، فقد جمع أشياءً كثيرةً في هذا الباب يمكن أن يستفاد منها فائدة كبيرة، وما ورد في ذلك يمكن لطالب العلم أن يتتبعها ممن خَرَّجها؛ فيستفيد من هذا فائدة كبيرة بالتدبر.

س: ما حكم رفع العَلَم الذي يرمز إلى صلب المسيح موازياً للعَلَم الذي كُتِب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله؟

ج: هذا ممنوع ولا يجوز؛ فالظاهر أنه يستفاد منه أنه نوع من التصديق؛ فلا ينبغي مثل هذا ولا يجوز، لا يجوز رفع هذا العلم، اللهم إلا إذا كان رفعه الأقربَ في دفع شر أو ضرر، فيمكن؛ لكن ينبغي في هذا عدم المجاملة، وينبغي عدم رفع شيء فيه الصلب؛ لأن الصلب باطل ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ [سورة النساء: ١٥٧].

---

(١) برقم (٢٩٤٠).

[من مواقف أهل الكتاب]

۞ قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤- ٧٤]. [٢١]

[شرح٢١] يبيِّن الله سبحانه وتعالى كثيراً من حال أهل الكتاب ودَعواهُم ما ليس لهم به عِلمٌ، وتَلوُّنَهم في المُضارَّة لأهل الإيمان والتلبيس عليهم، وكَتْمَ الحق الذي عندهم؛ ليُضلوا الناس عن الهدى، ويلبسوا عليهم حقهم بباطلهم، وهذا شيء معروف من أعمال أهل الكتاب ولاسيَّما اليهود؛ لأنهم أكثر الناس في هذا فساداً وضلالاً وتلبيساً.

ففي هذه الآية الكريمة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية، يأمر الله سبحانه وتعالى نبيَّه ﷺ أن يقول لأهل الكتاب: ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ وهذه الكلمة هي كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله»؛ فإن الواجب على جميع أهل الأرض أن يكونوا فيها سواء، وأن يعبدوا =

....

= الله وحده، وأن يَتبرَّؤوا من عبادة ما سواه جل وعلا.

ولهذا كتب بهذه الآية النبيُّ عليه الصلاة والسلام إلى هِرقلَ عظيمِ الرُّوم يدعوه إلى معناها، وهو الإجابة إلى توحيد الله والإخلاص له، وترك ما عليه أهل الكتاب من الشرك بالله: من عبادة غير الله، من عبادة العُزير أو المسيح أو الأحبار والرُّهبان وغير ذلك، ودعاهم لأن يوحِّدوا الله وحده ويَتبرَّؤوا من الشِّرك به جل وعلا، وأن يُسلموا وُجوهَهم وأعمالهم له سبحانه وتعالى، ولكن القوم أَبَوا وعاندوا واستكبروا وتابعوا الهوى.

وكان النبي ﷺ يقرأ في سُنّة الفجر في الركعة الأولى قوله سبحانه: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وفي الركعة الثانية بهذه الآية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾، وما ذاك إلا لأن هاتين الآيتين فيهما توحيد الرُّبوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الإلهية؛ ففي الآية الأولى: توحيد الله والإخلاص له، والإيمان به وبرسله وبكتبه وبجميع ما أُنزل على الأنبياء، وعدم التفريق بينهم، والانقياد لما جاؤوا به. وفي الثانية: =

....

= التصريح بالبراءة من عبادة غير الله ومن الشرك بالله عز وجل، وأن نكون نحن وغيرنا سواء في ذلك، نعبد ربَّنا وحده ونتبرأ من عبادة ما سواه سبحانه وتعالى، ولا نتخذ من دونه أرباباً نعبدهم معه ونطيعهم في غير طاعته سبحانه وتعالى.

ثم يبيِّن بعد ذلك مُحاجَّة اليهود والنصارى في الحق، وزَعْم كلِّ طائفة أن إبراهيم منها، وأنها أولى بإبراهيم عليه الصلاة والسلام، ويبين جل وعلا أن أولى الناس بإبراهيم أتباعه مِن أيِّ جنسٍ كانوا، فأولى الناس بإبراهيم وبالأنبياء هم أتباعه على الحقيقة، فأتباع إبراهيم وأتباع النبي محمد ﷺ هم أولى الناس به، سواء كانوا من أقاربه أو من قبيلته وعشيرته، أم كانوا من أناس أو طوائف آخرين. فالمقصود هو اتِّباع الحق وإيثاره على ما سواه، ولهذا قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فأولى الناس بالأنبياء هم أتباعهم والمقرُّون بما جاؤوا به من الشرائع، والمجتمِعون على الحق الذي دعوا إليه، وأولى الناس بمحمد عليه الصلاة والسلام، هم =

....

= أتباعه وأنصاره سواء كانوا من العرب أو من العجم، فمَن كان تابعاً لشريعته معظِّماً لها وسار عليها فهو أولى الناس به ﷺ.

وفيه بيان أن اليهود ـ بقيَّة أهل الكتاب ـ يحرصون على إضلال الناس، وعلى إغوائهم، وعلى إدخال الشرك عليهم؛ ولهذا قالوا: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فدَعَوا الناس إلى أن يؤمِنوا أول النهار ثم يكفروا آخر النهار ويقولون: ما وجدنا ما عندهم مناسباً للحق أو موافقاً له، حتى يقولوا: جرَّبنا ونظرنا فما وجدنا ما يدل على الحق الذي ادَّعَاه محمد عليه السلام، فيكون هذا أبلغ في الإضلال والتشكيك وهذا من ضلالهم وكَيدِهم، أن يدخلوا في الإسلام أولَ النهار ويُظهِروا أنهم من أهله، ثم في آخر النهار يَكفرونَ ويَقولون: ما وَجدْنا المطلوبَ؛ نسأل الله السلامة.

والمقصودُ من هذا: التحذيرُ من طرائقهم ومن أخلاقهم ومن صفاتهم الذَّميمة، وأنه ينبغي للمؤمن أن يَحذَر صفاتِهم الذَّميمة وأخلاقَهم المنحرفة، وأن يكون مع الحقِّ أينما كان، ويَثبُتَ عليه، =

....

= وأن يَحذَر الباطل وأهلَه في أيِّ وَقتٍ كان وفي أيِّ مكانٍ كان. والله المُستعان.

[الميثاق المأخوذ على الأنبياء]

۞ قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا

﴿يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران: ٨١- ٨٦]. [٢٢]

[شرح٢٢] في هذه الآيات بيان أَخْذِ الله الميثاق على الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أن كل رسول يدرك رسولاً يأتي بعده أنه ينصره ويؤمن به ويؤيده، هكذا من أولهم إلى آخرهم، وأنهم قد اعترفوا بذلك وأقرُّوا والتزموا به ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وهذا يبيِّن أنه جل وعلا أوصاهم بهذا وألزمهم به، وأخذ عليهم الميثاق بذلك، وفي هذا التعاون على البر والتقوى، والتعاونُ على إظهار الحق والتواصي به، حتى يكون الناس على بيِّنة وبصيرة، مما تأتي به الرسل عليهم الصلاة والسلام.

ومن ذلك أَخْذُه الميثاقَ على الرُّسل: إنْ بُعث محمَّدٌ ﷺ وهم أحياء أن يصدِّقوه ويؤمنوا به، قال علي وابن عباس رضي الله تعالى عنهم: إن الله أخذ على كل نبي لئن بُعث محمَّدٌ وهو حي لَيُؤمِننَّ به ولَيَنصُرنَّه.

وهذا في جميع الأنبياء، ولكن محمداً ﷺ ـ وهو خاتمهم وإمامهم وخَطيبهم إذا اجتمعوا ـ أولاهم بأن يؤخذ الميثاق على غيره بتصديقه والإيمان به؛ لأنه الرسول الخاتم لجميع الأنبياء =

....

= والرسل، ولأنه مبعوث إلى عامة الناس ولجميع الثَّقلَين الجِنِّ والإنسِ، وهذه من خصائصه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن الله بعثه إلى الناس كافة، إلى الأحمر والأسود، إلى الجن والإنس، إلى العرب والعجم، فمَن تبع ما جاء به فله الكرامة والسعادة والعاقبة الحميدة، ومن حادَ عن سبيله فله النار نعوذ بالله من ذلك! ولهذا قال ﷺ: «كلُّ أُمَّتي يَدخلونَ الجنَّـةَ إلا مَنْ أَبَى». قيل: يا رسول الله، ومَنْ يَأْبى؟! قال: «مَنْ أطاعَني دَخلَ الجنَّـةَ ومَن عَصاني فقد أَبى»[1].

ثم يبيِّن سبحانه وتعالى أن الإسلام هو دين الله، وأنه لا ينبغي لأحد أن يحيد عنه فيقول: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾، فهو استفهام إنكار، وأن الواجب على جميع الثقلين الالتزام بدين الله وما جاء به الرسل، فهو سبحانه المالك القاهر الذي أسلم له كل شيء، يعني: انقاد له كل شيء، وذَلَّ له كل شيء، يقال: أسلم له، يعني: انقاد له وذل له، وسُمِّي دين الإسلام إسلاماً لأنه ذُلٌّ لله، =

(١) أخرجه البخاري: الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٠).

....

= وانقيادٌ له، وطاعة لأوامره، وتركٌ لنواهيه سبحانه وتعالى، فهذا الملك العظيم القاهر القادر على كل شيء المالك لكل شيء، هو المستحق أن يُعبد ويُعظَّم، ويطاع أمره سبحانه وتعالى.

ثم يأمر نبيَّه ﷺ بأن يقول: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ إلى آخره، وفي آية البقرة: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، فهذا واجب على النبي ﷺ وعلى الأمة أن يؤمنوا بما أَنْزَلَ الله على الأنبياء الماضين وعلى نبينا محمد ﷺ، وأن ينقادوا لذلك ولا يكذبوا بذلك، ويسلِّموا لذلك ولا يفرقوا بين الرسل عليهم الصلاة والسلام، لهذا قال جل وعلا: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾، وفي آية البقرة: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ وفي آل عمران إسقاطها، والمعنى واحد، من باب المعطوف على ما قبله، =

....

= وفي آية البقرة «إلى» وفي آية آل عمران «على» وكل ذلك معناه صحيح، أُنزل القرآن إلى كذا، وأُنزل على كذا، ووجه التعدية بـ«على» أنه أنزل على هذا النبي العظيم وعلى الأنبياء قبله، ووجه «إلى» أن هذا التنزيل انتهى إلى هؤلاء الرسل كما انتهى إلى نبينا محمد ﷺ.

فالمعنى: أن الله جل وعلا يأمر الأنبياء ومنهم نبينا محمد ﷺ، ويأمر أمته أن ينقادوا لهذا الوحي المنزل، وأن لا يفرقوا بين الرسل، وأن يكونوا خاضعين لذلك، وبهذا يقال لهم: إنهم مسلمون، يعني: منقادين لهذا الأمر بالتسليم والإيمان بأنه حق من عند الله عز وجل والإذعان له، كذلك ننقاد لما بعث الله به نبيه محمداً ﷺ ونذل له ونعتمد عليه، ونسير عليه ونتمسك به حتى نلقى ربَّنا عز وجل.

وهذا هو واجب الأمة كلِّها، أن تسلم لأمر الله، وأن تنقاد له، وأن تعظِّم أمر الله ونهيه، وأن تصدق الرسل جميعاً، وأن تؤمن بما جاؤوا به من عند الله، وأنهم جاؤوا للدعوة إلى توحيد الله والإخلاص له، والإيمان به وبالآخرة وبالجزاء والحساب والجنة =

....

= والنار، كل ذلك جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام.

ثم جاء خاتمهم وأفضلهم نبينا محمد ﷺ بالذي جاء به الأنبياء من قبله من توحيد الله والإخلاص له، وجاء بشريعة أكمل في كل شيء، صالحةٍ لجميع العالم في زمن حضارتهم وبداوتهم، وضعفهم وقوتهم، ومرضهم وصحتهم، واجتماعهم وافتراقهم، وغير ذلك في جميع أحوالهم، فهي صالحة لكل زمان ومكان حتى تنتهي هذه الدنيا، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين سبحانه وتعالى.

والمقصود أن الله جل وعلا أمر نبيَّه ﷺ بأن يؤمن بما أنزل على الأنبياء وبما آتاهم، وأن ينقاد لذلك وأمته، وهكذا يجب على الأمة ما وجب على نبيها، فهي أُمرت أيضاً بأن تؤمن بما جاءت به الرسل، ومن كذَّب واحداً من الرسل كنوح، أو هود أو صالح...، فقد كذَّب الجميع، وهكذا من كذَّب محمداً عليه السلام، من اليهود والنصارى فقد كذَّب الجميع. ولهذا لما بعث الله نبيه محمداً ﷺ ولم يؤمن به اليهودُ والنصارى، صاروا بهذا كفاراً بكفر آخر، كفراً =

....

= جديداً لعدم إيمانهم بمحمد ﷺ، وإن كانت اليهود قد كفرت أيضاً بعيسى عليه الصلاة والسلام، وأحدثوا من الإحداث ما أحدثوا، والنصارى كذلك، فكفروا بتثليثهم، وهكذا كان عدمُ الإيمان بمحمد ﷺ كفرٌ آخر - كفر مستقل - نعوذ بالله من ذلك.

وفيه بيان أن الإسلام هو دين الله، ومن ابتغى غيرَ الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فالإسلام هو دين الله للجميع من آدم إلى يومنا هذا.

فالإسلام في حق نوح وأمته وما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام من الهدى والدين، والإسلام في حق هود وقومه كذلك، وما جاء به هود عليه الصلاة والسلام من الهدى والتشريع، هو توحيد الله والإخلاص له والإيمان بما جاءا به، وهكذا صالح، وإبراهيم، ولوط عليه السلام، وهكذا مَن بَعدَهم من الأنبياء، فالإسلام في حقهم هو الإخلاص لله وتوحيده والانقياد لما جاء به =

....

= النبي المبعوث إليهم والتسليم له.

ثم ختم الله الرسل بمحمد ﷺ، فكان الإسلام في حق أمته وتصديقه وتصديق من قبلَه من الرسل والانقياد للشريعة التي جاء بها والتسليم لها والتمسك بها ـ هو الإسلام الذي بعث به الله نبيه محمداً ﷺ كما بعث به الأنبياء قبلَه، فدينهم واحد كما جاء في الحديث: «الأنبياء إخوةٌ لِعَلّاتٍ، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»[1]، فدِينُ الرسل والمرسَلين كلِّهم واحدٌ، وهو توحيد الله والإخلاص له والإيمان به وبما جاءت به رسلُه عليهم الصلاة والسلام، وإنْ تنوَّعت الشرائعُ، قال جلَّ وعلا: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨].

فالشرائع تتنوع بالأحكام والفروع، لكن الأساس واحد وهو توحيد الله والإخلاص له والإيمان به وبما جاءت به رُسلُه عليهم الصلاة والسلام، والإيمان بالآخرة والجنة والنار، والإيمان بكل ما أخبر به الرُّسلُ عليهم الصلاة والسلام، مما كان وفيما يكون وفيما =

(١) أخرجه البخاري: أحاديث الأنبياء (٣٤٤٣)، ومسلم: الفضائل (٢٣٦٥).

....

= بقي من الزمان، وبعد قيام الساعة، فكل ذلك حق لا بد منه، فمن ابتغى والتمس غيره، وآمن بغير هذا الدين، فإنه لا يُقبل منه ذلك، وهو مع هذا خاسر هالك في الدنيا والآخرة نسأل الله العافية.

وبهذا يُعلم أن دين الله واحد من عهد آدم إلى يومنا هذا، وهو دين الإسلام، دين الانقياد لله، دين التعظيم لله، دين الذل لله، ويسمّى إيماناً لأنه إيمان بالله ورسله، وتصديق لله وما جاءت به رسله، فهو إيمان قولي وعملي.

وكذلك يُسمّى بِرّاً لِما فيه من الخير والأعمال الصالحة، والتوجيه إلى الخير، والأمر بما فيه الرشاد والهدى، والنهي عما يضر.

ويُسمّى تقوى، لأنه يَقي أهلَه عذاب الله وغضبه، فهو تَقوى؛ لما فيه من اتِّقاء المحارم وأداءِ الفرائض، واتِّقاءِ أهلِها عذابَ الله وغَضبَه.

وكذلك سُمّي هُدى وصلاحاً لِما فيه من التوجيه إلى الخير، والاهتداء إلى الحق، وإصلاح الأخلاق والعقائد، فهو دين الله، وهو الإسلام، وهو الإيمان، وهو الهدى، وهو التقوى، وهو البِر. =

....

= ثم يَستبعد سبحانه وتعالى هداية مَن يكفر بَعدَ البيانِ وبَعدَ الوُضوحِ وبَعدَ إقامةِ الحُجَّةِ عليه، وبعد ما دخل في الإسلام وعَرفه - يستبعد هداية هذا، ثم يَمُنُّ سبحانه وتعالى عليه بأنه إذا أقبل على الله ورجع إليه وتاب، فسيقبله الله سبحانه وتعالى، فمن عرف الحق ودخل فيه ثم خرج منه فهو حري بعدم التوفيق نعوذ بالله من ذلك، ولكن من رجع إلى الله واهتدى وتاب إليه، فالله يتوب عليه جل وعلا. وهكذا من كفر وزاد كفره ثم تاب قبل أن يموت وقَبلَ أن يُغَرْغِرَ، فالله يُقبل منه؛ فما دام الإنسانُ في هذه الحياة، وما دامت روحه في جسده، وما دام يعقل، فالتوبة مقبولة، وإذا حَضرَ أحدَهم الموتُ وغَرْغَرَ بالرُّوح، وغاب عن هذه الدنيا، وصار في لحظات الموت وخروج الروح، فإنه في هذه الحالة لا تُقبل منه التوبة، نسأل الله السلامة*.

---

* س: كيف يسلم الإنسان كُرْهاً؟

ج: يسلم كرهاً بكونه ذالاً لله قهراً عليه، فالكافر الذي لا يؤمن بالله ذالٌّ لعظمة الله بالموت وما يصيبه من المكاره والمَضار وغير ذلك، رغم أنفه، =

....

= ولا حيلةَ له في الخروج من ذلك، فهو بلسان حاله وبلسان مقاله إذا عقل ولم يعاند ـ وإذا عاند فالأمر معلوم! ـ ولسان حاله ينادي بأنه خاضع لله وبأنه يتصرف فيه، وأنه لا يخرج عن الله وعن تدبيره وقضائه سبحانه وتعالى.

س: يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [البقرة: ١٦٠]، هل يعني أن التوبة غير مقبولة إلا إذا تَوفَّر هذان الشَّرطان؟

ج: إن جَحدَ الحقَّ فلا بُدَّ أن يُبيِّن تَوبتَه، فمِن غير بيان الحق لا تكفي التوبة، ولا تُقبل منه حتى يبينَّ ما جَحد وما أنكر، نسأل الله السلامة.

[نداء لأهل الإيمان]

۞ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ

تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠٧]. [٢٣]

[شرح٢٣] هذا نداء لأهل الإيمان؛ ليستقيموا على تقوى الله، ويعتصموا بحبله سبحانه وتعالى، وسبق أن ذكرنا أنّ القرآن الكريم من أوله إلى آخره كلُّه توجيه إلى الخير، وكله دِلالة على أسباب النجاة، وكلُّه تنبيه على ما فيه صالح العبد ونجاته وعاقبته الحميدة، وتحذير له مما يضره في العاجل والآجل.

ولهذا أمر الله سبحانه بالتعقُّل والتدبُّر، وأوصى بذلك؛ لأن هذا الكتاب العظيم لم يُنَزَّل لمجرد الحفظ أو التلاوة، ولكنه أُنزل للعمل والاستفادة، فمن أعرض عنه هلك، ومن أقبل عليه واستفاد منه، فيتدبره ويتَعقّله ليعمل به وليستفيد منه في العاجل والآجل، وليوجه الناس إليه، فيحصل بذلك الخير العظيم والعاقبة الحميدة.

وإنما هلك مَن هلك بالإعراض عن هذا الكتاب العظيم، وعدم تحكيمه، وعدم التدبر له، وعدم الاستفادة مما فيه من الخير العظيم، وإنما نجا مَن نجا، وسعد من سعد، وفاز من فاز بالإقبال =

....

= على هذا الكتاب العظيم عِلماً وعَملاً، وكان حظُّ الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم من هذا الكتاب هو الحظ الأوفر، فكانت علومهم منبثقةً من هذا الكتاب العظيم مع ما حفظوا من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام.

فجدير بطالب العلم أن يُعنى بهذا الكتاب وأن يعَضَّ عليه بالنواجذ، وأن يكون جَليسه وسَميره، وأن يُعنَى بالتعقل والتدبر في كل وقت حسب الطاقة والإمكان، يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ فسَّر أهل العلم «حقَّ تقاتِه»: بالتقوى حسب الطاقة، أي: اتقوا الله حسب ما تُطيقون وما تَستطيعون، فإنه سبحانه لا يكلِّف نفساً إلا وُسْعَها ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]، فالمؤمن يؤدي واجباته من خلال فهمه لهذا القرآن كما أمره الله، بعناية وإقبال وإخلاص وصدق، حتى يُطبِّقَه كما شرعه الله جل وعلا حسب طاقته وإمكانه، فالصحيح على حسب حاله، والمريض على حسب حاله، والغني على حسب حاله، والفقير على حسب حاله، وهكذا في السفر والإقامة والشدة والرخاء، وغير ذلك. =

....

= ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] المعنى: استمروا على التقوى، واثبتوا عليها حتى يأتي الموت وأنتم على ذلك، وهذا من باب الأخذ بالأسباب، فالتوفيق بيد الله جل وعلا فهو الموفق الهادي، وهو المثبت، ولكن مَن أخذ بالأسباب هو حَرِيٌّ بالتوفيق، فالمعنى: استقيموا واستمروا على الخير واثبتوا عليه، واسألوا الله الثبات عليه، وخذوا بالأسباب التي هي من أسباب الثبات عليه حتى تلقوا الله عز وجل.

والتقوى: هي تعظيم الله، وتعظيم حُرماته، ومراقبته، والإقبال عليه، والإخلاص له بأداء الفرائض وترك المحارم، والوقوف عند الحدود عن رغبة وإيمان وعن خوف وعناية وإخلاص. فالمتقي لله هو الذي يعظِّم حرمات الله، والذي يخاف الله ويرجوه، والذي يؤدي فرائضه ويحذر محارمه عن خوف وعن إيمان وعن تقوى وعن إخلاص لا عن مجرد عادة، بل هو يندفع إلى هذه الأمور عن دافع قلبي وعن إخلاص ورغبة فيما عند الله.

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. =

....

= «حَبْلُ الله»: فُسِّر بدينه، وفُسِّر بالإسلام، وفُسِّر بالقرآن، وكلها في المعنى متوافقة، فمن تمسَّك بالقرآن فقد تمسَّك بالدين، ومن تمسَّك بالدِّين فقد تمسَّك بالقرآن، ومن تمسَّك بالإسلام فقد تمسَّك بالقرآن، فالإسلام هو الدِّين. والمقصود: الحثُّ والتحريض على التمسُّك بما جاء به المصطفى ﷺ من الهدى وعدم الحَيْدِ عنه يميناً أوشمالاً، بل يَلزم دين الله ويستقيم عليه ولا يَحيد عنه.

ثم من أعظم المهمّات: الاجتماع وعدم التفرق، فإن التفرق هو سُلَّمٌ لأعداء الله، وهو جندٌ لهم على المسلمين، فمن أعظم الأسلحة للعدو: تفرُّق المسلمين وتنابزهم واختلافهم، حتى يطمع فيهم العدو وحتى يضرب بعضَهم ببعض، كما يُقَال عنهم: «فَرِّقْ تَسُدْ». أما الاجتماع والتعاون والصدق في ذلك والتكاتف فهو جندٌ للمسلمين على عدوهم، وهو من أسباب نصرتهم على عدوهم ومن أسباب نجاحهم، بل إن من أعظم الأسباب للنجاة والسعادة والفوز بالكرامة والنصر والعاقبة الحميدة: الاتحاد على الحق، والتعاون في نَصرِه، والتكاتف في ذلك، والحذر من أسباب الفشل =

....

= التي قد يصاب بها بعض الناس حتى يضيع الحق بينهم.

ثم يُذَكِّر عبادَه بنعمة الله عليهم، فكان الناس على فُرقةٍ واختلاف في الجاهلية، وتَناحُرٍ وحروبٍ دائمة عند أتفَهِ الأسباب وأقلِّها، ولا سيَّما بين سُكّان المدينة: الأوس والخزرج الذين كانت بينهم الحروب المتكرِّرة، حتى ذهبت فيها الأرواح الكثيرة، فاللهُ جل وعلا جمعهم بهذا الخير ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] فصاروا إخواناً مُتحابِّين في الله، متعاونين على البر والتقوى، أنصاراً للحق، دعاةً للهدى ببركة هذا الخير، وهذا الإسلام الذي دعا إليه رسول الله ﷺ.

ولهذا قال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ يبين سبحانه الآيات والحجج والبراهين ليهتدي من قدّر الله له الهداية، وليستفيد مَن طَلَبُه الحقّ.

ثم حذّر من الاختلاف وبيّن حالة المختلفين، وما يحصل لهم =

....

= من الكفر والضلال واسوداد الوجوه، وحالةَ المتّبعين للحق والقائمين به والثابتين عليه، وما يحصل لهم من السعادة وبياض الوجوه والفوز بالجنة والرحمة، هكذا تكون العواقب، مَن استقام على أمر الله وثبت على الحق فله العاقبة الحميدة، وهو مِمَّن يَبْيَضُّ وَجهُه يوم القيامة، ويفوز بالرحمة والسعادة، ومن كفر بالله وأعرض عن دينه، وكذَّب فعاقبته النار وسوادُ الوجوه، نعوذ بالله من ذلك.

ثم يبيِّن ـ جل وعلا ـ الآمرَ والناهي والداعيَ إلى الله، والمفلحَ على الحقيقة، فيقول جل وعلا: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]، فدُعاة الخير إن أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر هم أهل الفلاح على الكمال، فدل ذلك على نقص مَن تساهل بهذا الأمر ولم يستقم عليه، وأنهم ليسوا من أهل الفلاح الكامل، وأن أهل الفلاح الكامل هم الدُّعاة إلى الخير عن إخلاصٍ، وعن إيمانٍ، وعن صدق، وهم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فهؤلاء هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:٣]. =

....

= والله يَصفُ أولياءه بصفات متعددة في مواضع كثيرة، فتارةً يصفهم بأنهم أهل الإيمان والعمل الصالح، وتارةً يصفهم بأنهم أهل التقوى، وتارةً يصفهم بأنهم أهل الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وتارةً يصفهم بأنهم أهل الفلاح الذين فعلوا كذا وفعلوا كذا من الأعمال الصالحة ودعوا إلى الخير وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، فأنتَ إذا تَأَمَّلت كتابَ الله وَجدْتَه يُنوّع صفاتِ المؤمنين ويُعدّدها؛ حتى يُلاحظَها المؤمن، وحتى يجتهد في أن يطبّق أعمالَه وأقواله على مقتضى هذه الصفات، فإذا رأى في موضعِ الدعوةَ إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، جاهد نفسه في ذلك حتى يكون من أهل هذه الصفات الثلاث، وإذا رأى في موضعٍ آخَر الإيمانَ والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر جاهد نفسه في ذلك حتى يكون من أهل الإيمان ومن أهل العمل الصالح ومن أهل التواصي بالحق والصبر عليه، وإذا رأى في موضعٍ آخر أن أولياء الله هم أهل التقوى وهم أهل القول السَّديدِ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، لاحظ ذلك وحفظ لسانه وجاهدَه حتى لا يقول =

....

= إلا خيراً، وإذا رأى في موضع آخر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، جاهد نفسه في الصدق في أقواله وأعماله، وهكذا، وَفَّق الله الجميعَ.

[فضل الأمة الإسلامية على غيرها من الأمم]

۞ قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) ۞ لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)﴾ [آل عمران: ١١٠- ١١٤]. [٢٤]

[شرح٢٤] يُبينُ الله سبحانه وتعالى حالَ هذه الأمَّة وفَضلَها على =

....

= غيرها من الأُمم، بسبب إيمانها وأَمرِها بالمعروف ونَهيِها عن المُنكَر، فيقول جل وعلا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، قال أبو هريرة رضي الله عنه: كُنتم خَيرَ النّاسِ للنّاس، والمعنى: أنكم أحسَنتُم إلى الناس وأخرجتموهم من الظُّلمات إلى النُّور، وصبرتم على أسباب نجاتهم، فلهذا كنتم خير الأمة، والخَيريَّة مَبنيَّة على هذه الأسس التي بيَّنها سبحانه، وهي الإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن كان بهذه الصفة فله من هذه الخيرية، وهو من هؤلاء الممدوحين، ومن تخلف عنها فاته من المدح، وفاته من الخير بقدر تخلُّفه، وبقدر نقص إيمانه، وبقدر نقص أمره بالمعروف، ونقص نهيه عن المنكر.

فكلَّما كان حظ المؤمن من هذه الصفات أكمل، صار حظه من الخيرية أكمل، وكلما كان حظه من هذه الصفات أنقص، كان حظه من الخيرية أنقص. وفي هذا تشجيع لأُولي الألباب وحثٌّ لهم على هذه الصفات، وهي الاستقامة في الإيمان؛ لأن الإيمان إذا أُطلق شمل الإيمان القَولي والعملي، وشمل عمل القلب وعمل اللسان =

....

= وعمل الجوارح، والإيمانُ يزيد بالطّاعات وينقص بالمعاصي عند أهل الحق.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الإيمان، ولكن نَصَّ الله عليه لعِظَم شأنه، وإلا فهو من الإيمان، بل من أعظم شُعب الإيمان، ولكن لما كان أمرُه عظيماً والمصالح المُترتِّبة عليه عظيمة خصَّه الله بالذكر، وهذا من سُنَّة الله في كلامه جل وعلا، يخص بعض الأعمال الصالحات من بين الإيمان للتنبيه على عظم شأنها. وهذا كثير في كتاب الله جل وعلا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، فالعمل الصالح داخلٌ في الإيمان، وقد نبَّه عليه ليُعلمَ عِظَم شأنه وأنه لا بد منه، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة من ذلك الإيمان والعمل الصالح، ولكن نُص عليهما لعظم شأنهما، وكذلك قوله جل وعلا: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، فالقول السديد من التقوى ومن الإيمان، ولكن نصَّ عليه لعظم شأنه؛ لأن =

....

= حفظ اللسان من أهم مُهمّات الإيمان والتقوى، وكذلك قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، فذِكْر التواصي بالحق والتواصي بالصبر من باب تعظيم شأن هذين الأمرين، وأنهما من أهم المهمات، وإن كانا داخلَين في الإيمان، وداخلَين في العمل الصالح، لكن لهما شأن ينبغي أن يراعى وأن يُعتنى به.

ثم قدَّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان؛ تنبيهاً على عظم شأنهما وما يترتب عليهما من المصالح العامة للمجتمع، وفي سورة «براءة» وسورة «المؤمنون» قدّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فقال سبحانه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [التوبة: ٧١]، فقدمهما لعظم شأنهما، وهذا بلا شَكٍّ يُوجب على المؤمن العناية بهذا الأمر، وأن يجعل هذا الخُلُق من أعظم أخلاقه ومن أهم أخلاقه، وهو خلق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يخفى ما يترتّبُ على =

....

= ذلك من الخير العظيم والمصالحِ الكثيرة في المجتمعات الإسلامية في كل مكان، ولا يخفى أنه من التواصي بالحقِّ والتواصي بالصبر، ولا يخفى أنه من الدعوة إلى الله عز وجل.

ثم قال بعده: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ يعني: لو آمنوا والتزموا الحقَّ، واتَّبعوا النبيَّ محمداً عليه الصلاة والسلام، لكان خيراً لهم، ولكن غلب عليهم الشر والهوى، وإيثار الباطل، والتعصبُ لما هم عليه من الباطل، ولهذا بقوا على كفرهم وضلالهم، ولاسيما اليهود، فهم أشرُّ الناس، شر الطائفتين، والنصارى ألْيَنُ منهم، وأقرب إلى الحق، وإن كان كل منهم ضالاً ومغضوباً عليه، ولكن اليهود أشد شراً وأعظم خطراً، وغضبُ الله عليهم أظهرُ؛ لعلمِهم الحق وعدم انصياعهم له وعملهم به.

ثم بيّن صفاتهم ـ صفات اليهود ـ وأنه ضُربت عليهم الذلة الظاهرة والمسكنة، فهم أذلة وفقراء وإن ملكوا الدنيا، وقلوبهم مليئة بالفقر، وطلب المال والحرص عليه والجشع، والفقر ليس فقرَ =

....

= المال، كما في الحديث الصحيح: «ليس الغِنى غنى العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس»(١)، فمن لم يَغْتَنِ قلبه ولم تغتن نفسه فهو فقير، وإن ملك الدنيا، وهكذا شأن اليهود، فهم أشد الناس حرصاً على الدنيا، وأفقر الناس من جهة القلوب، ولو ملكوا ما ملكوا من الدنيا.

ثم بَيّن أسباب ضلالهم وما حصل لهم من الذلة والمسكنة والغضب من الله جل وعلا؛ بسبب كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء وعصيانهم واعتدائهم، فهم أصحاب نسب رفيع، من ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، ولكن لا يغني نسبهم شيئاً إذا تخلفت الأعمال، فالأنساب لا تنفع أهلها إذا تخلفت أعمالهم، كما في الحديث الصحيح: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»(٢)، وكما في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فقد سقط بهم خُلقهم الخبيث وانحرافهم عن الهدى، وأما نسبهم فعظيم، ولكن لم يلتزموه، بل حادوا عن النسب الرفيع، لأن مقتضى النسب الرفيع التخلُّق =

(١) أخرجه البخاري: الرقاق (٦٤٤٦)، ومسلم: الزكاة (١٠٥١).

(٢) أخرجه مسلم: الذكر والدعاء (٢٦٩٩).

....

= أخلاق من نُسبوا إليهم والسير على منهاجهم، فإذا انحرفوا عن ذلك وحادوا عنه فلن ينفعهم ذلك النسب.

ثم بين أنهم لَيسوا سواءً، ففيهم الطيِّب وفيهم الخبيث، ولكن الغالب عليهم الخبث، قد افترقوا على إحدى وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهكذا النصارى افترقت على اثنين وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهكذا هذه الأمة افترقت على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، فأهل الكتاب كذلك فيهم الطيِّب والخبيث، والخبث أكثر.

وقد قال تعالى في هذه الطائفة السليمة الطيبة: ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾ يعني: على الحق، ﴿ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ يعني: التهجد والعبادة، ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فهذا يبين أن فيهم أخياراً، وأن فيهم أهلَ استقامة وأهل إيمان، ثم انحرفوا بعد ذلك، ولا سيّما بعد عيسى عليه الصلاة والسلام، فإنهم أنكروه إلا =

....

= من شاء الله، وكذبوه وزعموا أنه ولد بغي، فكفروا بذلك واستحقوا غضب الله وعقابه، لأنكارهم الحق وهم يعلمون.

ثم جاءت بَعْثَةُ محمد ﷺ، فأنكروا ذلك أيضاً وكذبوه، فغضب الله عليهم، فباؤوا بغضب على غضب، وصاروا من أكفر الناس وأضلهم، وإن كانوا في الجملة هم أكثر الناس بعد هذه الأمة اتِّباعاً لموسى عليه الصلاة والسلام، مع ما جرى منهم من انحرافات كثيرة، ولكن اتبع موسى عليه السلام خلق كثير، وانحرف منهم كثيرون، ثم انحرف بقيتهم إلا ما شاء الله بعد بعث عيسى عليه السلام، ثم انحرف أكثرهم، بل كلهم إلا قليلاً بعد بعث محمد ﷺ، فإنه ما آمن من اليهود إلا العدد اليسير جداً، وأكثرهم عاند الحق وكفر بمحمد ﷺ وما جاء به من الهدى، وهذا يدل على خبث طَوِيَّتِهم، وأن العنصر الذي بقي فيهم عنصر الخبث وعنصر جحد الحق وعنصر الحسد، هذا هو الذي غلب عليهم ـ نعوذ بالله ـ إلى يومنا هذا، نسأل الله العافية، والله أعلم.

وهنا شيء ينبغي التنبيه عليه، وهو أنَّ مَن انَحرفَ عن الحق، =

....

= وحسد أهل الحق، وترك الحق، مع العلم، فقد شابَهَ اليهودَ تشابهاً ظاهراً ـ نعوذ بالله ـ وما أكثر أشباههم من المنتسبين إلى العلم في جحد الحق وإنكاره، وفي الحسد ومخالفة الحق وهو يعلم، فهذه أخلاق موجودة قَلَّ مَنْ يَسْلَم منها،ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[التحذير الشديد من اتخاذ الكفرة بطانة للمؤمنين]

۞ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٨- ١٢٠]. [٢٥]

[شرح٢٥] في هذه الآيات الكريمة تَحذيرٌ شديد من اتِّخاذ الكَفرة بِطانةً للمؤمنين، وبيان سُوء عاقبة ذلك، وأن الكفرة لا يَأْلونَ المؤمنين خَبالاً، أي: فساداً وضرراً وحرصاً على كلِّ ما يكون فيه =

....

= شَرٌّ عليهم وبلاء.

ولهذا يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ أي: الكفرة، فالذين دون المؤمنين هم الكَفرة، ولهذا قال: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ يُبيِّن الأسباب التي من أجلها جاء النهي، وأن أعداء الله لا يَألونَ المسلمين خَبالاً، أي: نقصاً وضرراً وإيذاءً وإدخالاً للسوء عليهم، وما ذاك إلا لأن الدِّينَ غير الدِّين، فالدِّينُ يُخالف الدِّينَ، والعَداوات التي تتعلَّق بالدِّين هي أشدُّ العَداواتِ، كما يقول الشاعر:

كلُّ العَداواتِ قد تُرجى مَودَّتُها

إلا عَداوة مَنْ عاداكَ في الدِّينِ

فهم يعتقدون أنك على باطل، وأنك ضِدُّهم، ولهذا لا يألون خبالاً لأهل الإيمان بإدخال السوء عليهم وتربُّص الدوائر بهم، وربما مالَؤوا الأعداء عليهم وخامروا الأعداء عليهم عند أدنى سبب.

ثم يقول جل وعلا: ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾، ما: مصدرية، أي: وَدُّوا عَنَتَكُم؛ أي: وَدُّوا كلَّ ما يَشُقُّ عليكم. ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ =

....

= ﴿ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ أي: ما يظهر من فَلَتاتِ اللِّسانِ، والكلمات التي قد يقولونها إذا أَمِنوا، أو يقولونها فيما بينهم؛ فكلُّ ذلك يَدلُّ على شِدَّة العَداوة وقَصْدِ السُّوءِ بالمسلمين.

﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ﴾ أي: ما تخفي صدورهم من العداء والبغضاء وقصد السوء بالمسلمين أكبر مما يظهر وَيَبين من الألسنة. ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: الدلائل والحُجَج ﴿ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ أي: إن كان هناك عقل يميز الضار والنافع، والخير والشر، والهدى والضلال، والمصلحة والمفسدة.

ثم يبين ـ جل وعلا ـ بعد ذلك بقوله: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾ أي: أنتم المسلمين قد تحبون أولئك المنافقين المشركين؛ لما قد يظهر منهم من نصح، ويزيفون من عطف وعناية، وهم كاذبون، ولاسيَّما أهل النفاق، فإن أهل النفاق شرهم أعظم من الكفار المُعلِنين، فهم يظهرون من المحبة، ويظهرون من أصل الخير والمواساة والإحسان ما يضر المؤمنين، وما يغرّنا بهم أنهم أولياء، وأنهم أحباب، وأنهم ليسوا أهل نفاق، ولكن الحقائق غير ذلك. =

....

= ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾ فهذا هو شأن الكفرة، مهما أحبَّهم المؤمنون وأظهروا لهم المودة، سواء كان ذلك عن نفاق من الكفرة أو كان عن نقص من المؤمنين وعن ضعف؛ لأن العدوّ به شيء يخشونه، أو لغير ذلك من أسباب الجهل.

ثم قال: ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي: الكتاب الذي نَزل على محمد ﷺ، هنا الكتاب أي: جنس الكتاب، أي: جنس ما نزل على الأنبياء، فبعض أهل الكتاب يؤمن بجميع الكتب التي نزلت على جميع الأنبياء، ومن جملتها التوراة والإنجيل المُنزَلان على موسى وعيسى، أما هؤلاء فلا يصدّقون بما جاء به محمد ﷺ ولا يؤمنون به، واليهود لا تؤمن بالإنجيل أيضاً، فهم وأنتم على شقاق واختلاف.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ هذه من صفات أهل النفاق، يبيّن ـ جل وعلا ـ في هذا الكلام مَن يتظاهر بالنفاق، فالمسلمون يُحبُّونهم لظاهر ما ادَّعَوا من الإسلام والأُخوَّة الإسلامية الإيمانية، ولكن الواقع خِلاف ذلك. =

....

= ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فأهل الكفر والنفاق هذا شأنهم، فلا يَليق بالمؤمنين أن يَأْمَنُوهم ولا يولُّوهم الأمور التي يُخشى منها الشَّرّ على المسلمين، بل مهما أمكن فصلهم وبعدهم عن المؤمنين وعدم أمنهم، فهو المُتَحتِّم، وهو الواجب؛ بُعداً عن الشر وحَذَراً من مكائدهم الخبيثة، وقد عرف المسلمون قديماً وحديثاً شَرَّ المنافقين ومما لأتهم وولاءهم لأعداء الله، فيجب الحذر منهم غاية الحذر.

ويُروى أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه وأرضاه استكتب كاتباً نصرانيّاً حين إمارتِه على الكوفة، فَقَدِم في بعض خدماته، وطلبه عُمر ـ وكان بالمسجد ـ أن يأتي بحاسبه لكي ينظر في بعض الحساب، فقال: إنه لا يدخل المسجد، فقال: وما له؟ فعَلم أنه نصراني، فغضب عليه عُمر وأنكر عليه ذلك، وقال: قاتلك الله، لِمَ تُفَضّله؟ قال: إنه حاسب وإنه كذا وإنه كذا، فَلِي عَملُه وحِسابُه، وله دِينُه، قال: لا تَأْتَمِنهم وقد خَوَّنهم الله، ولا تُقرِّبهم وقد أَبعَدَهم الله. =

....

= فالمقصود من هذا أن الكافر ولو كان عنده شيء من الحساب، ولو كان عنده شيء من الحِذْق في الأشياء، فمهما أمكن أن يُستغنى عنه بالمسلم فهو الواجب، وعملاً بما ينبغي مِن إبعادِهم وفَصلِهم عن المسلمين حتى لا يَضرُّوهم من غير أن يَشعروا بذلك.

﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ أي: خَلَوا عنكم وغابوا عنكم، أو خلوا بشياطينهم ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ بأطراف الأصابع من غيظهم، ومن بُغضهم لكم ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يعلم ما تخفي الصدور، وما تنطوي عليه القلوب من خير وشر، لا تخفى عليه خافية سبحانه وتعالى.

فيجب على المؤمن أن يتقي الله عز وجل، وأن يُظهر الخير، وأن يكون ناصحاً لله والعباد أينما كان، وأن يحذر غش عباد الله والخيانة لعباد الله مهما كان، فإن الله لا يخفى عليه خافية سبحانه وتعالى.

ثم يُبيِّن ـ جل وعلا ـ حالة الكفار، وأنه يَسُرُّهم ما يَضرُّ المسلمين، ويحزنهم ما يفرح المسلمين وما ينفع المسلمين، ولهذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ =

....

= سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾ هذا شأنهم، إن مَسَّ المسلمين حسنة من نصر وتأييد وعزٍّ وجَمْعِ كلمة وحصول خير عظيم ساءَهم ذلك.

﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: وإن تُصِب المسلمين سيِّئة من هزيمة، أو جراحات، أو قتل، أو فقر، أو اختلاف فيما بينهم، أو ما أشبه ذلك يفرح الأعداء بذلك، لأنهم جُندٌ لهم على المسلمين، فيفرحون بما يؤذي المسلمين، وما يُفرّق كلمتهم، وما يسبب العداوة والبغضاء فيما بينهم.

فيجب على المسلمين أن يكون عندهم من الحذر والبصيرة ما يعينهم على محاربة ما يَضرُّهم ويُفرِّق كلمتهم، ويُعينهم على الحرص على جمع كلمتهم وتعاونهم، وأن يكونوا صفاً واحداً ضدّ عدوهم.

﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ هذه آية عظيمة يبين فيها ـ جل وعلا ـ أن المسلمين إذا صبروا على دينهم واتقوا الله فيما بينهم، فإنه لا يضرهم عدو مهما كثر عددهم، ومهما قَلّت عِدَّة المسلمين، فإن الله ناصرهم ومؤيدهم بهذين الشرطين: الصبر والتقوى. =

....

= فالصبر: الصدق في اللقاء، والصبر على ما قد يقع من جراحات، ومن فقر، ومن حاجة، وغير ذلك.

والتقوى: كل خير، فالتقوى إعداد العُدَّة، والتدرب على السلاح، والثبات على الحق، وترك المحارم، إلى غير ذلك.

فالكلمتان جامعتان لكل خير، جامعتان للصبر على ما قد يضر المسلمين من جراحات ومن فقر ومن حاجة وما إلى ذلك، فالتقوى تكون بالعمل بكل ما يُعينهم على قتال عدوهم وجهاده من إعداد الأبدان وإعداد السلاح وإعداد النفقة وأخذ الحيطة، والبعد عن مكائدهم وعن أسباب شرهم من جميع الوجوه.

ثم يبين سبحانه وتعالى أنه يحيط بهم، وأنه عالم بأحوالهم، وليس يخفى عليه خافية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فلا تخفى عليه خافية، مهما أعدُّوا، ومهما حاولوا النَّيل من المسلمين، فإنه ـ جل وعلا ـ لهم بالمرصاد، وسوف يُبطِل مكائدهم ويعين أولياءه عليهم إذا صدق أولياؤه، وإذا أدّوا ما عليهم، فإذا صدقوا في إعداد القوة في التقوى والصبر في أخذ الحذر، وفي أخذ الحيطة، =

....

= واستقاموا فالله ناصرهم، كما قال عز وجل: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، ثم فسَّر المنصورين وبَيَّن أعمالهم وقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الحج: ٤١]، فإقامة الصلاة عنوان الاستقامة على دين الله، فمن حفظها حفظ دينه ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، ﴿وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١] هذا فيه دلالة على أنهم مستقيمون في فعل المعروف والأمر به والنهي عن المنكر والتحذير منه، وبهذا استحقوا النصر من الله عز وجل، واستحقوا العاقبة الحميدة، ولله عاقبة الأمور سبحانه وتعالى.

وبهذا يُعلم أن ما أصاب المسلمين من تأخُّر وضعف وتفرّق كلمة وتسليط عدوّ، إنما هو بأسباب إضاعتهم لهذه الصفات، وعدم قيامهم بها أو ببعضها، ولهذا حصل ما حصل من الضعف والتأخُّر وتسليط الأعداء، فإذا رجعوا إلى ما أمرهم الله به وما وَعدَهم عليه النصر، واستقاموا عليه، جاءهم ما وعدهم به من النصر والتأييد ورَفْعٍ من مكانتهم وعِزّهم ونصرهم على عدوهم، ونسأل الله حسن العاقبة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[غزوتا بدر وأحد]

۞ قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)﴾ [آل عمران: ١٢١ - ١٢٥]. [٢٦]

[شرح٢٦] سَبقَ في كلامه جلَّ وعلا التَّحذيرُ من اتِّخاذ بِطانة من دون المؤمنين، وبَيَّنَ سبحانه مَفاسدَ ذلك ومَضارَّه، وحِكمةَ المَنْع من ذلك، ثم بَيَّن هنا جلَّ وعلا ما جرى يوم أُحد ويوم بدر، وهما غزوتان عظيمتان حَصَلَتا بين النَّبيِّ ﷺ وبين المشركين، والتقى فيها حِزْبُ الله وحِزبُ الشَّيطان، وكانت الدائرة في يوم بدر ـ وهي =

....

= الغزوة الأولى التي جمع الله فيها بين نَبيِّه وبين عَدُوِّه على غير ميعاد ـ كانت الدّائرةُ فيها على أعداء الله، وجرى فيها ما جرى مِمّا هو معروف من هزيمة أعداء الله، وقَتْل سبعين منهم، وأَسْرِ سبعين، وانهزام الباقين، وكان هذا نصراً مُبيناً عظيماً، وفَتحاً كبيراً أذلَّ رؤوس المنافقين، وعَظُم فيه أَمرُ النبِّي ﷺ وأَمرُ المسلمين، وانتشر صِيتُ هذه الغزوة بين العرب وغيرهم. ثم دارت الدائرة على المسلمين في غزوة أحد، فإن المشركين عظم عليهم الأمر، فعندما قُتل رؤساؤهم وعظماؤهم وصناديدهم يوم بدر شق عليهم الأمر جداً، وتوجهوا إلى أبي سفيان بعدما قدم بالعِير سالماً وفيها التجارة العظيمة، فقالوا فيما بينهم: هذه التجارة تبقى لقتال محمد ﷺ وأصحابه، والاستعانة بها في إعداد غزوة يقوم بها الكفار في المدينة، فتراسلوا في هذا وتزاوروا فيه، وجرى بينهم ما جرى، واستَسمَحوا من لهم الأموال، وتَمَّ أمرهم على إعداد العدة لغزوة أحد.

وكانت غزوة أُحد في شوّال من العام الثالث للهجرة، وغزوة بدر في رمضان من العام الثاني للهجرة، فعلى رأس السنة =

....

= جاء جيش المشركين في ثلاثة آلاف مقاتل، ونزلوا بالمدينة، واستشار النبي ﷺ الناس للخروج إليهم أو تركهم بمكانهم إن دخلوا قُتِلوا، وإن يئسوا تُرِكوا حتى ينقبلوا، فأشار قوم بالجلوس كعبد الله بن أُبيٍّ ابن سَلول رأس المنافقين، فقال: نجلس في بلادنا، فإن دخلوا علينا قاتلناهم في الأسواق، وقاتلهم النساء والصبيان من السطوح بالحجارة وغيرها، وساروا بشَرِّ حالة، وإن انشَمروا انشَمروا خائبين. وقال آخرون من الشُّجعان والأبطال ومن لم يحضر يوم بدر: يا رسول الله نخرج إليهم، فلا يَليقُ بنا أن نُقيمَ بالمدينة وهم حولنا، بل نخرج إليهم ونقاتلهم وجهاً لوجه، فهوي النبي ﷺ قول هؤلاء الآخرين، ودخل بيته ثم لبس لَأْمَتَهُ؛ لَأْمَةَ الحَربِ، وخرج إليهم عليه الصلاة والسلام، فكان بعضُهم قال: نخشى أن نكون أكرَهْنا الرَّسولَ ﷺ على ذلك، فقالوا: يا رسول الله، إنْ شِئْتَ أن نبقى، قال: «ما كان لنبيٍّ أن يلبَسَ لَأْمَته ثم يضعها، حتى يقاتل»[1].

فخرج الناس في ألف مقاتل إلى جهة أُحد، فبَدا لعبد الله ابن =

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٧٦٠٠).

....

= أُبيّ وهو في الطريق أن يرجع، وقال: أطاع رأيَهم ولم يُطِعْ رأيي، وانخذَل بنحو الثُّلث من الناس؛ أي بنحو ثلاث مئة من الجيش، وقالوا: ليس هناك قتال، ولا نعلم قتالاً، وكانت وَصْمةً كبيرة على هذا الرَّجل ونِفاقاً ظاهراً، فلامَه الناسُ على ذلك وأرادوا منه الرجوع فأَبى.

واستمر النبيُّ ﷺ بوجهه في نحو سبع مئة مقاتل، وجعلوا ظهرهم إلى أُحد، واستعدُّوا لقتال عدوِّهم، وأمر الرُّماة وهم خمسون مقاتلاً، أن يمسكوا سفح الجبل، ويَنضحوا خيل المشركين بالنَّبْل، وأن يمنعوا أن يُؤتَوا من خَلفِهم، وحَرَّض الرُّماةَ على ذلك فقال: «لا تَبرَحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا»[١].

وكان في أمر الله ما كان سبحانه وتعالى، وقد سبق في علم الله ما فيه دلالة على صدق الرسول ﷺ، وأن الحرب بينه وبين عدوه ستكون سِجالاً، يُدَالُ عليهم ويُدَالُونَ عليه، فكان هذا من =

(١) أخرجه البخاري: المغازي (٤٠٤٣).

....

= علامات النبوة، كما قال هرقل لما أخبره أبو سفيان بالحال التي بينه وبين محمد ﷺ وسأله عن الحرب قال: كانت سِجالاً، نُدال عليه ويُدال علينا، قال في جوابه بعد ذلك: هكذا الأنبياء تُبتلى، ثم تكون لها العاقبة.

فحصل بين النبي ﷺ والمشركين يوم أحد قتال عظيم، انهزم فيه المشركون في أول الأمر، وقُتل منهم أكثر من العشرين، ثم لما رأى الرُّماة أن المشركين انهزموا وسقطت رايتُهم، ظنوا أنها الفاصلة، وأن الحرب قد انتهت، وأن المسلمين قد انتصروا، وأنه ليس هناك حاجة إلى البقاء على سفح الجبل، فذكَّرهم أميرُهم عبد الله بن جُبير بما قاله النبي ﷺ من لزوم المكان وإن انتصرنا، فأبى عليه القوم متأولين أن مراد النبي ﷺ الحيطة؛ لئلا يرجع الكفار، وقد انهزموا وليس هناك حاجة إلى البقاء.

وكان أمراً مُقدَّراً من الله عز وجل، وأمراً مفعولاً، ولم يُعذَروا بهذا، فصارت معصية؛ لأنهم أُمروا بالبقاء، فوقع بهذا النزاع والفشل الإخلالُ في الموقف، فدخلت خيل الكفار على المسلمين =

....

= مِنْ ورائهم، وصار القتال من الخلف ومن الأمام، واضطرب المسلمون في هذه الحال، وصار ما صار من الهزيمة والقتل العظيم، حتى قُتل من المسلمين نحو السبعين، وحصل فيهم جراحات كثيرة، وأَصْعَدُوا في الجبل، وانفرد النبيُّ ﷺ في عشرة من المسلمين، منهم: الصِّديق وعُمر، ومنهم: سبعة من الأنصار، ولم يزال الأنصار يُدافعون عن النبي ﷺ حتى قُتلوا جميعاً، ولم يبق إلا النبي ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وجرت مصيبة عظيمة؛ ليَتبيَّن جل وعلا ـ وهو الحكيم العليم ـ الصادقَ من الكاذب، والصابرَ من غيره، والمؤمنَ من المنافق، وعند هذا نَجَمَ النِّفاقُ، وأظهر المنافقون كلامهم، وقالوا ما قالوا، ولكن الله فضحهم سبحانه وتعالى، وجعل هذه الوقعة تَمحيصاً للمؤمنين وتكفيراً لسيِّئاتهم وامتحاناً، واتخاذهم شهداء، فظهر نفاق المنافقين، وظهرت آية الله في عباده، وأنه يبتلي الرُّسل ويبتلي الأنبياء، ثم يجعل لهم العاقبةَ، والحمد لله سبحانه وتعالى.

وفي غزوة أُحد دِلالة ظاهرة على أن الرُّسل عباد لله جلَّ وعلا =

....

= وليسوا أرباباً، ولهذا يجري عليهم ما يجري على الناس من القتال والجراح، وقد قُتل من الرُّسل مَنْ قُتل عليهم الصلاة والسلام، وجرى على نبي الله ﷺ ما جرى يوم أُحد من الجراحات وكَسْر الرَّباعية، وكَسْرِ البَيضَةِ على رأسه ﷺ، وجرى ما جرى على جماعة من الصَّحابة وهم خِيرَةُ الله من عباده بعد الأنبياء، فلو أنَّ أحداً يُنصر بمجرَّد أنه صالح، وبمجرَّد أنه نبي وبمجرَّد أنه وَلِيٌّ من أولياء الله، لنُصر المسلمون يوم أُحد، ولم يحدث لهم شيء؛ لأنه نَصرٌ لعباد الله؛ ولأنهم خير خلق الله، ولكن الله له سُنَّة جارية في عباده، وأن من أَخلَّ بالسُّنن الكَونيَّة والسُّنن الحربية ولم يُبالِ بها، فسوف يجري عليه ما جرى على أمثاله من النقص ومن الهزيمة ومن الجِراح إلى غير ذلك.

فلا بُدَّ من الأخذ بالسُّنن الجارية، والأسباب، والحيطة، وإعداد العُدَّة، فقد لَبِسَ النبيُّ يوم أُحد دِرعَينِ - ظاهَرَ بين دِرعَينِ - وهذا كلُّه يَدلُّ على الحيطة والأخذ بالأسباب، وبه يُعلَم أن الرسل والأنبياء والأولياء لا يُعبَدونَ من دون الله، وليسوا آلهة كما يظنهم الجهّال الذين اتخذوا قبورهم واتـخذوا أنفسهم آلهة من دون الله، =

....

= فيَعبدونَهم مع الله، ويسألونهم قضاء الحاجات، وتفريجَ الكُروب في كل مكان من قريب ومن بعيد. هذا هو الجهل العظيم، فهم وإن كانوا كُرماءَ وأشرافاً عند الله، وعند عباد الله المؤمنين، وإن كانوا أصلحَ عباد الله، إلا أنهم لا حَقَّ لهم في العبادة؛ فالعبادة حق الله ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وذكر سبحانه أنه أخرج نَبيَّه ليُبوِّئ المؤمنين مَقاعدَ للقتال، ليُبيِّنَ لهم مواضع القتال ومَحلَّه كيف يقاتلون عدوَّهم، وبيَّن سبحانه أن طائفتين هَمَّتا أن تفشلا ثم ثبَّتَهما الله، وهاتان الطائفتان ثبت في «الصَّحيحين» من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أنهما قبيلتا بني سَلِمَة وبني حارثة، ثم ثبَّتَهُما الله فلم يفشلا، وثَبَتَا.

ثم بَيَّن سبحانه وتعالى ما جرى ببدر، وأنه نصرهم ببدر وهم أذلَّة قليلون مُستَضعَفونَ نحو الثُّلث من عدوِّهم، فنصرهم الله وأيَّدهم وأذلَّ أعداءهم، وهو الحكيم العليم، فمَن استقام على أمره وحافظ على شَرعِه وأخَذَ بالأسباب ـ نُصِرَ وأُيِّدَ وإن كان من الفئة القليلة ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ =

....

= ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ومن أَخَلَّ بالأسباب وحصل منه العصيان والنزاع والفشل يُنصر عليه عدوُّه، وإن كان عدوُّه أبغَضَ إلى الله منه، وإن كان عدوُّه العدوَّ اللَّدود، ولكن من أخلَّ بسُّنة الله في الحروب، وأخلَّ بما يجب من أخذ الأسباب، وأخلَّ بما يجب من الطاعة، وباشَرَ المعصيةَ فهو حَريٌّ بأن يُنصر عليه عدوُّه وإن كان في غاية من الفضل والطاعة، ونحو ذلك في الجملة. ولكن إذا أخلَّ بالأمور اللازمة في الحرب، ولم يأخذ بالحيطة، ولم يُعِدَّ العُدَّة اللازمة، فلا بُدَّ أن يُصابَ بما يُصابُ به أمثاله، من جراح وهزيمة وغير ذلك، حتى لا يَحتجَّ أحد، فالله قد أمر بإعداد العُدَّة والأخذِ بالأسباب والحيطة، فإذا فرَّط الناس وتساهلوا وتكاسلوا فالمصيبة عليهم.

ومِنْ أعظم المصائب: العصيان والاختلاف والنزاع، فهذه من أعظم الأسباب لتسليط الأعداء، مهما كان أولئك الأخيار، ومهما كانوا في الدرجة من الفضل، فإذا أَخَلُّوا وتساهلوا بما يجب، فهم على خطر من العقوبات من أعدائهم وأعداء الله، ولنا فيما وقع =

....

= يوم أُحد أعظم حجة، وأعظم فائدة، وأعظم موعظة، فليس في الدنيا في ذاك اليوم ولا بعده ولا قبله، أفضلَ من الرسول ﷺ، وليس في الدنيا أفضل من الصحابة بعد الأنبياء، ومع ذلك لما أخلُّوا بالموقف وحصل العصيان والتنازع والفشل جرى ما جرى مما هو معلوم، ولنا في هذا عظة وذكرى، ولكل مسلم عظة وذكرى، ولكل دولة صالحة عاقلة عظة وذكرى، والله المستعان.

وأما ذِكْرُ الآلاف الثلاثة في الآية وذِكرُ الخمسة كذلك، فقد اختلف أهل العلم في هذا، فقال بعضهم: إن هذا في يوم أُحد وليس في يوم بدر، وقال آخرون: في يوم بدر وهو تفسير ابن جرير، وهو ظاهر السِّياق أنه في يوم بدر، وأنَّ الله جل وعلا أنزل من الملائكة ألفاً مُردِفِيَن، وأن هذا الإرداف يحتمل أنه ثلاثة آلاف ويحتمل أنه أكثر وهم خمسة، فيحتمل هذا وهذا.

والإرداف ليس معناه أنهم راكبون معهم، فقد يُردَفونَ بهم وإن كانوا بَعدَهم، يعني: نزلوا بَعدَهم إلى القتال، وليس من اللازم أن يكونوا معهم في الخيل التي ركبوا عليها، فالإرداف يكون على =

....

= الفرس، ويكون تابعاً له على فرس أخرى، وفي طريق أخرى عوناً له، والله قال في آية أخرى في قصة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]. وهنا قال: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ ثم قال: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

والتَّسويمُ: التَّعليم، يعني: جعلوا علامات على رؤوسهم أو على خيلهم. والمقصود أنَّ الله جلَّ وعلا أمدَّهم بألف من الملائكة مُردِفِينَ كما في سورة الأنفال، وهنا قال: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ فيحتمل أن هذا المَدَدَ حصل، ويحتمل أنه لم يحصل على قول من قال: إن هذا يوم بدر، وأما في يوم أُحد فلم يحصل؛ لأنهم أخلُّوا بالموقف وأخلُّوا بما وجب عليهم، فخُذِلوا بسبب العصيان والفشل، وقد سبق لك أن المختار عند ابن جرير والجماعة أن هذا المَدَد ـ بالثلاثة والخمسة ـ كان يوم بدر، وأنه إرداف للسابق، والله جل وعلا أعلم سبحانه وتعالى.

=

....

= والخلاصة أنهم في يوم بدر نُصروا مع قِلَّتِهم وضَعفِهم لما صدقوا واستقاموا واتَّحدَت كلمتُهم، ولم يختلفوا ولم يتنازعوا ولم يعصوا، وفي يوم أُحد لما اختلفوا وتنازعوا ـ الرُّماة ـ ونزلوا وتركوا الموقف وعصوا، سلِّط عليهم العدو بأسباب العصيان الظاهر والاختلاف، وكان ذلك قَدَراً مقدوراً، ولله فيه العظة البالغة والحجة الداحضة، وله سبحانه وتعالى الآية العظمى والدلالة على صدق الرسول ﷺ وأنه رسول الله، وأنه يُبتلى وأنهم يُبتلون، ثم تكون لهم العاقبة.

وقد جاءت غزوة الخندق بعد ذلك بسنتين، في السَّنة الخامسة للهجرة، واجتمع رأي المشركين على حرب النبي ﷺ، واجتمعوا في نحو عشرة آلاف مقاتل، ونزلوا بالمدينة وحاصروها، واتَّخذ النبيُّ الخَندقَ العظيم المعروف، وصابَرَهم النبيُّ ﷺ مدة طويلة، ولم يَجْرِ قتال إلا مُناوشة.

وقُتل من المشركين عَمرو بن عبد وُدّ، وأصيب سعد بن معاذ في أَكحُله، ثم مات بعد ذلك رضي الله عنه وأرضاه، وجرى شدة =

....

= بين المسلمين وبين عدوهم في ذلك الموقف العظيم، ثم أنزل الله بأسه وجنده على أعدائه، وأصابهم بالريح العظيمة والجنود الكثيرة، حتى انقلبوا خاسئين إلى بلادهم، لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين قتالهم وشرَّهم، وصارت العاقبة حميدة. وقال رسول ﷺ بعد ذلك: «الآن نغزوهم ولا يَغزونَنا، نحن نسير إليهم»[1] فصارت هي الآخِرة، فلم يَغْزُوا النبيَّ ﷺ في المدينة، بل غزاهم النبيُّ ﷺ بعد ذلك يوم الحُديبية، وجرى ما جرى من الصُّلح، ثم غزاهم في عام ثمانٍ يوم الفتح، ففتح الله عليه وانتهى أمرهم. ولله الحمد والمنة سبحانه وتعالى.

(١) أخرجه البخاري: المغازي (٤١١٠).

[النهي عن أكل الربا، والحث على الإنفاق]

۞ قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: ١٣٠-١٣٦]. [٢٧]

[شرح٢٧] ينهى سبحانه وتعالى عباده عن أكل الربا، ويخاطب أهل =

....

= الإيمان بذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ ﴾ فتارة يخاطب ربنا عز وجلّ في كتابه العظيم الناس جميعاً، لأنهم خُلِقوا ليعبدوا الله، ولأن الرسل بُعِثَتْ إليهم جميعاً؛ للتعليم والتوجيه والإرشاد.

وتارة يخاطب أهل الإيمان؛ لأنهم أهل الامتثال على الكمال، ولأنهم أهل البصيرة والتقدير لأوامر الله ورسوله، ولأنهم قد علموا من الله ومن رسوله عليه الصلاة والسلام ما لم يعلمه غيرهم، فكان في خطابهم مزيد من التأكيد في كونهم فهموا ما لم يفهم غيرهم، وعلموا ما لم يعلم غيرهم.

وتارة يخاطب نبيه ﷺ فيقول: «يا أيها النبي»، «يا أيها الرسول»، والمرادُ أَمْره وَأَمْرُ غيره، فإنَّ أَمْرَ الرسولِ ﷺ بشيء أو نهيه عن شيء أَمْرٌ للأمة وَنَهْيٌ للأمة، ما لم يأت ما يدل على التخصيص.

ففي أوامر الله ورسوله، سواء كانت مُوَجَّهَة للناس، أو لأهل الإيمان أو للنبي بالخصوص عليه الصلاة والسلام ـ أوامر للجميع، =

....

= والواجب على الجميع امتثالها، وإن كانت نواهي فالواجب على الجميع الانتهاء عنها. يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ فكان من عادة أهل الجاهلية أكل الربا أضعافاً مضاعفة، وكان الغالب عليهم ربا النسيئة، ولهذا جاء في الحديث: «إنما الربا في النسيئة»[1]، لأنها كانت هي الغالبة بينهم.

فالمعاملة الربوية غالباً في النسيئة، وقد يقع الربا في الفضل وفي البيوع المعجلة، ولكن ذلك هو الأقل، وإنما الغالب والكثير في المعاملات الربوية التي فيها آجال وفيها نسيئة.

وقد قال عليه الصلاة والسلام في الأحاديث الصحيحة: «لا تبيعوا الذهب بالذهب ولا الوَرِق بالوَرِق إلا وزناً بوزن، مثلاً بمثل، سواء بسواء»، وفي رواية أخرى عن أبي سعيد: «فمن زاد أو استزاد فقد أربى»[2]. وهكذا في حديث عبادة، فهذا في ربا الفضل.

وجاء النهي منه عليه الصلاة والسلام أيضاً عن النسيئة: =

---

(١) أخرجه مسلم: المساقاة (١٥٩٦).

(٢) أخرجه البخاري: البيوع (٢١٧٦)، ومسلم: المساقاة (١٥٨٤)(٧٧)و(٨٢).

....

= «الورق بالذهب رباً إلا هاءَ وهاءَ ...» إلى آخره[١]. ونهى عن بيع الوَرِق بالذهب دَيْناً[٢]. وما ذاك إلا لأن بيعها ديناً يفضي إلى مضار كثيرة، ويفضي أيضاً إلى ظلم الفقير والزيادة عليه وتراكم الأموال في ذمته بسبب حاجته إلى الْغَنِيِّ، فيكون الربا عليه أضعافاً مضاعفة كلما حل ولم يتيسر له الوفاء. وذلك مما يجره إلى النسيئة فيكون ربا النسيئة هو الغاية وهو المقصود، ولأن الناس في الغالب طبقات: منهم الغني، ومنهم المتوسط، ومنهم المحتاج، فإذا سُمِحَ بربا النسيئة ظَلَمَ بعضُهم بعضاً، وأضر بعضهم ببعض، فكان من رحمة الله أن منعهم من ذلك حتى يكون بينهم التعاون بالقرض الذي ليس فيه رباً، أو البيوع التي ليس فيها رباً، أو البيوع التي ليس فيها إلا الأرباح المعقولة من باب بيع المؤجل، أو من باب بيع السلم أيضاً، كل ذلك واقع.

الحاصل أن قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ ليس المراد منه إباحة الربا الذي ليس فيه أضعاف مضاعفة، ولكن =

(١) أخرجه مسلم: المساقاة (١٥٨٦).

(٢) أخرجه البخاري: البيوع (٢١٨١)، ومسلم: المساقاة (١٥٨٩).

....

= المقصود نهيهم عما هو واقع بينهم، وتحذيرهم مما هو سائد بينهم، من الربا المضاعف الذي يجر بعضه إلى بعض، ويسوق بعضه إلى بعض بسبب بقاء عسر المعسر وجشع الغني، فيتركب من جشع هذا وعسر هذا وضعفه، هذه المضاعفة في الربا.

وكان من عادتهم إذا حل الدين أن يقول الغني للفقير: إما أن تُرْبي، وإما أن تَقْضي، أي: إما أن تؤدي الحق الذي عليك وتقضي ما عليك من الديون، وإما أن تُرْبي بأن تزيد في المال، وأنا أزيدك في الأجل، فإذا كان المال مئة، وقد حلّت، ولم يتيسر له القضاء، قال له صاحب الحق: إما أن تبادر بالقضاء وتسعى في القضاء، وإلا تزيد في المال، وأنا أزيدك في الأجل، فيكون المالُ مِئةً وعَشَرَةً أو مئة وعشرين بدلَ مِئَةٍ، ثم يجدِّد أَجَلاً آخَر إلى كذا وإلى كذا.

هذا معنى ﴿أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ أي: ضعفاً بعد ضعف، أو زيادة بعد زيادة، فكلما حل أجلٌ زِيدَ في المال، وزيد في الأجل، لأن الغالب أن الفقير لا تزيده هذه الزيادة إلا فقراً، ولا تزيده إلا عسراً، فكلما حل الدين فإن عسره باقٍ، وفقره حاضر، فيحتاج إلى =

....

= المزيد من المال، وإلى المزيد في الأجل، فتبقى الديون متراكمة متضاعفة إلى ما لا يحصى من الزيادات، فحرم الله ذلك، وأوجب الإنظار.

فإذا حل الدين ولم يتيسر للمدين الوفاء وجب على صاحب المال الإنظار والإمهال وعدم الزيادة، وأنزل في هذا جل وعلا: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] فوَجبَ الإنظارُ على الغَنيِّ صاحبِ المالِ للمُعسِرِ الذي هو المَدينُ، ونَهى الله عن ذلك الرِّبا الذي ساد في الجاهلية، وقال جلَّ وعلا لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩]، أي: فاعلموا بحرب من الله ورسوله. ثم قال: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٩]، فأباح لهم سبحانه أخذ رؤوس الأموال، وحذَّرهم من الرِّبا، وأخبرهم أن استمرارهم فيه إيذانٌ بحرب الله ورسوله، نسأل الله السلامة والعافية.

قوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بيَّنَ جلَّ وعلا =

....

= أَنَّ الفلاح في تقوى الله، والفلاح: هو الظَّفر والفَوزُ والحصول على النَّجاة والسَّعادة، فدَلَّ ذلك على أن الفلاح في ترك معاصي الله، وأنه في فعلها الهلاك والدمار.

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: أُوصِدَتْ وهُيِّئَت لأعداء الله، فهي مُعدَّة لهم، يقيمون فيها أبد الآباد، وإن كان العاصي قد يشارك في ذلك، فقد يدخلها، لكنها لم تُعَدَّ له، وإنما أُعِدَّت لغيره، والعاصي يدخلها من باب التأديب والتَّطهير، ثم يُخْرَجُ، فدخوله للتَّطهير لا للإقامة فيها، بخلاف الكافر، فإنها مُعدَّة له، وهو مُقيمٌ فيها أَبدَ الآباد، كما أن المؤمن مقيم في الجنة أبد الآباد، فالجنة لأهلها على وجه التأبيد، والنار لأهلها على وجه التأبيد، نعوذ بالله من حالها وحال أهلها.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بَيَّنَ جلَّ وعلا أن الرَّحمة في طاعة الله ورسوله، والمعنى: أنه في عصيان الله ورسوله ضد الرحمة، وهو النِّقمة والعذاب، فمَن أراد الرَّحمة والخير والفلاح والظَّفر في كل ما يَسُرُّه، فعليه بتقوى الله =

....

= وطاعة الله ورسوله، ومن أراد الهلاك والدمار والنقمة والعذاب فعليه بمعاصي الله وركوب محارمه، نعوذ بالله من ذلك.

ثم أمر عباده المتَّقين المؤمنين بالمسارعة إلى أسباب المغفرة والجنَّة، فقال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ الآيات، فالله سبحانه يَندُب عِبادَه ويأمرهم بهذه الأسباب التي تُفضي بهم إلى دار الكرامة ودار النَّعيم، فالمعنى: سارِعوا إلى أسباب المغفرة، فللمغفرة أسباب، وللجنة أسباب، فالله سبحانه يأمرهم بالمسارعة إلى أسباب المغفرة، وهي طاعة الله ورسوله، وترك محارم الله، وتلك هي أسباب المغفرة وأسباب الجنة.

ثم يبين سبحانه وتعالى من صفات المُتَّقينَ الذين أَعدَّ الله لهم الجنَّة والكرامة، فقال: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: أُرصدت وهُيِّئت، فهي دارهم دار البقاء ودار النعيم ودار السرور، كما أن النار أُعدت للكافرين، وهي دار عذابهم ونكالهم وشقائهم، فالجنة أُعدت =

....

= لأهل التقوى، وهي دار الرحمة، ودار الإحسان، ودار الرأفة، ودار النعيم، ودار الخير الدائم الذي لا ينقطع.

ومن صفات أهل التقوى، الذين أعدت لهم الجنة: أنهم ينفقون في السراء والضراء، أي: أنهم أهل إنفاق وإحسان في جميع الأحوال، في حال الشدائد، وهي حال الضراء، وفي حال الرَّخاء والعافية، وهي حال السراء، فنفقاتهم مستمرة، في حال الشدة وفي حال الرخاء، في حال الضرِ وفي حال المسرة، فهم مُنفقون محُسِنون في جميع الأحيان وجميع الأحوال، لعلمهم بأن هذه النفقة ترضي الله جل وعلا، وتنفع عباده.

ثم من صفاتهم: كَظْمُ الغَيظ ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ لأنهم قد يُؤْذَون، وقد يمتحنون بما يضرهم، ولكنهم يكظمون الغيظ، أي: يتحملون الأذى، ولا يُنْفِذُونَ غيظهم بالانتقام؛ لأن من صفاتهم الغالبة كظم الغيظ، أي: كظم الغضب وعدم الانتقام، فيتحمَّلون الأسباب التي تُكدِّرهم وتغيظهم وتُسبِّب غضبهم، ويتصبرون رجاءَ ما عند الله سبحانه وتعالى من المثوبة، ولهذا قال: =

....

= ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يكظمون الغيظ ويعفون عمن آذاهم وأساء إليهم، فالغالب عليهم كظم الغيظ والعفو عن الناس، وهذه من صفات أهل الجنة، أهل الإيمان والتقوى.

ثم قال بعده: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ دلَّ ذلك على أنَّ الإنفاق في السَّرّاء والضَّرّاء وكَظْم الغَيظ والعفو عن الناس من صفات المحسنين، والله جلَّ وعلا يُحبُّ المحسنين.

فعليك يا عبدَ الله أن تحرص على أن تكون من المحسنين، وأن تكون من أهل هذه الصفات، التي هي صفات أهل التقوى، أهل الجنة والكرامة، وأن تكون منفقاً حسب ما أعطاك الله من المال، وإياك والبخل والشُّح، فإن عاقبته وَخيمةٌ.

فعليك أن تُعوِّدَ نَفسَكَ، وأنْ تُجاهِدَها أبداً حتى تكون من المنفقين في السَّراء والضَّرّاء، والإنسان قد يكون جَواداً وكريماً، وإن كان ماله قليلاً، فقد يجعل الله في نفسه الغنى والخير، ويجعل في نفسه الجود والكرم، ولو بالأشياء القليلة حسب طاقته، فيعطي الفقير والمسكين مما أعطاه الله، ولو الشيء القليل، فدرهمٌ من مال =

....

= قليل له محل عظيم عند الله، كالمئة والآلاف من المال الكثير.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بأي نوع من أنواع الظلم ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾، وهذه من صفات أهل التَّقوى أيضاً، أنهم إذا فعلوا شيئاً من الفواحش أو المعاصي التي حرَّمها الله ـ وسُمِّيت فواحش لقبحها، فهي مستفحشة وقبيحة في عرف أهل البصيرة وأهل النفوس الزكية الطيبة ـ فيَستَفحشُونَها، ويعتبرونها قبيحة، كالزِّنى، واللواط، وقتل النفس بغير حق، وعقوق الوالدين، وقطيعة الرحم، والربا، وظلم العباد ـ بأنواع الظلم ـ ونحو ذلك، فكل هذه فواحش مستقبحة عند ذوي الفطر السليمة، نفوس أهل البصيرة والعقول الصحيحة والمروءة، فيستفحشونها ويستقبحونها وإن كان فيهم من الكفر والضلال ما فيهم.

﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: بشيء من أنواع الظلم، ولو بالمعاصي التي هي خَفيَّة في نفسها، وقد لا يظهر فُحشُها لكل أحد، فهم حَذِرونَ من كل أنواع المعاصي، فالمُستَفحش: الظاهر البَيِّنُ =

....

= منها، وكذلك غيره من سائر أنواع المعاصي وأنواع الظلم، وسواء أكان ذلك لأنفسهم أم كان لغيرهم، فهم حذرون من أنواع الفواحش والمنكرات بعيدون عنها، فهم يحذرونها ويبتعدون عنها، ومتى وقع أحدُهم في شيء منها بادر بالتوبة والاستغفار والندم على ما صدر منه، ولهذا قال: ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: ذكروا عظمته، وكبرياءه، واستحقاقه العبادة والطاعة، وأنه لا يليق بالعبد أن يعصيه سبحانه وأن يقع فيما يُغضبُه جلَّ وعلا، فذكروا أنه المحسن المنعم الخالق المتفضل، فهو جدير بالتعظيم، وجديرٌ بالشكر، وجدير بالطاعة.

فإذا ارتَكبَ العبدُ شيئاً من معاصيه وما يُوجبُ غَضبَه فهو جدير بأن يُبادرَ ويُسارع بالتوبة والندم والاستغفار، قبل أن يحل به من العقوبة ما يضره، ويسبب بُعْدَه عن الله ودخوله سجن العذاب وسجن أهل الفساد من النار.

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: وهو يعلم ويؤمن بأنه لا يغفر الذنوب إلا الله سبحانه وتعالى، والمعنى بيان أنه لا =

....

= غافر للذنوب سوى الله جل وعلا، فهو استفهام معناه النفي.

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: بل يُقلِعونَ ويَتخلَّونَ عن سائر المعاصي؛ ندماً وتوبة وحذراً من غضب الله جلَّ وعلا، وعزماً صادقاً على ألا يعودوا إلى ذلك، والمُصِرُّ: هو الذي يُقيمُ على المعصية ولا يُقلعُ عنها، ولا يندم عليها، ولا يَعزِمُ على تَركِها، فهذا يسمّى مُصِرّاً، أي: مُقيماً، فأَصَرَّ على كذا، أي: أقام عليه.

فأهل التقوى لا يُصِرُّونَ على الذُّنوب، بل إنَّ ما عندهم من خوف الله وتعظيمه يمنعهم من ذلك، فلهذا إذا تابوا، تابوا توبة صادقة، فيها الندم، وفيها الإقلاع عن الذنوب، وفيها العَزمُ الصادق على عدم العود في الذنوب، ولهذا يستحقون من الله المغفرة وقبول التوبة.

ولهذا قال بَعدَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ هذا جزاء من بادر بالتوبة والندم والإقلاع ـ أن يجازيه الله بالمغفرة لذنوبه، ويجازيه أيضاً بإدخاله الجنة وإنجائه من النار؛ لأنها توبة =

....

= صادقة، معها العمل الصالح.

فالذي لا يُصِرُّ على المعصية، ويستقيم على طاعة الله، ويستمر فيما يُرضيه مع ندمه وإقلاعه من المعاصي، وعزمه ألا يعود فيها، فهذا استحق الجزاء بالأمرين: بالمغفرة للذنوب؛ لكونه تاب منها وندم، وبالجنة؛ لكونه استقام على أعمال أهلها، واستمر في طاعة المولى جلَّ وعلا، فجزاه الله بالأمرين، والله جل وعلا أعلم.

سورة النساء

[آيات المواريث]

۞ قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ

وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [النساء: ١١ - ١٤]. [٢٨]

[شرح٢٨] فقد بيَّن الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات تفصيل المواريث بياناً شافياً عظيماً، وكمَّلَ هذا البيانَ بما يتعلَّقُ بالإخوة في آخر السورة، فجمعتْ هذه الآيات مع الآيات في آخر السورة بيانَ المواريث للأقارب كلِّهم، من الفُروع والأصول والحواشي. وقسَّمها سبحانه قسمةً عظيمة في غاية الحِكمة والعدالة، سبحانه الحكيم العليم؛ فإنه أَعلمُ بأحوال عباده، وهو أعلم بما يصلحُهم في كلِّ وقت؛ والـحكمة في ذلك ـ والله أَعلم ـ أنَّ في ذلك جَبرَ =

....

= الأقارب وجَبرَ الزوجين، فإنَّ بين الأقارب من الصِّلة والمحبَّة والتَّعاون ما بينهم، وبين الزوجين ما بينهم.

فمن حكمة الله عز وجل أن جَبرَ هؤلاء وهؤلاء بقَسْمِ أموال قريبهم بينهم، وقَسمِ مال الزوج وإعطاء زوجته منه، وهكذا الزَّوجةُ، وجَعل ذلك للأقربين قبل غيرهم، فراعى في ذلك ـ سبحانه وتعالى ـ القرابةَ والأصولَ والفُروعَ والحواشي، وأحوالَ الزوجين رحمةً من الله عز وجل، ولُطفاً منه سبحانه وتعالى، فلو أُخذ هذا المال منهم لغيرهم ـ لبيت المال، أو لغير بيت المال ـ لكانت المصيبة مصيبتين: مصيبة بموت قريبهم، ثمَّ المصيبة بنَزع ماله لغيرهم، فمن حكمة الله سبحانه وتعالى أن جَعل مالَه لقرابته، رحمةً منه بعباده وإحساناً منه جلَّ وعلا، إلى غير ذلك من الحِكَمِ العظيمة التي فيها توزيع هذا المال على هؤلاء الأقارب توزيعاً عجيباً حكيماً مفصَّلاً؛ فهذا له شيء مقدَّر، وهذا ليس له شيء مقدَّر، وهذا يَثبُتُ دائماً ويُعطى دائماً، وهذا قد يُعطى وقد لا يُعطى، وهذا يُعطى مع قومٍ ولا يُعطى مع آخَرين، إنَّ ربَّك حكيم عليم، جل وعلا. =

....

= ولهذا قال في أثناء الآيات بعدما فَصَّلَ المواريث للأقارب قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ والمعنى: أنه لم يفصِّل هذا التَّفصيل عن جهلٍ، ولا عن اعتباط بغير حكمة ـ حاشى وكلا ـ، بل عن حكمة وعلمٍ، فهو الحكيم العليم، له العِلمُ الكامل والحكمة الكاملة سبحانه وتعالى.

ثمَّ بعدما خَتمَ تفصيلَ المواريث قال بعد ذلك: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ فذكرَ علمَه وحلمه، وأنه سبحانه وتعالى قسَّم هذه المواريث عن عِلمٍ، ثم عن حِلمٍ، فلا يُعاجِلُ مَن أخطأَ أو تَعدّى بالعقوبة؛ فهو حليمٌ سبحانه وتعالى. وهكذا في آخِر السورة ذَكر مواريثَ الإخوة فقال: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ [النساء: ١٧٦] بيَّن أنَّ هذا عن عِلمٍ، وأنَّه سبحانه وتعالى فصَّل هذه المواريث عن عِلمٍ كما فصَّلها في أوَّل السورة عن عِلمٍ ـ جل وعلا. =

....

= ثمَّ راعى في حقِّ الزَّوجين ما هو لائق بهما؛ فإنَّ الزوج مصيبته في الزَّوجة أكبر؛ لأنه يلتمسُ زوجةً أخرى بدلها؛ ليلتمسَ مَن يَعِفُّه، ومَن يَسكنُ إليه، ومَن يتولى أَولادَه إن كان له أولاد، فهو في حاجة أكثر، بخلاف الزوجة؛ فإنها قد تُنْكَحُ، وقد تُجبَر بعد موت زوجها؛ ولهذا جَعلَ حقَّ الزوج أكثر؛ فأعطاه مثل ما أعطاها مع عدم الولد، فيُعطى النِّصفَ، ومع الولد يُعطى الرُّبع. وهي مع عدم الولد تعطى الرُّبع، ومع وجود الولد للزوج تعطى الثُّمنَ، فالله حكيم عليم جل وعلا.

وجعل الأصول والفروع مُقدَّمين على الحواشي، فالأولاد والآباء والأمَّهاتُ مقدَّمون، ولا يرثُ الحواشي معهم إلّا في صور قليلة فيها إذا كان أولياء الولد أنثى، وفَضُلَ شيء، فقد يأخذه أقرب العَصبَةِ من غير الأولاد كما في أمٍّ وبنتين، أو أمٍّ وبنتٍ، أو أمٍّ وأكثر من بنت، أو جَدَّةٍ، ونحو ذلك، فإنَّ ما يَفضُلُ بعد البنات والأمِّ والجدَّةِ يأخذه العاصِبُ من الحواشي من بنت الأخ الشَّقيق والأخ لأب، وابن الأخ والعمِّ، ونحو ذلك. =

....

= والمقصود أنَّ هذه الآيات العظيمةَ فيها حِكَمٌ وأسرار ودلالةٌ على حكمة الله سبحانه وتعالى، وأنه ربُّ العالمين، وأنه الحكيم العليم، وأنه يستحقُّ لأن يُعْبَدَ ويُعَظَّمَ جلَ وعلا، وأن العبد مهما بلغ من العلمِ، ومهما بلغَ من الفضل والحكمة، فإنَّ علمه وحكمتَه بالنِّسبة إلى عِلم ربه وحكمة ربه، شيءٌ ضعيف جدّاً لا يُقارِب ولا يُداني.

ثم بعدما ذكرَ هذه الأحكام وفصَّلها ـ جل وعلا ـ قال: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ أي: فرائضه التي حَدَّها لعباده، ووزَّعها بين عباده، ونظَّمها بين عباده، فيجب أن يستقيموا عليها، وأن يلتزموا بها، فإنَّ الحدود تُطلَقُ على الفرائض كما هنا، وكما في قوله جل وعلا: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وتُطلَقُ الحدود على المَحارم التي حرَّمها على عباده، كما قال جل وعلا: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة: ١٨٧] يعني: المعاصي التي حرَّمها على عباده. فوجبَ على العباد أينما كانوا أن يَلزَموا حدودَ الله سبحانه وتعالى التي فرضها في المواريث، وفي المعاملات، وفي الجنايات، وفي الحدود الشرعيةِ، وفي غير ذلك. وأما حدودُه =

....

= التي هي المحارم، كالزِّنى والسَّرقة وسائر المعاصي، فإنه يَلزمهم الوقوفُ عندها وعدمُ اقترافها وعدم الوقوع فيها؛ بل يجب أن يَحذَروها، وأن لا يَقرَبوها، ولا يَقترِفوها، فهي حِمى الله، فلا يَجوزُ لهم أن يَنتهِكوا حِمى الله سبحانه وتعالى.

ثم ذكر بعد ذلك مَصيرَ مَن استقام على أَمر الله ولم يتعدَّ حدوده أنَّ له الجنَّةَ والكرامةَ، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ وهذا يبيِّن لنا أنَّ مَن استقام على الحدود التي فرضها الله على عباده، ولم ينتهك الحدود التي حرَّمها، فله الجنَّةُ والكرامةُ والعاقبة الحميدة، أمّا من انتهك محارم الله، أو تعدّى حدود الله، فهو مُتوَعَّدٌ بالعذاب الشديد والمُهين ـ نعوذ بالله ـ لكونه خالف أمر ربِّه وانتهك حدودَه وغَشيَ محارمه، وتعدّى ما شرع سبحانه وتعالى؛ فنسأل الله التَّوفيقَ والفقهَ في الدِّين، ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

[أسباب صلاح المجتمعات في الدنيا والآخرة]

۞ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ

فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٥٨-٧٠]. [٢٩]

[شرح٢٩] في هذه الآيات توجيه إلى ما فيه صلاح المجتمع في العاجل والآجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا =

....

= ﴿حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ فإذا حصل هذان الأمران تمت السعادة وصلح المجتمع، فإذا أُدِّيت الأمانات وحكم بين الناس بالحق وهو العدل فقد حصلت أسباب النجاة وأسباب السعادة وأسباب الراحة في الدنيا والآخرة وأسباب استقامة العباد.

وهذه الآية يقال لها: آية الأمراء؛ لأن الأمراء إذا أدوا الأمانات وحكموا بين الناس بالعدل استقامت الأحوال، وجاء في التفسير: أن سبب نزولها مفتاحُ الكعبة حين أخذه النبي ﷺ من عثمان بن طلحة ثم رده عليه. وقد علم أن الاعتبار في النصوص بعمومها لا بأسباب نزولها وإنما الأسباب توضح المعنى.

فالحاصل أن الأمانات تشمل أمرين: تشمل أمانات الله من صلاة ووضوء وغُسل جنابة وغير ذلك، وتشمل حقوق الناس من ودائع وعَوارٍ وديون وغير ذلك؛ فالواجب على كل مسلم بل على كل إنسان أن يؤدي الأمانات، حتى ولو كان كافراً، فهو مخاطَب بفروع الشريعة. =

....

= وأعظم الأمانات توحيد الله، فعلى كل إنسان أن يوحد الله، وأن يخصَّه بالعبادة، وينقادَ للرسل، ولا سيما خاتمهم؛ فإن الله أوجب على جميع العباد أن يتَّبعوه لـمّا بعثه الله عليه الصلاة والسلام.

وعلى الأُمراء والـحُكام ومَن له سلطة أن يحكم بين الناس بالعدل، وأن يحذَر الحكم بالفجور، حتى ولو حكم بين الصبيان فيما اشتجروا فيه فعليه أن يعدل، ولا يجور في أي شيء يحكم فيه، فكيف بحكام المسلمين! وكيف بقضاة المسلمين! فهذا شأنه أعظم.

فالحاصل أن الآية الكريمة تفيدنا أمرين عظيمين بهما صلاح المجتمع وبهما السعادة في الدنيا والآخرة: أداء الأمانات من حق الله وحق عباده، والحكم بين الناس بالعدل.

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ هذا ديوان عظيم عام، ونظامٌ للأمة ومَنهجٌ لها، إذا استقامت عليه تمت سعادتها، وهو طاعة الله والرسول، وطاعة =

....

= ولاة الأمور، ثم ردُّ ما يتنازع فيه الناس مع ولاة الأمور، أو فيما بينهم، إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله. وهذا منهج كافٍ شافٍ مختصرٌ عظيمٌ، فيه النجاة والعصمة، طاعة الله والرسول في كل شيء من أقوالك وأعمالك، في العبادات، وفي المعاملات، وفي الأخلاق، وفي القضاء والخصومات، وفي الأقانين، وفي النكاح والطلاق، فعلى العباد أن يطيعوا الله ورسوله في كل شيء، وعليهم أن يطيعوا ولاة الأمور، ولكن يُعلَم من بقية الكتاب العزيز أن الطاعة إنما تكون في طاعة الله وحق الله جل وعلا.

وجاءت السنة تُقيِّد هذه الآية صريحاً، والسنة تخصص الكتاب وتقيِّدُه، كما أن الكتاب يخصص الكتاب ويقيِّد بعضُه بعضاً، وهذا من المواضع التي قُيِّد فيها الكتاب بالسنة، فقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنما الطاعةُ في المعروف»[1]، وقال: «لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق»[2]، فهذا قَيدٌ لهذه الآية ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ يعني: في المعروف، والله تعالى أعلم. =

---

(١) أخرجه البخاري: الأحكام (٧١٤٥)، ومسلم: الإمارة (١٨٤٠).

(٢) أخرجه البغوي في «شرح السنة» (١٠/ ٤٤) برقم (٢٤٥٥).

....

= ثم يقول ـ جل وعلا ـ فيما يتعلق بالمنازعات إذا تنازعوا: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ردوه إلى الله؛ إلى كتاب الله، وإلى الرسول في حياته، وإلى سنته بعد وفاته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهذا محل إجماع بين أهل العلم قاطبةً؛ أن التنازع بين الأمراء فيما بينهم، وبين الناس مع الأمراء، وبين الناس فيما بينهم، فيجب عليهم ردُّه إلى الكتاب والسنة الصحيحة، ولا يجوز ردُّه إلى آراء الناس، فالناس يخطئون ويصيبون، والعصمة لله ولما جاء به رسوله ﷺ فيما صح عنه.

﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ يُبيِّن أن هذا من واجبات الإيمان، ومن مقتضيات الإيمان، ومن يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه أن يفعل هذا، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ للمجتمع وللعباد كلهم ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أحسن عاقبة لهم في الدنيا والآخرة، ثم ينعى على مَن زعم أنه مؤمن ثم يتحاكم إلى غير الله، فقد كذب إيمانه وزعمه.

ويبين بعد هذا ـ جل وعلا ـ أن الرسل أُرسِلوا ليطاعوا =

....

= ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ والآية التي قبلها بيّن أن المنافقين ودعاة الباطل يَدَّعون دعاوى طويلة ويقولون: ﴿ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنًا وَتَوۡفِيقًا ﴾ فلا يغترَّ بكلامهم أهلُ الباطل، فهم دعاة السوء لا ينبغي أن يُغترَّ بما يحدِّثونه من تحسين المقال ومن إظهارهم أنهم ناصحون؛ فالعبرة بما يدل عليه المقال وبما تقتضيه الأعمال، لا بالزخارف وتحسين المقال، فكم من قائل قولاً طيباً ولكن أعماله خبيثة، والمنافقون كما قال الله عنهم: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ ﴾ [المنافقون: ٤] فكلامهم عظيم وجيد بين الناس؛ حتى يلبسوا على الناس ويكتموا نفاقهم، وهكذا كثير من دعاة الباطل ومن الملحدين، فعندهم فصاحة وعندهم بلاغة وعندهم تحسين المقال ليكسبوا الناس وليكسبوا المجتمع، وهم في الباطن من أعداء الله والرسول.

فينبغي للمؤمن أن يحذر هؤلاء، وأن لا يغتر بهم إذا كانت أعمالهم تخالف أقوالهم، فالأعمال تفسِّر الأقوال وتترجمها وتبين الحقائق، فليس الاعتبار بالقول ولكنه العمل الذي يصدِّقُه القول، =

....

= وقد ذكر بعض من صنَّف في أعمال أهل الزمان ـ وأظنه الوضّاح ـ في البدع والنهي عنها، ذكر عن سهل بن عبد الله التُّستَري المشهور قال: في آخر الزمان تحسن الأقوال وتسوء الأفعال.

ويقول جل وعلا: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ يبين أنه أرسل الرسل ليُطاعوا، لكن منهم من أُطيع ومنهم من عُصي، بل أكثرهم عصي ولم يطعهم إلا قليل، وبعض الرسل قتله قومُه وما قبلوا منه شيئًا؛ فيأتي وحده يوم القيامة ما معه أحد، وهذا يبين لنا أن أكثر الخَلق يطيع الهوى ويعصي المولى، فينبغي لك أن تحذر وأن لا تغتر بالكثرة؛ قال الله عز وجل: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦] فالعاقل لا ينظر إلى الكثرة ولكن ينظر إلى ما ادُّعي بدليله، فإن قام الدليل على صحته أخذه ولو لم يكن معه إلا القليل، وإذا ظهر له باطله تركه وإن كان معه الكثير، قال بعض السلف: لا تستحِ من الحق لقلة السالكين، ولا تغترَّ بالباطل لكثرة الهالكين.

وقال جل وعلا: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ =

....

= الآية، وهذا مطابق لما تقدم، وأنه لا إيمانَ إلا بتحكيم الشريعة؛ أما مع تَرْكِها والإعراض عنها والاعتياض بآراء الرجال وأقوالِ الفجرة، والرضا بها، فهذا كفر وضلال وعدم إيمان، نسأل الله العافية.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية، وهذا معناه: إذا جاء الإنسان الظالم نفسُه إلى الرسول ﷺ في حياته، وطلب منه أن يستغفر له وأظهر توبته وندمه، فإن هذا من أعظم أسباب قبول توبته، فالرسول ﷺ يستغفر له؛ كما فعل يوم تبوك لما جاء المعذرون، وجاء الثلاثة إلى رسول الله ﷺ، فالمعذرون لما كذبوا وهم غير نادمين، وإنما جاءوا نفاقاً، لم ينفعهم الاستغفار، وأنزل الله فيهم ما أنزل؛ فدلَّ ذلك على أن الاستغفار من الرسول ﷺ لمن ليس أهلاً له لا ينفعه ذلك، كما قال الله ﷻ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، وهكذا الأعراب لما استغفر لهم الرسول ﷺ وهم كاذبون في الدعوة ـ معذورون أو غير معذورين ـ ما نفعهم ذلك، وأنزل الله فيهم: =

....

= ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩٥،٩٦] فقد بيَّن الله أنهم رجس، وأن اعتذارهم غير صحيح، أما الثلاثة الصادقون الذين ندِموا وهم صادقون، فابتُلوا بالهَجْر، ثم جعل الله لهم العاقبة الحميدة، ومَنَّ عليهم بالتوبة العظيمة، ورضي الله عنهم، فالصادقون عاقبتهم الخير والسعادة، والكاذبون عاقبتهم الخيبة والندامة.

ثم يبين ـ جل وعلا ـ أن ما يظنه بعض الجهلة وبعض من ليس عنده علم أن الآية تعني: أن على التائبين أن يأتوا إلى قبره ﷺ ويسألوه أن يستغفر لهم، فهذا جهل وضلال لا أساس له، بل هو باطل، وقصة العُتبي من أبطل القصص، ولو صحت لم يكن فيها حجة، فهي رؤيا أعرابي لا قيمة لها. فالمقصود بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ هذه تتعلق بالحياة، أما بعد الموت فليس =

....

= لأحد أن يأتي إلى قبرٍ ويطلب من النبي المغفرة أو الشفاعة أو الرزق أو النصر، بل هذا من الشرك بالله عز وجل، فدعاء الأموات والاستغاثة بالأموات من أعمال المشركين ومن أعمال الجاهلين، وإنما الآية فيما يتعلق بحياته عليه الصلاة والسلام؛ ولهذا قال: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ فالاستغفار لهم كان في حياته، أما بعد وفاته فإنه لا يستغفر لأحد، عليه الصلاة والسلام.

وأما حديث: «تُعرض عليَّ أعمالُكم، فإن وجدتُ فيها خيراً حمدت الله، وإن وجدتُ غير ذلك استغفرتُ لكم» فهو حديث لا أصل له، ولا صحة له عن النبي ﷺ، وإن كان جاء مرسلاً من طريق بكر بن عبد الله المزني، فهو غير صحيح، وقد جاء من طريق عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد، وهو من المُرجئة ويُتهم في مثل هذا؛ فلا يُعوَّل على روايته في مثل هذا.

ولو كانت هذه القضية بعد الوفاة لكان الصحابة أعلم الناس بذلك وأسرعهم لتطبيقها، فهم أسرع الناس إلى كل خير، وأبعد الناس عن كل شر ـ رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين ـ، فالخير في =

....

= سير طريقهم، والهدى في سبيلهم، فهم أولى الناس بالحق، وهم أولى الناس بكل هدى، وإذا كانت الأمة لا زالت فيها طائفة على الحق منصورة لا يضرُّها من خذلها، فالصحابة أولى الناس بهذه الطائفة وأحقهم بها؛ فلا يمكن أن يتركوا شيئاً ويبتعدوا عنه، ثم يكون الحق والصواب فيمن جاء بعدهم.

ثم يبين جل وعلا في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ يبين أنه من أنعم عليهم هم الطائعون لله ورسوله، وهم المرادون في قوله سبحانه: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، فالمُنعَم عليهم هم أهل إخلاص الطاعة لله لا غيرهم، وهم أهل العلم والعمل، وأهل الاستقامة على دين الله، الذين قالوا الحقَّ وعملوا به ودعوا إليه وصبروا عليه، وهم أتباع الرسل، وهم الذين يُحشرون معهم يوم القيامة، بخلاف المغضوب عليهم: وهم الذين يعرفون ولا يعملون لحظهم العاجل، كاليهود وأشباههم، وبخلاف الضالين: وهم العُبّاد على الجهالة، الذين يتعبدون ويتكلمون ويدعون ويعملون على جهالة، كالنصارى وأشباههم، نسأل الله العافية.

[السياسة الحربية في الإسلام]

۞ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٧١- ٨٠]. [٣٠]

[شرح٣٠] في هذه الآيات الكريمات التَّوجيهُ إلى كلِّ خير، والتَّحذيرُ من كلِّ شَرٍّ، وقد سَبقَ غير مرَّةٍ أنَّ القرآنَ الكريم أنزلَه الله ليدعو إلى مَكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويَنهى عن سَفاسِفِ الأخلاق وسَيِّئ الأعمال، ويدعو هذه الأُمَّة إلى ما فيه صَلاحُها ونجاتها واستقامة حالها مع ربِّها، ومع العباد، ويحذِّر الأمَّة من كلِّ ما يَضرُّها في العاجِل والآجِل، ويُعلِّمها الآدابَ الشَّرعيَّة في كلِّ شيءٍ. =

....

= ومِنْ هذا قَولُه سبحانه وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ يأمر جل وعلا بأخذ الحِذْر من الأعداء، وأن الأعداء يَترَبَّصونَ بأهل الإيمان الدوائرَ، وينتهزون الفُرص للانقضاض عليهم، وإيذائهم وظُلمهم والعدوان عليهم وإبطال مَساعِيهم الصالحة الخيِّرة ـ هذا شأن أعداء الله ـ فيجب على أهل الإيمان في كل وقت وفي كل مكان أن يأخذوا حِذْرَهم من أعدائهم ومكائدهم؛ بالتعاون على البِرِّ والتقوى، والتَّواصي بالحَقِّ، والحذر من كلِّ تَساهُلٍ يفتح ثَغرةً على المسلمين، هكذا يجب أن يكون أهل الإيمان دائماً، فإذا تساهلوا بهذا صار ضعفاً ونقصاً في الإيمان، وتمكيناً للأعداء.

ولهذا في الآية الأخرى يقول جل وعلا: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، فهم مأمورون بأن يأخذوا الحذر والأسلحة جميعاً، =

....

= فالعَدوُّ لا يغفل، بل من شأنه التربص والعناية بالثغرات التي يجدها على المسلمين حتى ينفذ منها. فهكذا ينبغي للمؤمن دائماً أن يكون على حذر، وأن يكون على استعداد فيما يتعلّق بالحرب مع الأعداء، وإعداد القوة لجهادهم وقتالهم حتى لا يجدوا ثَغرة عند المسلمين، وإذا كانت الصلاة التي هي عمود الإسلام وأعظم فريضة بعد الشهادتين يوافيها بأخذ الحذر وأخذ السلاح وحمله؛ لئلا يهجم عليه العدو، فكيف بحال غير الصلاة من الحالات الأخرى التي هي أسهل والإنسان فيها أقدر على حمل السلاح؟

والمقصود من هذا كلِّه التَّنبيهُ على أنَّ المؤمن لا ينبغي أن يَتَّكِلَ على الإيمان، ويقول: أنا مؤمن، وكفى، وأنا معصوم وأنا مُعافى ـ هذا غرور ـ بل يجب أن يأخذ حذره مطلقاً، وأهل الإيمان هم أهل الحذر وأهل العناية وأهل الاستعداد. ولما فرَّط الرُّماة يوم أُحد في الموقف، وتنازعوا فيما بينهم مع أميرهم وجرى ما جرى، ولا يخفى على أَحد ما حدث بسبب ذلك من المصيبة على المسلمين والقتل والجراح بأسباب هذا الإخلال، وهم سادةٌ مؤمنون، وهم أفضل المؤمنين وخيرة الناس من خلقه في ذاك الوقت وفي كل وقت. =

....

= فنَبيُّ الله ﷺ هو أفضل الخَلق، ومعه صفوة المؤمنين وأفضلهم وخيرهم بعد الأنبياء، وهم أصحابه، ومع هذا لما أخلُّوا بشيء مما يجب الأخذ فيه بالحيطة جرى ما جرى، فلا ينبغي لأهل الإيمان أن يقولوا: إن إيماننا يقتضي أن نُحاط وأن نُحْفَظَ من كل سوء ولو فرَّطنا وضيَّعنا وأخلَلْنا بسُنَّة الله في الحرب، ولم نأخذ الحذر الذي ينبغي، هذا كلُّه مما لا ينبغي قوله أو اعتقاده، فهو تفريط ونَقصٌ وضَعفٌ في الإيمان وغِرَّة يتمكَّن منها الأعداء. وفي هذا يقول جلَّ وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾، «ثُباتٍ» أي: متفرِّقين، أو «جَميعاً» أي: على حسب ما تقتضي المصلحة، فإذا كانت المصلحة تقتضي أن يتفرقوا هاهنا وهاهنا، لِسَدِّ الثَّغرات، ولحماية الحَوزَة والمجتمع من شر الأعداء ـ فعلوا، وإذا كانت المصلحة تقتضي أن يكونوا جميعاً على وجه واحد ـ فعلوا، فالمقصود مراعاة المصالح ومراعاة الحيطة من شَرِّ العَدوِّ ومكائده من جميع الوجوه.

ثم يُبيِّن سبحانه وتعالى حالَ المنافقين، وأنَّ من الناس من =

....

= يُبطِّئ ولا يُسارع في الخروج ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ وهذا في شأن أهل النفاق الذين عندهم الجُبْنُ، وعندهم الخَوَرُ والضَّعف، فلا يَعجلوا في النَّفير إلى قتال أعداء الله طمعاً في الحياة وخوفاً من الموت، فإذا نزل بالمسلمين نازلةٌ مِمّا يُصيبُ المُسلمَ من مكائد الأعداء فرحوا بذلك وحمدوا الله أنهم لم يكونوا معهم؛ لئلّا تُصيبَهم المُصيبةُ التي أصابت هؤلاء المؤمنين، وهذا من خَوَرِهم وضعفهم، وإن انتصر المؤمنون وفازوا وظَفروا، طالبوا بأن يكونوا معهم وحَرصوا على أن يشاركوا في الغنائم، وإلى غير ذلك. وهذا من شأن المنافقين وأشباهِهم الذين ليس عندهم ثَباتٌ، وليس عندهم إيمان أو بَصيرةٌ، وليس عندهم صِدقٌ، بل هم مع الدُّنيا وعاجِلِها لا مع الآخِرَة.

ثم يَحُثُّ المسلمين على الجهاد واستِنْقاذِ المُستَضعَفِين من أيدي الكَفرة ويُحذِّرهم من التَّساهل وخوف الموت، وأن الموت لا بُدَّ أن يأتيهم أينما كانوا.

ويُبيِّن جلَّ وعلا أنَّ ما أصابهم مما يكرهون أو يحبون كلُّه =

....

= مقدَّر، وكلُّه من عند الله، فما أصاب مِن سيِّئةٍ، يعني: ما أصاب من مصيبة في نفس أو مال، أو مِن حسَنةٍ من نصرٍ على الأعداء، فكله من عند الله جل وعلا، ولكن الحسنات من فضله جلَّ وعلا، والسيِّئات أسبابها مِن الإنسان وتَقصيرِه، ولهذا بعدما قال: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني قَدَراً وقضاءً، قال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ يعني: سَبب هذه المصيبة هي السيِّئة نَفسُها وتقصيره وظُلمه، كما قال في الآية الأخرى جلَّ وعلا: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، فما أصاب الناس مما يكرهون من تسليط الأعداء ومن هزائم ومن غير ذلك، فأسبابه أعمالُهم السيِّئة، وتقصيرهم في أمر الله، وتأخُّرُهم عن حق الله، وعدمُ قيامهم بما يجب من حق الله عليهم جل وعلا، فهذه أسباب الهزائم وأسباب النقص وأسباب المصائب، وما أصابهم من فضل ونصر وعز وتمكين فهو من فضل الله عز وجل ومن نعمته عليهم وإحسانه سبحانه وتعالى؛ فهو المتفضل بما يحصل من نصر وتأييد وجمع كلمة، وانهزام عدو إلى غير ذلك، فكلُّه من فضله سبحانه وتعالى، =

....

= وأسباب ذلك: طاعته، والقيام بأوامره، والوقوف عند حدوده، والإعداد لعدوِّه، وأخذ الحذر دائماً، حتى في الصلاة، فيؤخذ الحذر وحمل السلاح والاستعداد للعدو حتى لا يهجم العدو على غِرَّة، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[التحذير من الغلو في الدين]

۞ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٧٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ (١٧٦)﴾ [النساء: ١٧١-١٧٦]. [٣١]

[شرح٣١] يُحذِّرُ ـ جَلَّ وعلا ـ أهل الكتاب من الغُلوِّ في دِينهم، وأهلُ الكتاب: هم اليهود والنَّصارى، بإجماع أهل التفسير، وإن كان المراد هنا النَّصارى، فلهذا قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾. وكذلك يدخل اليهود في المعنى؛ لأنهم كذَّبوا عيسى وأنكروه، وزعموا فيه المقالة الشَّنيعةَ، بأنه وَلدُ بَغيٍّ. فالسِّياقُ وأن كان في النَّصارى لكنَّه يَعُمُّ الجميعَ، وهم منهيُّون عن الغُلُوِّ في دينِهم جميعاً، فليس لليهود أن يَغلُوا في دينهم، في العُزَير أو في غير العُزَير، وإن غَلَوا في العُزَير فجعلوه ابنَ الله، وغَلَوا في الأحبار والرُّهبان فأحلُّوا ما أحلُّوا، وحرَّموا ما حرَّموا من غير بُرهانٍ، وكذلك النَّصارى غَلَوا في المسيح، وجعلوه =

....

= إلهاً مع الله، أو ابنَ الله، أو ثالثَ ثلاثةٍ، وغَلَوا في أُمِّه أيضاً، وجعلوها إلهاً مع الله، وغَلَوا في أحبارهم ورهبانهم... إلخ.

فالله عز وجل حذَّر الجميع من الغُلوِّ، والغُلوُّ: هو الزِّيادةُ في الشيء المشروع، كالزِّيادة في حُبِّ الأنبياء والصالحين، والزِّيادةُ في بعض العبادات شيئاً لم يُشرِّعه الله، حتى يكونَ مُبتدَعاً، يقال: غَلَت القِدْرُ: إذا زاد ارتفاع الماء فيها بسبب النّار التي تحتها، ثم زادت النّارُ، فزاد الغَلَيانُ وارتفع.

فاليهود والنَّصارى غَلَوا في حُبِّ أنبيائهم وصالحيهم حتى عبدوهم مع الله، كما زادت الطَّوائفُ الأخرى ممن ينتسبُ إلى الإسلام والسُّنَّة من هذه الأمَّة في حُبِّها للصالحين والأنبياء حتى عبدوهم من دون الله. فالغُلوُّ الذي حذَّر الله منه أهل الكتاب، وقع فيه ضُلّالُ هذه الأُمَّة ـ أُمَّةِ محمد ﷺ ـ والله جل وعلا حذَّر هذه الأمَّة من التَّشبُّه بمن قبلها في الغُلوِّ وغيره.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ نهيٌ لهم ونهيٌ لنا، كأنَّهم مثلما قال حذيفةُ: قال: «القومُ» ولم يَعْنِ به سِوانا، =

....

= فنحن مَعنيُّون كما هم مَعنيُّون بالنَّهي والتَّحذير. وقال ﷺ: «لَتتَّبِعنَّ سَنَنَ من كان قبلَكم شِبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحرَ ضَبٍّ لدخلتُموه». قالوا: يا رسول الله، اليهود والنَّصارى؟ قال: «فمَنْ؟»[1].

فالواجب على جميع النّاسِ ـ ولا سيَّما أهل الإيمان والتصديق ـ أن يحذروا الغُلوَّ، فإنَّ عاقبته وخيمةٌ، وأن يستقيموا على الحدِّ الشرعي في كلِّ أمورهم، فيستقيموا على الحدِّ الشرعي في التَّوحيد، فلا يشركوا مع الله جلّ وعلا غيرَه، ويستقيموا على الحدِّ الشَرعي في حُبِّ الأنبياء، فلا يرفعوهم فوق منازلهم حتى يجعلوهم آلهةً مع الله، وفي حُبِّ الصالحين كذلك، فيحبونهم حُبّاً يَليقُ بهم، في كونهم استقاموا على أمر الله، وفي كونهم صُلحاءَ، دون أن يجعلوهم في منازل العبوديَّة أو في منازل الإلهيَّة.

فهناك حُبٌّ في الله وحُبٌّ مع الله، الحبُّ في الله هو المشروع، والحبُّ مع الله هو الممنوع؛ لأنه اتخاذ آلهةٍ مع الله عز وجلّ، وجَعلُ =

(١) أخرجه البخاري: أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦)، ومسلم: العلم (٢٦٦٩).

....

= المحبةِ شركاً.

والمسيح هو عيسى ابن مريم، سُمي مَسيحاً من المَسْح؛ لأنه إذا مَسحَ على ذي عاهة أَبرأَه الله، كالأَكْمَه والأَبْرَص، وقيل فيه غير ذلك.

ويقال في الدَّجال مَسيحٌ، ومَسيخٌ من المسخ، ولكنَّ المشهور فيهما جميعاً المسيح بالحاء، وقيل للدَّجال مَسيحاً؛ لأنه يمسح الأرض، فيَعمُّها ويَطَؤُها، فلا تبقى أرضٌ إلا عمَّها ووطِئها، إلّا الحرمين، مكة والمدينة، فإنَّ الله يمنعُه منهما؛ كما في الحديث الصحيح[1]، فإذا نزل حول المدينة رَجَفَت رجفاتٌ، فيَخرج إليه منافقوها، وأهل الشرِّ. ولا يمتنع أن تكون مكّة كذلك، وإن كنت لم أقف على شيء في مكة من جهة الرَّجَفات، لكن ما دام وقع في المدينة فالذي في مكة كذلك، إذا كان فيها وقتَ مجيئه إليها مَن هو على دينه وشاكلته.

ونُسب عيسى ابن مريم لأمه؛ لأنه لا أب له، فخلقه الله من =

---

(١) أخرجه البخاري: الحج (١٨٨١)، ومسلم: الفتن وأشراط الساعة (٢٩٤٣).

....

= أُنثى بلا ذَكَر، قال الله له: كن، فكان، أما غيره فيُنسَبون إلى آبائهم، قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥]، أما عيسى عليه السلام فقد جعله وأمَّه آية للناس، وأتم به قسمة الإنس إلى أربعة أقسام: قسم من طين لا من ذَكَر ولا من أنثى، وهذا هو أبونا آدم عليه الصلاة والسلام. وقسم من ذَكَر بلا أنثى، وهذه أمنا حواء، خلقها الله من نفس آدم. وقسم من أنثى بلا ذَكَر، وهذا هو عيسى عليه الصلاة السلام. وقسم هو بقية الناس جميعاً من ذَكَر وأنثى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣].

وبسبب كون عيسى عليه السلام خُلق من أنثى بلا ذَكَر انقسمت فيه اليهود والنصارى، فاليهود ـ عليهم لعائن الله المتتابعة ـ جفَوا وفرَّطوا وقصَّروا ونفَوا نبوته ورسالته، وزعموا أنه ولد بغي، فكفروا بذلك كفراً بواحاً، نعوذ بالله من ذلك، والنصارى غلوا وزادوا وأثبتوا أنه رسول الله، ولكنهم زادوا، فجعلوه ابن الله، وجعلوه ثالث ثلاثة، وهذا من كفرهم وضلالهم. ولم يسلم من هذا البلاء إلا الحنيفيون أمة محمد ﷺ المؤمنون، وهكذا من آمن من =

....

= بني إسرائيل بعيسى عليه السلام، فإنهم صدَّقوا أنه رسول الله وأنه خُلق من أنثى بلا ذكر، كما آمنت أمة محمد ﷺ بذلك، قال الله عز وجل له: كن، فكان. وهذا هو الحق فيه، لا كما تقول اليهود ولا كما تقول النصارى، وعلى كل مسلم أن يبرأ إلى الله مما قيل فيهما، وأن يعتقد الحق في المسيح، وأنه عبد الله ورسوله.

﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ كلمته لأن الله قال له: كن، فكانٍ بهذه الكلمة، وسُمي «كلمة الله» لأنه كان بها ووُجد بها، و«روح منه» لأن الله خلق هذه الروح في مريم، وأنشأ عيسى منها، فالله من خلقها وأوجدها سبحانه وتعالى؛ كما قال عز وجلّ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] أي: خلقاً وإيجاداً.

ويسمى «روح الله» أيضاً من باب إضافة المخلوق إلى خالقه إضافةَ تشريف وتكريم، فالمعنى: روح من الأرواح التي خلقها، وأوجدها، فأضافها إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم؛ كما يقال: بيت الله، أي: الكعبة، وناقة الله، أي: ناقة صالح، من باب =

....

= التشريف والتكريم، فالبيت مخلوق والناقة مخلوقة، فإضافتهما إلى الله إضافة تشريف وتكريم، وهكذا في الخُمسِ، يقال فيه مال الله، ويقال: رسول الله؛ للتشريف والتكريم، فهذا من إضافة المخلوق إلى خالقه.

وقد يضاف المخلوق إلى الله إضافة خلق وإيجاد، لا بقصد التشريف والتكريم، لبيان أنه مخلوق موجود، أوجده الله عز وجلّ، كما يقال: أرض الله، وسماء الله، ومال الله، وعباد الله، من باب الخلق وأنهم مخلوقون لله، فالله سبحانه وتعالى أوجدهم، كما قال سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣].

﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: آمنوا أيها الناس بالله، وأنه ربكم وإلهكم الحق، وأن رسله عبيد من عبيده، أرسلهم الله إلى عباده؛ ليدعوهم إلى توحيد الحق والهدى وطاعة الله، وليسوا بآلهة.

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ﴾ احذروا أن تقولوا هذا الكلام، لا تقولوا ثلاثة آلهة: عيسى، وأمه، والله عز وجلّ، فإن هذا من أبطل الباطل. =

....

= ثم قال: ﴿ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ انتهوا عن هذا الكلام خيراً لكم، فهذا هو الواجب على جميع العباد، أن ينتهوا عن هذه المقالة، ولا سيَّما النصارى، وأن يقولوا الحق، وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

وفي الآيات فوائد أخرى، وفي آخر الآيات ذِكرٌ للمواريث، وقد سبق القول عليها في آيات المواريث، نسأل الله التوفيق.

سورة المائدة

[الوفاء بالعهود]

۞ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ۖ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۖ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ۖ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة: ١ - ٥]. [٣٢]

[شرح٣٢] هذه السورة العظيمة من آخِر ما نزل على النبيِّ ﷺ، وفيها أحكام كثيرة بيَّنها الربُّ عز وجل لعباده، وبَدأها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خاطَبَهم سبحانه بالإيمان لأن أهل الإيمان هم أهل الامتثال على الكمال، وإن كان الخطاب لجميع الناس، فكل الناس مخاطبون باتِّباع الرسول ﷺ وطاعة أوامره =

....

= ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، فالوفاء بالعُقود من العبادة ومن التقوى وطاعةِ الله ورسوله، واتِّقاء محَارِمه وغَضبِه، والإيمان به وبرسله، وأهلُ الإيمان الذين قد صدَّقوا الله وآمنوا به وبرُسلِه هم أَولى الناس بالامتثال، وأَحقُّ الناس بأن يُخاطَبوا، لإيمانهم بالله ورسوله، وهذا موجود في القرآن كثيراً، فيخاطب أهل الإيمان وهو الأكثر، ويخاطب الناس وهو دون ذلك في آيات كثيرات.

وإذا عَلِم المؤمنُ هذا المعنى عرف أن الواجب عليه العناية بهذه الأوامر والانتباه لها واليقظة، ولهذا فقد ورد عن ابن مسعود قوله: إذا سمعت الله عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ فأَصغ إليها سمْعَك، فإنه خيرٌ تُوصى به أو شرٌّ تُصرف عنه[1].

فأنت يا عبدَ الله محسوب من أهل الإيمان المخاطبين، ولفظ الإيمان يطلق هنا على جميع المسلمين، فالخطاب يَعُمُّ المسلمين جميعاً، وليس على الاصطلاح المعروف من أهل السُّنة أن المؤمن أَخصُّ =

(١) انظر «شعب الإيمان» ٢/ ٣٦١.

....

= من المسلم، فهنا في هذا المعنى الآية عامَّة، فمَردُّه أصل الإيمان، الذي يشمل المسلمين عموماً، فهم مخاطبون بأن يمتثلوا قوله في آية المخاطبة بالإيمان.

﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ يعني: أوفوا بما جرى من العُقود فيما بينكم وبين الله وما بينكم وبين العباد، فالمسلم بإيمانه وإسلامه ودخوله في دين الله قد عاقد الله على أداء أوامره وترك نواهيه، فعليه أن يُوفي بهذا العقد ويلزمه لله سبحانه وتعالى حتى يلقاه، وذلك في ترك المحارم وفي أداء الفرائض وفي الوقوف عند الحدود.

وهكذا ما يقع بينك وبين الناس من العقود من بيع أو تجارة أو غير ذلك، عليك أن تُوفي بالعقود، وهذه الآية أصل عظيم في وجوب الإيفاء بالعقود ولزومها، إلا ما دل الشرع على أنه جائز وليس بلازم، وهي أصل عظيم في عدم التَّساهُل بهذا الأمر، وأن العقد شأنه عظيم، فالواجب الوفاء به وعدم التَّحايل لإبطاله وإفساده بغير حقٍّ.

ثم يبيِّن سبحانه وتعالى حِلَّ بَهيمةِ الأنعام، وقد تكرَّر في =

....

= كتاب الله ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يعني إلا ما نَصَّ الله على تحريمه، كما في قوله جلَّ وعلا: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ الآية [الأنعام: ١٤٥].

وكذا ما ذَكَر بَعدَ ذلك من قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ إلى آخره، وقد قَصَّ وتلا علينا في مواضعَ أشياءَ حرَّمها علينا جل وعلا؛ فهي مُستثناةٌ.

ثم يبيِّن جل وعلا بعد ذلك بقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ ـ وإن كان مُبيَّناً في آخر هذه السُّورة، لكن ذُكر أيضاً في أولها تحريمه لعظم شأن ذلك ـ إنَّ المُحرِمَ يَحرُم عليه قتلُ الصَّيدِ وصَيدُه ما دام مُحرِماً، فنبَّهَ عليه في أَوَّل السورة وفي آخرها في قوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ٩٥]، ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة: ٩٦] فهذا يبيِّن لنا عِظَمَ شأن تحريم هذا الصَّيد، وأنه محرَّمٌ تحريماً شديداً على المحرِم، ولذلك قال: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾. =

....

= ثم بَيَّنَ أشياء ونهى عن أشياء سبحانه وتعالى، بيَّن أمراً عظيماً، وقاعدةً كُلِّيَةً وهي التَّعاون على البِرِّ والتَّقوى، وعدم التَّعاون على الإثم والعدوان، وأنَّ الواجب على أهل الإيمان أن يكونوا متعاونين على البِرِّ والتَّقوى أبداً، وأن يحذَروا التَّعاونَ على الإثم والعُدوان. وهذه قاعدة يجب أن تُلْزَمَ، ويجب أن تُراعى دائماً، وألّا يكون المؤمن عوناً على الإثم والعدوان، وأن لا يتأخَّر ويتقاعس عن الإعانة على البِرِّ والتَّقوى، فهو مخاطَبٌ بهذا وهذا، مخاطب بأن يُعِينَ أخاه، على البِرِّ والتَّقوى، ومخاطَبٌ بأن يحذَرَ إعانتَه على الإثم والعدوان، وهذا مقتضى النَّص، ومقتضى الأُخوَّة الإيمانية: أن تكون عوناً لأخيك على ما ينفعُه ويرضى الله عنه، فـ«المسلم أخو المسلم»[1]. ومَن كان أخاك فلا يجوز أبداً أن تكون عوناً له على ما يَضرُّه، ولا عوناً له على ما يُغضِبُ الله جل وعلا، بل تكون عوناً له على ما ينفعُه، وعوناً له على ترك ما يضرُّه، وهذا من القاعدة: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم: البر والصلة (٢٥٨٠).

[الوضوء والغسل والتيمم]

۞ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٦﴾ [المائدة: ٦]. [٣٣]

[شرح٣٣] قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ ...﴾ الصلاة هي عمود الإسلام، وهي أهمُّ فرائضه بعد الشهادتين، والطهارة شرطها كما قال النبي الكريم ﷺ: «لا تُقبَل صلاةٌ بغير طهور، ولا صدقةٌ من غلول»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تُقبَل صلاة أحدِكم إذا أحدث حتى =

---

(١) أخرجه مسلم: الطهارة (٢٢٤).

....

= يتوضأ»[١]، ولذلك أنزل الله ـ جل وعلا ـ بيان هذا الفرض العظيم في هذه السورة العظيمة فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يعني: وأنتم على غير طهارة ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾.

أما إذا كان الإنسان على طهارة فإنه لا يلزمُه الوضوء، فله أن يصلي الفروض المتعددة بوضوء واحد، كما جاء في السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ، ولكن إذا أحب أن يتطهر من باب المزيد من الخير، ومن باب التقرب إلى الله كان فضلاً وكان مستحبًا، وفيه الثواب الجزيل الذي ورد في الطهارة الشرعية.

أما الوضوء فلا يلزمه إلا إذا كان على حَدَث، وقد صلى النبي ﷺ يوم الفتح عدة صلوات بوضوء واحد، فسأله عمر عن ذلك فقال: «عمدًا صنعتُه عمر»[٢]؛ من أجل أن يعلم الناس أنه لا حرج في أن يصلي الإنسان صلاتين أو أكثر بوضوء واحد. =

(٢) أخرجه البخاري: الوضوء (١٣٥)، ومسلم: الطهارة (٢٢٥).

(٢) أخرجه مسلم: الطهارة (٢٧٧).

....

= وكما تُجمع الصلاتان بوضوءٍ واحد في السفر وغيره، والمقصود أن جمع الصلاتين أو أكثر بوضوء واحد إذا لم يُحدِث الإنسان لا حرج عليه في ذلك، وقد فعله رسول الله ﷺ وفعله أصحابه، عُلِم بذلك أن المراد بقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يعني: وأنتم على غير طهارة، وهكذا التيمم حُكمُه حُكمُ الوضوء، فهو رافع للحدث كالماء، فإذا تيمم للصلاة جاز له أن يصلي به عدة صلوات في أرجح أقوال أهل العلم، ما لم يحدث أو يجد الماء؛ لقول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهوراً»[1]، سماه طهوراً كما أن الماء طهور.

ثم بين سبحانه وتعالى الفرائض في الوضوء وأنها أربعة: غسل الوجه، وغسل اليدين مع المرفقين، ومسح الرأس مع الأذنين ـ كما جاء في السنة ـ، وغسل الرجلين مع الكعبين، ورتبها سبحانه وتعالى هكذا ليُعلم أن المسح مرتب، ومعلوم أن المسح غير الغسل، فلما أدخل المسح بين المغسولات، والنبي ﷺ توضأ هكذا، عُلم أن =

(١) أخرجه مسلم: المساجد (٥٢٣).

....

= المسح مقدم على غسل الرجلين، وأنه بهذا الترتيب. وهذا الترتيب فرض لا بد منه كما رتبه الله ﷻ، وكما فعله نبيه ﷺ.

ثم الموالاة بين هذه الأعضاء، وعدم التفريق بينها، والمقصود بالموالاة: أن لا يؤخِّر غسل عضو حتى يجفَّ الذي قبله، بل يوالي بينها عُرفًا؛ لأن الرسول ﷺ وَالَى بينها، فلا يكون متوضئاً مَن غَسَلَ وجهه ويديه ثم ترك، ثم عاد يمسح، فلا بدَّ من الموالاة مع بقاء النية؛ لأنها عبادة واحدة. فإذا وسَّع النية أو فرَّق بينها تفريقاً يقتضي مسافةً بين العضو السابق والعضو اللاحق بدون علة عارضة، فإن هذا يكون مخلًّا بالأمر الشرعي الذي فعله المصطفى ﷺ.

ثم ينبغي مراعاة الكعبين والمرفقين، وقد دلت السنة على أن ما بعد «إلى» داخلٌ، مع أن الأصل أن ما بعدها لا يدخل مع ما قبلها ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فلا يدخل إلا بدليل يدل على ذلك، فإذا دل الدليل صارت بمعنى «مع» كما في قوله جل وعلا: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ﴾ [النساء: ٢] أي: أموال اليتامى، وهكذا هنا فإن ما بعدها داخل، لِما جاء في الحديث =

....

= الصحيح: أنه كان يغسل المرفقين ويغسل الكعبين[1]. فدل على أن قوله: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ و﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ معناه: مع المرافق ومع الكعبين. وفي «صحيح مسلم»[2] عن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ إذا غسل يديه أشرع في العَضُد، وإذا غسل رجليه أشرع في الساق، فهذا دليل على أنه ﷺ كان يغسل المرفقين ويغسل الكعبين.

ثم قال جل وعلا: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾، وهذا يدل على أنه لا بد أيضاً من الطهارة من الجنابة، يعني: لا يصلي وهو على جنابة، فالوضوء هو طهارة المحدث حدثاً أصغر كالريح والبول والغائط وأكل لحم الإبل ومس الفرج، وهذه الطهارة الصغرى، أما إذا كان على جنابة فلا بدَّ من الطهارة منها، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ يعني: في الغسل، وهذا محل اتفاق وإجماع من أهل العلم أنه لا بد من الطهارتين في الصلاة. وفي الآية الأخرى: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ [النساء: ٤٣]. =

---

(١) أخرجه البخاري: الوضوء (١٦٠)، ومسلم: الطهارة (٢٢٦).

(٢) برقم (٢٤٦).

....

= ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ هذا يبيِّنُ لنا أن التيمم يكون عند فَقْدِ الماء، ويقوم مقامه في الجنابة والحدث الأصغر جميعاً، والتيمم نوع واحد، فإذا لم يوجد الماء وهو على حَدَثٍ أصغر تيمَّم، فيضرب التراب بيديه ويمسح بهما وجهه وكفيه، كما فعله المصطفى ﷺ، وكما دل كتاب الله جل وعلا، وكذلك إذا لم يوجد الماء وهو على الحدث الأكبر، فإنه يتيمم.

وهذا هو فرض التيمم، بنصِّ الكتاب العزيز، وبنصِّ الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ: مسحُ الوجه والكفين فقط، وليس معهما الذِّراعان ولا الرأس ولا الرِّجلان.

والحكمة في ذلك: أن التراب فيه تغبير وتوسيخٌ للبدن، فرحم الله العباد وكفانا سبحانه بشيءٍ قريب، الذي يؤذن بخضوع العبد لطاعة الله وتواضعه له وإذعانه لأمره، فلما حصل هذا المطلوب بتعفير وجهه وكفيه كفاه، بخلاف الماء فإن فيه نظافةً وتنشيطاً =

....

= وتنظيفاً للأعضاء، فكان من حكمة الله أن جعله في الأطراف ليزداد الإنسان نشاطاً وقوةً على العبادة، ولتنظف هذه الأعضاء، أما التراب فليس كذلك فاكتفى الله منه جل وعلا بالشيء القليل الذي يحصل به المقصود وهو استسلام العبد لله وطاعته لأمر الله، حتى عفَّر وجهه ـ الذي هو أشرف شيء ظاهرٍ عنده ـ بالتراب طاعةً لله وتعظيماً له، وعفَّر يديه التي هي محل الأكل والشرب، والأخذ والعطاء، طاعةً لله وتعظيماً له سبحانه وتعالى، فدل ذلك على خضوعه وإذعانه لأمر الله ﷻ، والله تعالى أعلم.

ولهذا جعل الله هذا الوضوء كفارةً للذنوب ومن أسباب حَطِّ الخطايا، فإذا توضأ العبد المسلم خرجت خطاياه مع الماء أو آخرِ قَطْرِ الماء من وجهه ويديه ورأسه ورجليه كما جاءت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ[1]، فالتيمم في المعنى مثله.

فالحاصل أن التيمم والغسل والوضوء، طهارتان عظيمتان مكفرتان للسيئات، أحدهما ينوب عن الآخر فالتيمم ينوب عن =

---

(١) أخرجه مسلم: الطهارة (٢٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

= الماء عند فقد الماء وعند العجز عن استعمال الماء، سواء في الطهارة الصغرى وهي الصلاة، أو في الطهارة الكبرى وهي غسل الجنابة، وكذلك الحائض أو النفساء إذا فقدت الماء أو عجزت عن استعماله، فإن التيمم يقوم مقام ذلك، فتصلي بذلك وتحل لزوجها، فضلاً من الله وإحساناً سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ الظاهر من السياق أن «منه» للتبعيض، وأنه لا بد للتيمم من شيء يعلق باليد، وقد اختلف العلماء في ذلك، فقال قوم بظاهر الآية، وقال آخرون: لا يشترط ذلك، بل يمكن أن يمسح على كل شيء من حجر وأرض صَلْبَة ونحو ذلك، ولا يشترط أن يكون فيها شيء يعلق باليد من الغبار ونحو ذلك. والأقرب هو الأول كما هو ظاهر القرآن وظاهر السنة، ولكن عند العجز عنه يكفي ما تيسَّر، فإذا لم يجد تراباً ليس له غبار تيمم بما عنده من رمال أو نورة أو سبخات أو غير ذلك، وكان النبي ﷺ يسلك الطرق الرملية وغيرها فلا يحمل معه التراب، فالإنسان يتيمم من الأرض التي هو فيها، فإن كان في أرض ترابية تيمم بالتراب ومسح، وإذا علق الكثير نفخ فيه =

....

= كما نفخ النبي ﷺ، ليطرح ما زاد على الحاجة، وإن كان في أرض ليس فيها تراب فيه غبار كأرض السبخات وأرض الرمال وأشباه ذلك والأرض الصلبة، فيتيمم بما وجد، والحمد لله ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق:٧]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وفي الآيات فوائد تُعرف بالتدبر والتعقل، وتُعرف من كتب التفسير لمن أراد. والله ولي التوفيق.

سورة الأنفال

[توجيهات حربية للمؤمنين]

۞ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا

يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ١٥- ٢٦]. [٣٤]

[شرح٣٤] يُبيِّن ربُّنا عز وجل في هذه الآيات أحكاماً كثيرة، وشؤوناً عظيمةً، إذا أخذَ بها أهلُ الإيمان استقام لهم أمرُهم، وصلُحت لهم دُنياهم وأُخراهم، كما يبين سبحانه وتعالى في هذه الآيات ما يجب على أهل الإيمان عند لقاء الكفّار، وأن الواجب عليهم التصميمُ والصِّدق في لقاء الأعداء وجهادهم، والحذرُ من الانحراف والتولِّي عن أعداء الله؛ ولهذا يقول جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا =

....

= ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وهذا يُبين أن الواجب المُضيُّ قُدماً عند لقاء الأعداء، وعدم التولي، وأن يكون المؤمن في غاية من النشاط والقوة في مساعدة أولياء الله، وإعانتِهم على قتال أعداء الله، ولا يحمله الجُبن وخوفُ الموت على التأخُّر والتولي عن أعداء الله، بل يُقدم ويَصبر ويُصابر، والله سبحانه وتعالى مع المؤمنين بنصره وتأييده، فهو سبحانه فوق العرش ولكنه مع أوليائه بالنصر والتأييد والتوفيق والترشيد.

والمَعيَّة مَعيَّتان، معية خاصة: وهي مَعيَّةُ الله مع أوليائه، ومع الصابرين، ومع المحسنين، ومع المتقين، قال تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقال أيضاً: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: =

....

= ١٩]، ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فمن صبر على جهاد أعداء الله، وصبر على أداء حق الله، فالله معه سبحانه وتعالى بالتأييد والنصر والتوفيق، وشرح الصدر، وإنزال الرُّعب في قلوب الأعداء، فالله ينصر أولياءه بأنواع من النصر، ومن التثبيت على القتال، وشرح الصدور، وتقوية الإيمان، والإمداد بالملائكة، وما يُوقعه سبحانه في قلوب الأعداء من الرعب والضعف وعدم الثبات، فهو ناصرٌ أولياءَه ومعينُهم سبحانه وتعالى، ومعية عامة وهي لجميع خلقه، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤].

ويبين جل وعلا أن المتحيز إلى فئة أو المتحرِّف لقتال، ليس ممن يولِّي الأدبار، فإذا تحرَّف أحد المجاهدين من مكان إلى مكان ومن صفٍّ إلى صفٍّ ليتهيأ للقتال وليساعد إخوانه على أكمل ما يكون، فليس هذا بإدبار، كذلك من انتقل من جهة إلى جهة، ومن صف إلى فئة لأجل المقاتلين، لأمر دعا إلى ذلك، لا فراراً من القتال، وولي الأمر ينظر في تدبيره وتوجيهه إلى الجهة التي يراها، =

....

= فولي الأمر فئة ومرجع، كما قال النبي ﷺ للناس: «أنا فئتكم»[1].

وبيَّن سبحانه وتعالى أيضاً أن المؤمنين لم يقاتلوا الناس بقوتهم ولا بجهدهم فقط، بل الله معهم سبحانه وتعالى، فهو الذي سدَّد قتالهم، وصوَّبه حتى أصابوا العدوَّ فانهزم ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ فالأمر بيده جل وعلا، فهو مسدد العباد وموفقُهم، وليس الإنسان بمجرَّد كونه أعمَلَ السلاحَ، أو كونه قابَلَ الأعداء، أو أطلق الرمية ـ يجب أن ينجح، فقد يقاتل الأعداء ولا ينجح، وقد يطلق الرمي ولا ينجح، وقد يضرب بالسيف ولا ينجح، فالأمر في حد ذاته يرجع إلى الله عز وجل في تسديد إصابة الرمية وتوفيق الرامي للنجاح في قتاله ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ فهو الموفِّق للمقاتلين وللمجاهدين حتى يَنشَطوا وحتى يقووا، وحتى تصيب ضرباتُهم ورمياتُهم لأعداء الله عز وجل، وإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن لا تصيب طاشت، وسَلِمَ المقاتل، كما هو واقع في مواقعَ =

---

(١) أخرجه الترمذي: الجهاد عن رسول الله (١٧١٦).

....

= كثيرةٍ وحوادثَ كثيرةٍ.

ويُبيِّن جلَّ وعلا أنه مع المؤمنين بنصره وتأييده حتى لا يَجبُنوا وحتى لا يَضعُفوا، وأنه سبحانه وتعالى يُقدِّر ما يقدِّر من الابتلاء والامتحان ليُبليَ المؤمنين بلاء حسناً، ولينظر جُهودَ الصابرين، وصِدقَ الصادقين، وصبر الصابرين، وذِكرَ الذاكرين، وغير ذلك، ويَبتلي هؤلاء بهؤلاء وهؤلاء بهؤلاء، حتى يتبيَّن مِن هؤلاء المؤمنين صِدقُهم ونجاحُهم وثباتُهم وقوَّتُهم وصبرُهم وإقدامُهم، وحتى يتبيَّن مِن الكذّابين والمنافقين إحجامُهم وجُبنُهم وخَوَرُهم وضعفُهم وتأخُّرُهم، فهو ابتلاء وامتحان ليرفع أقواماً ويضع آخرين سبحانه وتعالى، ليرفع أهلَ الصبر والإيمان والمواظبة والإقدام، ويضع أهلَ الجبن والخَوَر والضعف والتأخر والانحراف.

وكذلك يُبيِّن سبحانه وتعالى ما يجب على المؤمنين من طاعة الله ورسوله، وما الواجب من طاعة الله ورسوله، وأنه سبحانه وتعالى إذا شاء وفَّق قوماً فأسمعهم الحق وثبتهم عليه، وإذا شاء =

....

= خذل آخرين من أعمالهم القبيحة وصفاتهم الذَّميمة.

ويبيِّن سبحانه أن شر الدواب عند الله هم الصُّم البُكم، من البشر والجن الذين لا يبالون بالحق ولا يستمعون له ولا ينطقون به، بل هم في غاية من الصمم والبكم عن الحق، فلا أُذُنٌ تسمع وتصغي، ولا لسان ينطق بالحق ويدعو إليه، بل هم في شر عظيم، وهم من أخبث الدواب، والإنسان دابة تمشي على قدميها، لكن الله يكرمه بالحق والهدى إذا استقام، فيكون من خير الناس ومن أفضل الناس، ويُهينه ويذلُّه إذا مال عن الحق والصواب، فيكون من شر الدواب، نعوذ بالله.

ثم يُبيِّن جل وعلا أن الاستجابة لله وللرسول فيها الحياة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ فالحياة في طاعة الله ورسوله، والاستجابةِ لله ولرسوله، ومن أعرض عن ذلك فهو في غفلة، وإن لم يشعر بذلك، فلموت قلبه وانحرافه، قال جل وعلا: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ ﴾ [النحل: ٩٧]، =

....

= فالحياة الطيبة في طاعة الله ورسوله، والشقاءُ والهلاك والموت في الإعراض عن الله ورسوله، وعدمِ طاعة الله ورسوله. ومن هذا قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فالله جعل الوحي روحاً، يعني: أن الوحي الذي جاء به النبي محمد ﷺ روحٌ تحصل به الحياة، ونور تحصل به البصيرة، فمن فاته هذا الوحي ولم يوفَّق للانتفاع به وللاستفادة منه، فهو لا يزال في ظلمته، وفي موته، فالحياة والنور والسعادة والبصيرة في قَبول هذا الوحي والانتفاع به والاستفادة منه والسير عليه. وأما إذا أعرض عن ذلك فإنه تفوته الحياة الطيبة ويفوته النور، كما قال عز وجل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فمن قَبِلَ الوحيَ واهتدى بهدى الله فقد حصلت له الحياة، ومن تعلم وتبصَّر في الدين حصل له النور، فإذا أعرض عن ذلك فلم يقبل الحق ولم يتبصر فيه ولم يتفقَّه فيه، فقد فاتته الحياة وفاته النور، نعوذ بالله من ذلك، ونسأل الله السلامة.

سورة التوبة

[إعلان الحرب على المشركين]

۞ قال تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ

فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [التوبة: ١-٥]. [٣٥]

[شرح٣٥] هذه الآيات من سورة براءة، وهي سورة عظيمة، قالوا فيها: إنها الفاضحة، وإنها المثيرة؛ لأنها فضحت أهلَ النفاق وبيَّنت أعمالهم السيئة.

وبيَّن الله جل وعلا في صدرها براءتَه سبحانه وبراءة رسوله من أهل الشرك بالله والكفر به جل وعلا، وحَرَّض رسوله والمؤمنين على قتال أهل الشرك، ونَبْذِ عهدهم إليهم.

وكان النبي ﷺ بعدما هاجر أُذِن له في القتال، ثم أُمِر بالقتال لمن قاتله، والكفِّ عمَّن كف عنه كما في سورة النساء: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

ثم إن الله سبحانه لما أعان المؤمنين وجمع شملهم، وقوي جندُهم بعد فتح مكة، وصار لهم دولة عظيمة، وجهاد كبير في الدعوة إلى الله عز وجل، وجهادِ أعدائه، أمر الله سبحانه وتعالى نبيه أن يقاتل المشركين، وأن يصابرهم ويناجزهم، ويقعد لهم كل مَرصَد، ويمهل من لم يكن له عهد أربعةَ أشهر، ومن كان له عهد يُـرَدُّ إلى =

....

= عهده وإلى مدته، وبعد هذا يكون القتال بينهم.

وقال الله جل وعلا: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فبيَّن الله سبحانه وتعالى أن هؤلاء لا يُخلَّى سبيلهم إلا إذا تابوا إلى الله من الشرك، والتزموا التوحيد، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة.

وهذه الأمور الثلاث هي أعلى أركان الإسلام وأهمها، ومن أتى بها عن إيمان واقتناع أتى بالبقية والتزم البقية؛ ولهذا جاء في النصوص الكثيرة الاقتصار على هذا الكلام، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:١١]، وفي سورة «لم يكن»: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥].

وكذلك مثل قول رسول الله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح في حديث ابن عمر: «أمرت أن أقاتل الناس =

....

= حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءَهم وأموالَهم إلا بحق الإسلام، وحسابُهم على الله عز وجل»[1].

ومثل ما في حديث معاذ رضي الله عنه حينما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن، أوصاه بأن يدعو الناس إلى توحيد الله وعدم الإشراك به، ثم الصلاة، ثم الزكاة... إلى آخر الحديث[2].

هذه الأشياء، وهذه الأمور الثلاثة هي الأصول العظمى للدين، وأعظمها: توحيد الله والإخلاص له وتركُ الإشراك به.

ثم إقام الصلاة.

ثم إيتاء الزكاة.

فإذا التزم العبد بهذه الأمور، وإذا اعتصم بها عن إيمان وعن يقين؛ أدَّى ما سواها من الصيام والحج والجهاد، وغير هذا من =

---

(١) أخرجه البخاري: الإيمان (٢٥)، ومسلم: الإيمان (٢٢).

(٢) أخرجه البخاري: الزكاة (١٣٩٥)، ومسلم: الإيمان (١٩).

....

= أمور الدين وترك المحارم.

وبهذا بيَّن الله سبحانه وتعالى أن المشركين الذين ليس لهم عهد؛ فإنه يمهلهم أربعة أشهر، قال تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ ينظروا لأنفسهم إما يقاتِلوا وإما يُسْلِموا. وأما من له عهد فيبقى على عهده حتى ينتهي عهده.

ثم قال سبحانه وتعالى بعد هذا: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ هذا، يبيِّن لنا أن المشركين إذا طلبوا من المسلمين أن يسمعوا القرآن وأن يسمعوا السُّنَّة؛ فإنهم يُجارُون؛ فإذا سمع ما يريد من كلام الله، وكلام الرسول عليه الصلاة والسلام، بعد هذا يُرَدُّ إلى مأمنِه، ويردُّ إلى بلاده، ولا يُنال بسوء؛ لأنه جاء بأمان ليسمع كلام الله، ويبيَّن له شرع الله؛ فإن أسلم فالحمد لله، وإلا رُدَّ إلى بلاده*.

---

* س: هل يُقاتَل المسلم على ترك الحج؟ أو على ترك الصوم؟ =

....

= ج: لم يَرِد في هذا شيء، إنما يقاتَلون على ترك الصلاة، وترك التوحيد، وترك الزكاة؛ لكن من أصر على ترك الصيام وترك الحج وهو قادر فيستحق التأديب؛ يعزرُه الإمام، ويؤدبه حتى يتوب. أما إذا جحد وجوب الصيام أو جحد وجوب الحج مع الاستطاعة؛ فهذه ردة عن الإسلام، يُقتَل.

س: المستتاب بالكفر، إذا قتله الإمام حدّاً مثلاً، هل يصلَّى عليه، وهل يرثه أهله؟

ج: هذا يُعتبَر كافراً، ولا يصلى عليه، ففي ترك الصلاة مثلاً، أو في سب الله، أو أي ناقض من نواقض الإسلام، هذا يكون مرتداً ـ نسأل الله العفو والعافية ـ قال ﷺ: «من بدَّل دينه فاقتلوه»[1]، ولا يرثه أقاربه المسلمون؛ بل يكون لبيت المال.

س: هل يجوز استقدام الكفرة للعمل في بلاد المسلمين؟

ج: الكفرة لا ينبغي توريدهم مهما أمكن إلا عند الضرورة.

س: والمسلمين الذين لا يدرون الشريعة؟

ج: المسلمون شيء آخر، فالمسلمون إذا جاؤوا في عمل وكان منهم جاهل، وجَّهوه إلى الخير، يُؤمَرون بالمعروف ويُنهَون عن المنكر، ولو أنهم غرباء، ـ يجب على أهل الإسلام أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ـ =

(١) أخرجه البخاري: الجهاد والسير (٣٠١٧).

....

= ولا يقال: هذا يَمَنِيٌّ أو هذا شامي أو هذا مصري، ولكن يجب أن يؤمَر بالمعروف ويُنهى عن المنكر، من أي جنس كان.

أما إذا كانوا كفاراً فلا ينبغي استعمالهم مهما أمكن ولا سيما في الجزيرة العربية؛ لأنها بلاد الإسلام ومهد الإسلام، فلا ينبغي أن يؤتى إليها بالكفار إلا بصفة مؤقتة عند الضرورة إليهم، ثم يُبْعَدون، وما أمكن الاستغناء عنهم بأهل الإسلام فهو الواجب. وهكذا في بلاد أخرى غير الجزيرة.

س: هل تجزئ الصلاة في البيت بدون عذر؟

ج: الصحيح أنها تجزئ، ولكن صاحبها يستحق أن يؤدَّب إذا صلى في البيت بدون عذر، فلا يجوز؛ لأن الرسول ﷺ أمر أن يصلَّى في المساجد، وقال: «من سمع النداء فلم يأته، فلا صلاةَ له إلا من عذر»[1]، وكذلك جاءه الأعمى يستأذنه، قال: يا رسول الله، إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد؛ فهل لي من رخصة أن أصلي في بيتي؟ فَرَخَّص له، ثم قال له: «هل تسمع النداء للصلاة؟» قال: نعم. قال: «فأجب»[2]، وفي رواية: «لا أجدُ لكَ رخصة»[3]، وهمَّ الرسول ﷺ أن يحرِّق على المتخلفين بيوتهم؛ لأنهم لا =

(١) أخرجه أبو داود: الصلاة (٥٥١)، وابن ماجه: المساجد (٧٩٣).

(٢) أخرجه مسلم: المساجد (٦٥٣).

(٣) أخرجه أبو داود: الصلاة (٥٥٢)، وابن ماجه: المساجد (٧٩٢).

....

= يشهدون الصلاة في الجماعة في المساجد[1]، وكذلك همَّ بمن تخلف عن الجمعة أن يحرِّق عليه بيته.

فالمقصود أن كل هذا يدل على أنه يجب أداء الجُمَع والجماعات في المساجد، وهذا فرض عين، ولكن الجمهور ذهب إلى أنها تصح لو صلاها في البيت مع الإثم، ولا يلزمه الإعادة. وقال قوم: بل تلزمه الإعادة، وجعلوا الجماعة شرطاً لذلك.

والحاصل الذي عليه جمهور أهل العلم أنها تصح مع الإثم؛ فيلزم أن يحضر في المسجد، ويصلي مع الناس.

ولا يكفي أيضاً صلاتها جماعةً في البيت، فليس له ذلك؛ لأن الرسول ﷺ أمر الأعمى ـ وهو ليس له قائد ـ أن يحضر ويصلي مع الجماعة، فكيف بالبصير القادر؟! كذلك هَمَّ بحرق بيوت من لا يشهدون الصلاة، ولم يقل: لا يصلون جماعة في بيوتهم؛ بل قال: «قوم لا يشهدون الصلاة مع المسلمين في المساجد». وهذه المساجد عُمِّرت لهذا الأمر، لِما يُقام فيها من شعائر الإسلام الظاهرة العظيمة؛ فلا يجوز أن يتخلف الناس عن هذا.

والفارق بين بلاد الكفر وبلاد الإسلام في الظاهر: إقامة الشعائر، وإقامة المساجد، والصلاة فيها، فليست عمارتها بأن تُقام بالحجر والإسمنت =

---

(١) أخرجه البخاري: الأذان (٦٤٤)، ومسلم: المساجد (٦٥١).

....

= والحديد، وأن تُزَيَّن وتُحَسَّن بالأصباغ، أو بغير ذلك، فهذا ليس عمارة لها، بل عمارتها أن تُعْمَر بطاعة الله؛ بالصلاة والقراءة، وحلقات العلم، والاعتكاف وذكر الله وقراءة القرآن.

س: بناءً على الآيات الواردة في سورة براءة الأمر بقتال المشركين حتى يدخلوا في الإسلام، لا بد من إعداد العدة، وإعداد العدة اليوم لا يحصل إلا بالآلات التي اخترعوها، وهذا لا يحصل إلا بالاختلاط بهم والاكتساب من بعض أخلاقهم في بعض الأحيان، فما هو الموقف أحسن الله إليك؟

ج: يقول الله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فيجب إعداد القوة لهم بإيجاد المصانع، وإيجاد المخترعين والمهندسين.

س: وإن احتجنا إلى الخبراء منهم؟

ج: لا بأس إذا احتيج إليهم؛ مثلما أقرَّ النبيُّ ﷺ اليهودَ بخيبرَ للحاجة، ثم أُجْلُوا بعد السنة، ومثلما احتاج عبدَ الله بنَ أُريقِط الدِّيلي ليدلَّه على الطريق إلى المدينة، فهذه أشياء مؤقتة، فإذا احتيج لهم مؤقتاً فلا بأس، وقد يجب عند الحاجة إلى ذلك بما يتعلق بالإعداد الذي يجهله المسلمون، ويحتاجون إليه، فلا بأس أن يُستعان بهم في هذه المسائل.

س: ولو بالذهاب إلى بلادهم؟ =

....

= ج: في هذا تفصيل، فإن أمكن أن نجيء بهم ليعلّموا ثم يُبعَدوا فهو أسلم من الذهاب إلى بلادهم، وإن دعت الحاجة إلى ذلك فضرورة، ويُختارُ الناسُ الطيبون، الذين يصلح وجودهم هناك؛ لعلمهم وفضلهم وديانتهم وتعليمهم وتوجيههم إلى الخير؛ حتى ينفعوا هناك دعوة وتعلماً، ويستطيعون أن يدافعوا عن الإسلام، وأن يزيلوا الشبهات، وأن يدعوا إلى الله عز وجل، ويتعلموا أيضاً ما يحتاجون إليه. أما إرسال الشباب الضعيف والناس الذين ليس عندهم بصيرة، فهذا لا يجوز؛ لأن إرسال الجاهل خطر، ولو كان شيخاً كبيراً، لأنه يتعلم منهم شرَّهم، ويغترُّ بشركهم، وتشكيكهم، وشبهاتهم، فلا يذهب إليهم إلا المتعلم المتبصر، الذي يستطيع أن يدافع عن دينه ويَذُبَّ عنه، وأن يُعَلِّمَ غيره، ويزيل الشبهات، إذا أُدليت عليه، والله المستعان.

[سلوك رجال الدين من

أهل الكتاب والتحذير منه]

۞ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا

لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة:٣٤-٤٠]. [٣٦]

[شرح٣٦] ربُّنا عز وجل ينادي أهلَ الإيمان، مخبراً لهم بحال هذه الطوائف الثلاث، ليحذروا أخلاقَهم الذميمة، وهذه الطوائف الثلاث هي: الأحبار والرهبان والتجار الكانزون للمال. =

....

= فالأحبار: هم العلماء، والرهبان: هم العُبَّاد، والكانزون: هم أهل الأموال. فيخبر عبادَه من أن هذا واقع، وأن هؤلاء مُتَوعَّدون بالعذاب الأليم بسبب ما فعلوه من أكل أموال الناس بالباطل، ومن الصَّدِّ عن سبيل الله، ومن عدم الإنفاق من تلك الأموال في سبيل الله.

والمعنى: أيها المؤمنون، احذروا هذه الأخلاق، واحذروا هذه الصفات، فقد كان فيمن قبلكم في بني إسرائيل وفي غيرهم ـ مَن كان بهذه الصفة ـ من كان عالماً، لكنه لم ينفعه علمه، بل أكل أموال الناس بالباطل، وصدَّ الناس عن الحق، بسبب اتِّباع الهوى، وكان في الناس ممن قبلكم كان فيهم العبّاد والرهبان أيضاً، ولكنهم لم تنفعهم عباداتهم، بل صاروا يأكلون أموال الناس بالباطل بأنواع المكاسب الخبيثة، من الرُّشَا والرِّبا وغير ذلك من أنواع الأكل بالباطل. ومع هذا ما كفاهم، بل هم يصدون عن سبيل الله، يصدون الناس عن الحق بتلبيس الحق عليهم، وإدخالهم في الباطل بأنواع الشُّبه، وأنواع التسفيه، وأنواع الخداع؛ حتى لا يُفطَنَ لهم، =

....

= وحتى لا يُعرَف باطلُهم، وحتى يلتبس على الناس أمرُهم في أكلهم أموالَ الناس بالباطل.

هذان الصنفان: الأحبار والرهبان، وهم الذين اتخذهم بنو إسرائيل أرباباً من دون الله، قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، فإياكم يا معشر أمة محمد أن تفعلوا مثلَ هؤلاء، وأن تصيروا إلى خُلُقهم الذميم الذي غضِب الله عليهم بسببه، وواعدهم النار، وساءت سمعتهم وساءت أخبارهم بسبب ذلك.

ثم يحذِّر أيضاً أهلَ السَّعَة والمال من أن يكونوا مثل هؤلاء الكنَّازين الذين كنزوا الأموال ولم ينفقوها في سبيل الله؛ وفي الجهاد، وفي طاعة الله ورسوله، ولم يخرجوا حقوقها، بل كنزوها لحاجاتهم ولشهواتهم، أو كنزوها بُخلاً وشُحّاً حتى لم ينتفعوا بها لا هم ولا غيرهم، بل حُرموا خيرها وصار عليهم وبالُها! فبعض الناس قد يكنز المال ولا ينتفع به، بل همُّه الحرص والجَشَع والجَمْع، ولكن لا ينتفع بذلك، فلا يأكل ولا يشرب إلا يسيراً، وربما كان =

....

= يأكل على حساب غيره، ويكنز المال ويحفظه حتى يكون لمن بعدَه، فيكون عليه إثمُه ويكون لمن بعده منفعتُه.

وكما أن هذا واقع فيمن قبلنا فهو واقع في هذه الأمة أيضاً، كما قال النبي ﷺ: «لتتّبعُنَّ سَنَن مَن قبلَكم، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو سلكوا جُحر ضبٍّ لسلكتموه»[1]. فكما أن في بني إسرائيل وغيرهم من الأحبار مَن لم ينفعه علمه، ولم يُظهر علمه للناس، بل كتمه، وأكل المال بالباطل، وصدَّ عن سبيل الله اتِّباعاً للهوى وإيثاراً للعاجلة، فهكذا في هذه الأمة مَن فعل ذلك من علماء السُّوء، وهكذا كان العبّاد الذين صدُّوا عن الحق، وأكلوا أموالَ الناس بالباطل، وتظاهروا بالعبادة وهم براءٌ منها، فكذلك هنا في هذه الأمة وقع ذلك.

وهكذا الكنّازون، كما كان فيمن قبلنا كنّازون لم ينتفعوا بأموالهم، ولم ينفعوا بها الناس، ولم ينفقوها في سبيل الله؛ فصار عليهم آثامُها، وصار لغيرهم نفعُها، فكذلك في هذه الأمة وقع ذلك. =

---

(١) أخرجه البخاري: أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦)، ومسلم: العلم (٢٦٦٩).

....

= فيجب الحذر من هذه الصفات الذميمة، ويجب على طالب العلم أن يُعنى بإظهار علمه والعمل به، والحذر من أن يكون هذا العلم سبباً لدخوله النار.

وهكذا العابدُ عليه أن يتقيَ الله، وأن يُخلص في عمله لله سبحانه وتعالى، وأن يكون داعيةَ خيرٍ بحسب ما أعطاه الله من علم وعبادة، وألا يكون سبباً وداعيةً إلى ضلالِ غيره وهلاكِ غيره، كما أهلك نفسه.

وهكذا صاحب المال، يشكر الله على ما أعطاه له من المال، وينفق في سبيل الله، في وجوه الخير، في الجهاد، في تعمير المساجد، في الإنفاق على الفقير والمسكين وابن السبيل إلى غير ذلك، وفي أداء الحقوق من زكاة وغيرها، حتى لا يكون هذا المال وَبالاً وشرّاً عليه، ولكي لا يدخل في هذا الوعيد العظيم: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥]. هذه الأموال جمعوها وحرصوا عليها، ثم صار عليهم وبالـها، فصاروا يعذَّبون بـها يوم القيامة، مِن كيٍّ فـي جباههم وجنوبهم وظهورهم ـ نسأل الله العافية. =

....

= ثم يقال لهم تقريعاً وتوبيخاً وتعذيباً: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾، يُخَاطَبون بهذا الخطاب الذي فيه تقريعُهم، وفيه توبيخُهم، وفيه زيادةُ عذابهم ونكالهم في هذا المال الذي كسبوه وجمعوه، وربما أن يكونوا كسبوه من طرق حرام أيضاً، فقد يجتمع على الإنسان أن يكسب المال من الطرق الحرام ولا ينفقه، فيكون عليه وبالاً، نعوذ بالله.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ وهي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم؛ هذه هي الشهور الأربعة، ثلاثة متوالية: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وواحد منفرد وهو رجب ما بين جمادى وشعبان.

وقد خطب النبيُّ ﷺ يوم حجة الوداع فقال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يومَ خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عَشَرَ شهراً، منها أربعة حرم...» الحديث[1]، فبين ﷺ أن الله جل وعلا =

(١) أخرجه البخاري: بدء الخلق (٣١٩٧)، ومسلم: القسامة والمحاربين (١٦٧٩).

....

= جعل عام حجةِ الوداع عاماً فيه اعتدالُ الأمور، ورجوعُ الشهور إلى حالها، وكانت قريش تغيِّر الشهور وتنسئ بعضَها وتعجّل بعضها على حسب أهوائها، فربما جعلوا المحرم صفراً، وجعلوا صفراً المحرم؛ لأهوائهم وقصدهم الإغارة على أحد، والتعدي على أحد، إلى غيرِ ذلك، فهم يلعبون في الشهور، فكانت سَنَةُ حجةِ الوداع ـ بحمد الله ـ سنةً استدار فيها الزمان، ووافق عدة الشهور عند الله عز وجل على حالها، ليس فيها تغيير، واستمر الأمر على ذلك على حاله، فذو القعدة هو ذو القعدة، وذو الحجة هو ذو الحجة، والمحرم هو المحرم، فالنسيء الذي فعلوه قد ذهب، واستدار الزمان في حجة الوداع وعاد كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض ورتبه سبحانه وتعالى.

وفيه التحذير من ظلم النفس في هذه الشهور، وأن الواجب على المسلم أن يحذر ظلم نفسه بالمعاصي والسيئات في جميع الشهور ـ وإن كانت في المحرم أشد من غيرها، وآكد من غيرها ـ لكنه منهي عن ظلم نفسه بالمعاصي والشرك في جميع الزمان في السنة كلها، عليه أن يحذر ما حرّم الله عليه، وأن يؤدي ما فرض الله عليه =

....

= في جميع الزمان، حتى يرضى ربه عز وجل. فالعبادة ليست خاصة بزمان دون زمان، بل في كل الأزمان، فالمسلم يتقي الله في جميع الزمان، ويؤدي فرائضَ الله في جميع الزمان، ويحذر محارمَ الله في جميع الزمان، والمعاصي ظلم للنفس، وأعظمُ الظلم: الشرك بالله والكفر به سبحانه وتعالى، ثم يلي ذلك ظلم البدع، وظلم المعاصي، فهي أيضاً من الظلم الشنيع الخبيث.

فعليك يا عبدَ الله أن تحذر الظلم كله، صغيرَه وكبيرَه في جميع الزمان، قال الله سبحانه: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] يعني: الموت؛ فالإنسان مأمور بالعبادة في جميع الأحوال حتى يلقى ربه، فالرسل هم أعلى الناس، وهم أعلى الطبقات، ثم يَليهِم جميع الناس، إذ عليهم أن يعبدوا الله وأن يؤدوا فرائضَه، وأن يَدَعوا محارمه في جميع الزمان؛ حتى يلقوا ربهم وهم على ذلك؛ هذا هو سبيل النجاة وطريق السعادة*.

---

* س: لماذا خاطب الله المؤمنين بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨]؟ =

....

= ج: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ يعني: مِلتم إلى الهدوء والدَّعَة وعدم الجهاد، وهذا وعيد شديد، يحذرهم من الكسل والتثاقل عن الجهاد، وأنه متى قيل لهم: انفروا، ينفروا فيسارعوا إلى الجهاد ولا يتقاعسوا.

كذلك حين أمرهم: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، المعنى: قاتلوهم جميعاً كما أنهم يقاتلونكم جميعاً لا تَقَاعَسوا، ولا يتأخر بعضُكم، بل متى أمر ولي الأمر بالنفير وجب النفير، والجهاد واجب على الجميع، كما أن أعداء الله يقاتلونا جميعاً ويجمعون جهودهم جميعاً ضدنا، فعلينا أن نقاتلهم جميعاً.

وهذه من الدلائل على وجوب الجهاد، وعلى قتال المشركين بدءاً ودفاعاً، كآية السيف المتقدمة في أول السورة، وهذا هو الذي استقرت عليه الشريعة أن المسلمين يجاهدون أعداء الله بدءاً ومقابلة ودفاعاً، لا دفاعاً فقط كما يظن بعض الغالطين من الناس، بل الشريعة جاءت بالجهاد بدءاً ودفاعاً هذا الذي استقر عليه الأمر، وكانت الشريعة قبل ذلك فيها الجهاد والدفاع فقط، مَن اعتزَلَنا اعتزَلْناه، فلما قوي أمر المسلمين وعظم سلطانهم أمرهم الله بما هو أعظم وأنفع لعباد الله وهو بدء المشركين بالقتال.

وأيُّ لومٍ على الإسلام في هذا، وأيُّ نقصٍ على الإسلام؟ بل هو شرف للإسلام وأهله، وهو دليل على حكمة الله العظيمة، وأنه أرحم =

....

= بعباده منهم بأنفسهم، كون المسلمين يجاهدون أعداء الله، حتى يخرجوهم من الظلمات إلى النور، وحتى يخرجوهم من أسباب الهلاك إلى أسباب السعادة، وحتى ينقذوهم من الجور والظلم إلى العدل والحق والهدى.

فهذا خير عظيم ورحمة من الله عظيمة، وشرف للإسلام، ومن المحاسن العظيمة أن يبدأ الجهاد، وأن يُغير عليهم المسلمون في بلادهم، وأن يهاجموهم في بلادهم، لا لأموالهم، ولا لذرياتهم، ولا لنسائهم، ولكن يهاجموهم ويبدؤوهم مع الدعوة إلى الله ومع التبليغ، يبدؤوهم ليخرجوهم من الظلمات إلى النور، لينقذوهم من الشر، ليبعدوهم عن ما هم فيه من الباطل والظلم والجور والعبادة لغير الله إلى عبادة الله وحده، وللعدل الذي في الإسلام، وللراحة والخُلُق الكريم في الإسلام.

س: بمناسبة ذكر الكنّازين، دلّت النصوص على وجوب الزكاة في كل مال بلغ النصاب وحال عليه الحول، فما الدليل في إخراج المُعَدِّ للإيجار من الزكاة؟ وأن الزكاة لا تجب إلا إذا حال الحول على المال؟

ج: الدليل هو أن الأصل في الأموال أنها مباحة للعباد أن ينتفعوا بها، وأن يتصرفوا فيها كما شرع الله، فجاءت الزكاة تخص شيئاً من المال يخرج لله عز وجل، فوجب التقيد بما جاءت به النصوص في الزكاة، فحدد الزكاة في أموال معينة كالحبوب والثمار والنقدين، وأخذنا، ثم جاءت أدلة تقتضي =

....

= إخراج ما يعد للبيع والتجارة فأخذنا بها، وبقي ما عدا ذلك على الحال الأولى أن المال لصاحبه، ينفقه فيما ينفعه، ولا يجب عليه أن يخرج إلا ما أَمَر الله بإخراجه من الزكوات، والإنفاق على الأولاد والأهل ونحو ذلك، ولهذا قال ﷺ: «ليس فيما دون خمس أواق صدقة، وليس فيما دون خمس ذود صدقة، وليس فيما دون خمس أوسق صدقة»[(١)]، فعلمنا أن هناك أشياء فيها صدقة وأشياء ليس فيها صدقة، فالشيء الذي فيه صدقة نخرجه، والشيء الذي ليس فيه صدقة لا نخرجه.

فالمال المُعدُّ للإجارة ليس مالاً مُعدّاً للبيع، وليس من عروض التجارة، وإنما أُعدَّ للتأجير، وليس داخلاً فيما يُعد للبيع، فلم تجب فيه الزكاة، لأن في حديث سمرة على ما فيه من الكلام فقال فيه: «كان يأمرنا أن نخرج الصدقة من الذي نُعِدُّ للبيع»[(٢)].

فدل ذلك على أن ما لا يعد للبيع ليس فيه شيء إذا كان ليس بنقد وليس من بهيمة الأنعام، وليس من الحبوب والثمار، فإن تلك فيها أنصباؤها وفيها زكاتها، ما بقي بعد ذلك على الأصل وهو الإباحة.

س:ما تجب فيه الزكاة يحتاج إلى مخصص واضح، وليس هناك شيء =

---

(١) أخرجه البخاري: الزكاة (١٤٠٥)، ومسلم: الزكاة (٩٧٩).

(٢) أخرجه أبو داود: الزكاة (١٥٦٢).

....

= واضح في الكتاب؟

ج: القرآن ليس فيه شيء مخصّص، كل ما جاء فيه أموال صدقة مطلقة، فجاءت السنة تفسر ذلك وتبين ما فيه زكاة وما ليس فيه زكاة، تبيّن زكاة الذهب والفضة وبهيمة الأنعام والحبوب والثمار فقط، ولم تأت في غير ذلك إلا ما أُعدَّ للتجارة، فلا تُخرَج الزكاة إلا بما جاء به النص يبين حكمه.

س: ابتُلي الناس في هذا الزمان بأن عندهم عقارات؟

ج: عساهم يُخرِجون الزكاة من المال الآخر ويكفي، وإذا أخرجوها من مالهم ونقودهم وما أُعِدَّ للتجارة، فيه خير عظيم عسى الله أن يتقبل ذلك.

س: الذين يقولون: إن السلف الصالح إنما فتحوا البلاد وأسلم أصحاب هذه البلاد بسبب أخلاقهم، ومعاملاتهم... إلخ، لا بسبب السيف، كيف هذا؟

ج: هذا هو الأغلب، وأنه بسبب الإسلام وعلو إيمان وأخلاق المسلمين وصفاتهم الحميدة، فقد هدى الله بهم من هدى، ولكن السيف يؤيد الإسلام ويعين المسلمين على دفع شر أعدائهم إذا عاندوا، ومن دخل في الإسلام بالدعوة إلى الله وبالقرآن فهذا هو المطلوب، كأهل المدينة وغيرهم ممن دخل في الإسلام، ومن أبى وعاند كالروم وفارس فإنهم قُتلوا، فقُتل الرؤساء لكن الرعايا دخلوا في الإسلام، ثم فتحت البلاد فرأوا =

....

= حسن الإسلام، ورأوا ما فيه من الخير العظيم، لا بالسيف ولكن بما شاهدوا من أخلاق أهله، فإنهم لو ائتلفوا على الجزية لم يُلزَموا، لكن تؤخذ الجزية ممن بقي على الكفر من قوم فارس. ولكن أكثرهم دخل في الإسلام؛ لِمَا رأى من خير الإسلام وأخلاق الإسلام والخير العظيم والأخلاق العظيمة والعاقبة الحميدة، وإن كان الرؤساء أَبَوا إلا بالسيف، فالرؤساء قد يمنعهم حب الرياسة وحب الظهور حتى لا يستجيبوا، لكن متى فتحت البلاد ونشر فيهم العدل ورأوا أخلاق المسلمين وسمعوا كلام الله دخلوا في دين الله.

س: إذا كان عَلَيّ دين عشرون ألفاً مثلاً، ثم أخذتُ أجمعُها، فحال عليها الحول عندي، هل أزكي عنها؟

ج: نعم زكِّ، ولو أنها معدة للزواج أو لقضاء الدَّيْن أو لأشباه ذلك، فتزكي عنها إذا حال عليها الحول.

س: أزكيها أنا المدين ثم يزكيها الدائن مرة ثانية؟

ج: زكِّ المال الذي عندك، وزكّ الديون التي عليك، وإذا كنت من المعسرين، فالصحيح أنه لا زكاة فيها.

س: زكاة بهيمة الأنعام تُخرج زكاتها منها أم نقوداً؟

ج: الأصل أن تخرج منها، لكن ذهب جمع من أهل العلم أنه إذا رأى =

....

= ولي الأمر أن تُخرج نقوداً فلا بأس؛ لأنها تصلح للفقراء، وأثبت للحق، وأقل للخيانة والكذب، فلا بأس. ويحتجون على هذا بحجج منها: أن الرسول ﷺ أجاز أخذ عشرين درهماً عن جبر النصاب، إذا كانت الزكاة فيها جبر، مثل من يجب عليه جَذَعة وليس عنده جَذَعة، يأخذ حِقَّة ويعطينا حِقة، وهكذا العكس عنده حِقة، ولكن لا يعطي حِقة، وعنده جذعة يسلم الجذعة ويُعطَى جُبراناً وأشياء أخرى.

والخلاصة في هذا أن المرجع في هذا المصلحة؛ فمرجع الزكاة مصلحة الفقراء ومواساتهم وما أشبه ذلك؛ فإذا رأى ولي الأمر أن تؤخذ الزكاة نقداً لا عيناً لمصلحة الفقراء، أو لأن أخذ العين قد يفضي إلى موتها لأن البلاد جدب وقحط، فلو أخذها لهلكت أو بيعت بأبخس الأثمان، ولو رأى أن بقاءها عند أهلها أصلح لأمر الفقراء؛ فالحاصل أنه يدور مع المصلحة الشرعية.

سورة الكهف

[مثل الحياة الدنيا]

۞ قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ

يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ
أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا
كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا
﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ
وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ
نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾
وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ
زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ
صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا
يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ
إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ
أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾
۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا
كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ

ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف: ٣٢-٥٩]. [٣٧]

[شرح٣٧] في هذه الآيات الكريمات تذكيرٌ من رَبِّنا عز وجل لعِبادِه لحال الدُّنيا وحَقارتِها وزَوالِها وانتِهاءِ أَمرِها، وأنَّ هناك بَعدَها أمراً =

....

= عظيماً، وهو أمرُ العَرْضِ على الله عز وجل، ومجُازاةِ العباد بأعمالهم خَيرِها وشَرِّها، ثُمَّ مَصيرهم إلى دار الهَوانِ أو للنَّعيم والسُّرور والحَبْرَة.

ويُذكِّر أيضاً بعد ذلك بالشَّيطان وحالِه، وعَداوتِه وذُرِّيَّتِه لبَني آدمَ، تحذيراً من طاعته وحَثّاً على عِصيانِه ومُخالفتِه.

ويُذكِّر بحال العباد، وما يجب عليهم عند مَجيء الرُّسل من الطاعة والاستقامة والامتثالِ لهم.

ويحذر أيضاً من الإعراض عن ذِكْر الله عندما يُذَكَّر ويُوعَظ وينبَّه، وأنَّ الواجبَ على العبد في مثل هذه الحال الاستجابة والمبادرة إلى طاعة الله ورسوله، وأنه لا أَظلَمَ مِمَّن ذُكِّرَ بآيات ربِّه فأَعرَضَ عن ذلك ونَسِيَ ما قَدَّمتْ يَداه من الشَّرِّ والفسادِ، فليس هناك أَظلَمُ من هذا الصِّنف من النّاس، الذين يُذكَّرون بآيات الله وحُجَجِه وبيِّناته، ويذكَّرون بحقِّه عليهم، ويذكَّرون بنِعَمه سبحانه وتعالى، ثم يُعرِضون عن ذلك ولا يُبالون ولا يَنتبهون، ويَنسَون ما قدّموا من أعمالٍ سيِّئةٍ وقضايا خطيرةٍ، ويَرتعون كما تَرتعُ الأنعام، =

....

= ولا يُبالون بما وَراءَ ذلك.

ثم يقول جل وعلا: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾، فربُّنا عز وجل يضرب الأمثالَ للنّاس لِيَعُوا ويتذكَّروا، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، هذا شأْنُ الدُّنيا، مَثَلُها كمَثَل هذا النَّبات الذي بعد نزول المطر يخرجُ ويَنمو ويخضرُّ، ويُعجِبُ النّاظرين، ثم بعد مدَّةٍ يسيرة تمرُّ عليه الرياح فيَيْبَسُ ويتكسَّر، ويضمحلُّ وينتهي.

هذه الدنيا شأْنُها يَظهر عند الناس وبينَهم، بينما الإنسانُ فيها في نعمة وحَبْرَةٍ وسُرور وفي عز وغير ذلك من أنواع النِّعم، فإذا أصابته مصيبةٌ ونزلت به كارثةٌ؛ فتغيَّرت الأحوالُ وصار إلى حالٍ أخرى لا تُشبه الحالَ الأولى، فأصبح في ذُلّ وهوانٍ وفقر وحاجة، أو تَنزل به مُصيبةُ الموت، فيُرفَع من هذا النَّعيم ويَزول عنه إلى ما قدّم من أعمال سيِّئة، ومصائبَ عظيمةٍ وسيِّئاتٍ كثيرةٍ، يَبوءُ بسببها =

....

= بغضب الله عز وجل وعظيم عقابه؛ نسأل اللهَ العافيةَ والسلامةَ.

فالمقصود أنَّ هذه الدّار لا يغترُّ بها إلا مغرورٌ، فليستْ دارَ نعيمٍ ولا دارَ إقامةٍ أو دارَ خُلْدٍ، ولكنها دارُ ابتلاءٍ وامتحان، ودار أَكدارٍ وأحزانٍ، ودار عملٍ وإعداد للآخرة لمن عَقَلَ. فينبغي للمؤمن وللعاقل أن لا يغترَّ بها، وأن لا يصيَر فيها كحال الأَكثرين الذين ﴿يَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢]، فيجبُ على العاقل أن يَنتبه، وأن يعلم أن هذه الدّار برزخٌ وليست دار إقامة، ولكنها دارٌ خُلقت لغيرها لا للبقاء ولكن للفَناء، خُلقت ليعمل سكانها ما ينبغي أن يعملوا، ويُعِدُّوا ما ينبغي أن يُعِدُّوا، وليست داراً للإقامة، وليست داراً للخُلد، أو داراً يتنعَّم فيها أهلُها بدون مُنغِّصات، بل هي دار فيها الأَكْدار والأحزان، ثم بعد ذلك الزَّوال والاضمِحلال، وانتقال أهلِها منها إلى غيرها.

ثم يُبيّن سبحانه وتعالى أنَّ المال والبنين زينة هذه الحياة ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦]، فلا ينبغي للعاقل أن يَغترَّ بالمال، ولو بلغ ما بلغ من أنواع النَّعيم والرّفعة =

....

= والخدم والقُصور وغير ذلك، فهو زائل. وهكذا البَنون وإن أعجَبوه وإن حَمَوه وإن سَعَوا في مصالحه، فمَصيرُهم إلى الموت والزوال، وقد يكونون بعد ذلك أعداءً في آخر أمرهم، فقد يؤذونه ويضرونه ويسعون في أسباب هلاكه، فلا ينبغي أن يَغترَّ بالبنين وإن كانوا زينةً في الدُّنيا، لأنهم قد يكونون بعد ذلك شرّاً عليه ووَبالاً ونكداً، ولا سيَّما في آخر الدُّنيا ـ وفي مثل هذا العصر ـ عند غُربة الإسلام وقلَّة العلم، وغَلَبة الشَّهوات والهوى.

ولهذا قال بعده: ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ فـ«الباقيات الصّالحات»: ما يُقدَّم من أعمال صالحة، من طاعة الله ورسوله، ومن أذكارٍ وصلواتٍ وصيامٍ وجهادٍ وأمرٍ بمعروف ونهي عن منكر وغير ذلك، ومن هذا التسبيح والتهليل كما في الحديث عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «استكثروا من الباقيات الصالحات» قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «التكبير، والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[١]، أي: هذه الأذكار وأشباهها من الباقيات الصالحات، =

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٧٥)، وابن حبان (٨٤٠).

....

= والباقيات الصالحات أشملُ وأعمُّ، نسأل الله التوفيق، ولا حول ولا قوَّة إلّا بالله*.

---

* س: كيف نجمع بين قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧- ٨] وبين قوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]؟

ج: لا مُنافاةَ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، نعم، فهو سبحانه وتعالى يرى حسناتِه وما حصل بها من الخير العظيم، ومَحْوِ السيئات وما ترتَّبَ عليها من الأُجور المضاعَفة، فهذا يَرى حسناتِه بعَشر، وهذا يرى حسناتة بمئة ضعفٍ، وهذا يرى حسناته بآلاف الحسنات قد ضُعِّفت، وهذا يرى سيِّئاته باقية، وهذا يرى سيِّئاته مُحِيَتْ، وهذا يرى سيِّئاته قد بُدِّل بكلِّ سيئةٍ حسنةً؛ بسبب توبته الصّادقة وعملِه الصالح، فلا مُنافاةَ، فهو سبحانه يَرى هذا وهذا ويَرى ما يترتَّب على الجميع.

س: القول القائل: إن إبليس كان اسمه عبد الرحمن، وأنه كان من الملائكة. ما مدى صحة هذا القول؟

ج: الله أَعلم جلَّ وعلا فربُّنا أَخبر أنه من الجنِّ، وللعلماء في هذا قولان:

أحدهما: أن الجنَّ طائفة من الملائكة يقال لهم: الجنُّ؛ لاستخفائهم =

....

= وعدم ظهورهم، وأنهم كانوا من جنس الملائكة، ولكن لهم حالة أخرى في الصفة، ثم خرج عن حال الملائكة، وفسق عن أمر الملائكة، وخرج عن طاعة الله وعصى، وتكبّر على آدم ولم يسجد، فطرده الله ولعنه وأبعده.

والقول الثاني: أن الجنَّ غير الملائكة، أي: من جنس آخر وعنصر آخر خُلق من النار، كما قال جل وعلا: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]، وهذا هو الأقرب والأظهر، فإن المخلوقات من الملائكة الإنس والجن أقسامٌ ثلاثة: قسم خُلق من النُّور: وهم الملائكة. وقسم: خُلق من النّار: وهم الجنُّ، وأبوهم ورأسُهم الشَّيطان. وقسم: خُلق من طين: وهم الإنس، ورأسُهم وأبوهم آدم عليه الصلاة والسلام.

فالشيطانُ وذريتُه الذين تمرَّدوا وعَتَوا عن أمر الله وهم أعداؤنا، ومَن صلح منهم وأطاع ربَّه ولم يتَشيطَن مثل أبيه، فهو من إخواننا في الله عز وجل، ولهذا قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾ [الجن: ١١]، فالمقصود أن الجنَّ فيهم الصالح وفيهم الطالح، فيهم المبتدع وفيهم السنّي، وفيهم الكافر وفيهم الفاسق. والشياطينُ من الجن هم الأعداء، أي: خرجوا عن طورهم وما يجب عليهم، حتى صاروا أعداء لعباد الله، وصاروا شراً على عباد الله، وما من إنسان إلا معه ملك ومعه شيطان، قرينه من الملائكة وقَرينه من الشياطين. =

....

= س: هل يعني ذلك أن الجن أصلهم وأبوهم هو إبليس؟

ج: هذا المشهور عند جمع من أهل العلم، أن إبليس هو رأسهم وأبوهم، كما أن آدم هو أبو الإنس، وهو اختيار أبي العبّاس ابنِ تيميَّة، وابنِ القيم وجماعة.

س: في مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] أن الملائكة سجدوا لآدم، وكان إبليس من الساجدين، إلا أنه رفع رأسه من بينهم؛ فقرأَ هذه الآيةَ، فوجد الكتابَ قد سَبقَ عليه؟

ج: هذا كلام باطل ليس له أصلٌ، وهو مُكذِّب للقرآن، فربُّنا ـ جلَّ وعلا ـ قال: ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، أَبى السُّجودَ ولم يسجد، وقال أيضاً: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، فلو سَجدَ مع الملائكة ما قيلَ له هذا الكلام.

سورة مريم

[قصة إبراهيم مع أبيه]

۞ قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن

جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ [مريم: ٤١- ٦٥]. [٣٨]

[شرح٣٨] في هذه الآيات ذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام =

....

= مع أبيه، وقصة موسى وهارون وإسماعيل وإدريس، والثناء على الجميع بالخير العظيم، وأنهم من العُبّاد والبكّائين من خشية الله جلّ وعلا، وذكر من خَلَفَ بعدهم من الخُلوف التي أضاعت أمر الله، وركبت محارم الله سبحانه وتعالى، ثم ذِكر من تاب من أعماله السيئة وأناب إلى ربه، وأن الله جل وعلا قد وعده الجنة والكرامة والعاقبة الحميدة.

يقول جل وعلا: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ فإبراهيمُ عليه الصلاة والسلام كان صدِّيقاً مع النبوة، والصِّدِّيق: هو الذي بلغ في الصِّدِّيقية إلى النهاية، وتصديق أخباره عز وجل، وتصديق من مضى من رسله عليهم الصلاة والسلام، فكان ـ مع رسالته ونبوته وخُلَّته ـ صدِّيقاً أيضاً، فهو رسول، ونبي، وصدِّيق، وخليل الرحمن عليه الصلاة والسلام، وهو أفضل الأنبياء وأكملهم بعد نبينا محمد ﷺ.

ثم ذَكر قصته مع أبيه قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ هذا فيه أن الله جل وعلا يسمع ويبصر، =

....

= وأن الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ليست أهلاً لأن تُعبد من دون الله، وفي هذا رد على الجهمية والمعتزلة وأشباههم ممن أنكر صفات السمع والبصر، فالله جل وعلا موصوف بالسمع والبصر، فهو سميع بصير جل وعلا.

ولهذا بين سبحانه وتعالى على لسان نبيه إبراهيم وخليله، بطلان عبادة غير الله، وأن هذه الأصنام التي تعبدها يا آزرُ ليست صالحة لذلك؛ لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تغني شيئاً عن عابديها، بخلاف الرب عز وجل، فإنه يسمع ويبصر، يسمع دعاء الداعين، ويبصر أحوالهم، وهو قادر على كل شيء سبحانه وتعالى، وهو الذي يصلح للعبادة؛ لغناه وقدرته العظيمة، وعلمِه بأحوال عباده، وسمعِه وبصره وسائرِ صفاته جل وعلا.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾ يبين أنه عليه الصلاة والسلام كان عنده من العلوم التي جاءته عن الله عز وجل ما ليس عند أبيه، وأن الواجب على الجاهل أن يتبع العالم وأن يستفيد من علم العالم، فهذا نبي الله تأتيه العلوم من ربه عز وجل =

....

= فالواجب على أبيه آزر، وعلى غيره من أُمته أن يتبعوه وينقادوا له؛ لأنه عنده من العلم والهدى والبصيرة ما ليس عندهم، ولهذا قال: ﴿ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾، يعني: أرشدك إلى صراط واضح سوي ليس فيه اعوجاج ولا خفاء، وهو صراط مستقيم، وهو عبادة الله وحده، وطاعةُ أوامره وتركُ نواهيه، والوقوف عند حدوده، هذا هو صراط الله المستقيم في حق كل نبي من عهد آدم إلى آخر الدهر.

وصراط الله المستقيم: هو الإخلاص لله واتِّباع ما جاءت به الأنبياء في كل زمان ومكان، وآخرُ الأنبياء وخاتمهم هو نبينا محمد ﷺ. وصراط الله المستقيم بعد بعثة محمد ﷺ: هو الإيمان بما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام، واتِّباعه والاستقامة عليه، وهذا هو الصراط المستقيم المذكور في قوله عز وجل: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦- ٧].

﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴾ =

....

= يبين له أن الواجب عليه: عبادةُ الله وحده، والحذر من عبادة عدو الله ـ الشيطان ـ، بطاعة أوامره وركوب ما نهت عنه الرسل عليهم الصلاة والسلام، فعبادة الشيطان مصير أهلها النار، وعبادة الله مصير أهلها الجنة والكرامة، فإبراهيم يحذِّر أباه من طاعة الشيطان في عصيان الرسل، وعدم طاعة ابنه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والرضا بعبادة الأصنام والأوثان، وأن هذه هي عبادة الشيطان، فالذي يدعو إلى عبادة غير الله، ويدعو إلى الشرك بالله هو عدو الله وعدو أوليائه.

﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَـٰنِ وَلِيّٗا﴾ فإنَّ من خذله الله وأبعده عن طاعته وعن ولايته صار وليّاً للشيطان ـ نعوذ بالله ـ فإن هناك ولايتان، إما ولاية الله بطاعته واتِّباع ما جاء به أولياؤه، وإما ولاية الشيطان بعصيان الرسل وطاعة الشيطان نعوذ بالله، وفي هذا الحث والتحريض على طاعة الله ورسوله، والحذر مما نهى الله عنه ورسولُه.

ثم ذَكر امتناع أبيه ـ آزر ـ وعدم إجابته للحق، وأمْرَه لابنه أن =

....

= يهجره، وأن يتركه وما عليه، واستنكاره عليه رغبته عن آلهته، وكل هذا يبين لنا ما جرى بين إبراهيم وبين أبيه من النزاع والخصومة في طاعة الله وتوحيده، وأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد أبلغ في البيان لأبيه ولقومه، ولكن الهداية بيد الله جل وعلا ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وهكذا موسى وهارون أبلَغا وبَيَّنا، وهكذا إسماعيل، وهكذا إدريس، وهكذا الأنبياء كلهم، كلهم بلَّغوا رسالاتِ الله، وكلهم بلّغوا أمر الله ونهيه، وبلّغوا ما بعثهم به من الحق والهدى، فمن الناس من آمن ـ وهم القليل ـ، ومن الناس من كفر ـ وهم الأكثرون ـ، فأكثر الخلق عصَوا الرسل وخالفوا ما جاؤوا به عليهم الصلاة والسلام.

حتى إن بعض الرسل يأتي يوم القيامة وليس معه أحد، لأنه ما أجابه أحد، بل يأتي يومَ القيامة وقد قتله قومه، كما جاء في الحديث الصحيح عن ابن عباس[1] وغيره، فهذا يوجب للإنسان =

(١) أخرجه البخاري: الطب (٥٧٠٥)، ومسلم: الإيمان (٢٢٠).

....

= الحذر من طاعة الشيطان والهوى، وأن الإنسان على خطر في هذه الحياة إن لم يوفق من قِبَل الله عز وجل؛ فالذي ابتُلي به الأكثرون من اتِّباع الهوى وعصيان الرسل هو داء الأولين وداء الآخِرينَ، فيجب عليك أن تَحذرَه لئلّا يُصيبَك ما أصاب أولئك، وعليك أن تسأل ربَّك دائماً أن يَهديك صراطَه المستقيم، وأن يُعيذك من طاعة الشيطان والهوى، وأن يَعصِمَك من اتِّباع الهوى، وطاعة الشيطان، وعدم الانقياد لأَمر الله ورسوله؛ فأنت على خطر ما دمت على قيد الحياة.

ويبيِّن بعد هذا سبحانه وتعالى أنه خَلَفَ بعد الرُّسل واتِّباعهم خَلْفٌ؛ والخَلْف بالتَّسكين هو خَلْفُ السّوء، أي: جاء بعدهم أُناس منحرفون عن الهدى، قد أطاعوا الشيطانَ، وضيَّعوا الصلواتِ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ في هذا الحذرُ: من طريقة الخلوفِ، والدَّعوةُ إلى اتِّباع الرُّسل، والاستقامةِ على ما جاؤوا به من الهدى، وأنَّ في طاعة الرُّسل النَّجاةَ والسَّعادةَ والعاقبة الحميدة، كما أنَّ في طاعة الخلوفِ =

....

= واتِّباعهم الهلاكَ والعذابَ والعاقبةَ الوخيمةَ، نَعوذُ بالله. ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ فُسِّر الغَيُّ بأنَّه الخَسارُ والدَّمارُ، وفُسِّر بأنَّه وادٍ في جهنم، خبيثٌ طعمُه، بعيدٌ قَعرُه.

فالحاصل أنَّ مَن تابع الشَّهواتِ وضيَّع الصَّلواتِ فقد أضاع الدِّينَ، فالصلاةُ هي عمود الإسلام، فعبَّرَ بإضاعة الصلوات واتِّباع الشهواتِ بأنَّهم قد تَركوا الحقَّ وانحرَفوا عنه إلى طاعة الشَّيطانِ والهوى.

ثم بيَّن لهم بعد ذلك أنَّ لهم طريقاً للخلاص، ولهم سبيلاً للنَّجاة، وذلك بالتوبة إلى الله عز وجل، فمَن تاب إلى الله وأناب إليه نجا وسَلِمَ ممّا توعَّد اللهُ به الذين ضيَّعوا الصلوات واتَّبعوا الشهوات، فقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٦٠] هذا فيه تبشير للمسلم بأنَّه على طريق نجاة؛ إذا تاب إلى الله وأناب، وإنَّ الأبواب مفتوحة له، فما دام على قَيدِ الحياة فليُبادرْ بالتوبة، وليُسارعْ إليها، وإن فَعلَ =

....

= ما فَعلَ من الشُّرورِ والمعاصي والبلايا والمِحَنِ.

فالله عز وجل فتح باب التوبة، فليُبادرْ وليُسارعْ بالتوبة إلى اللهِ، والإنابة إليه بتَركِ الذُّنوب والمعاصي والكفرِ بالله عز وجل، والنَّدمِ على ما مضى منها، والعَزمِ الصّادق على أن لا يعود فيها، وبهذا يَقبل الله توبتَه، ويُنجزُه ما وَعدَه، ويُحسنُ له العاقبة. ثُمَّ عليه بعد ذلك أن يُتبع التوبة بالإيمان الصادق، وبالعمل الصالح ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ أي: يتوبُ عمّا مضى من الذُّنوبِ، ثم يُتبِعُ التوبةَ بالاستقامة على أَمر الله، والسَّيرِ على طريقه، والحَذرِ مما نهى الله عنه ورسولُه، وهذا هو الدليل على صحة التوبةِ وسلامتها، حين تاب وأَتبعَ التوبةَ بالإيمان والعملِ الصالح؛ فله الجنةُ والكرامة والعاقبة الحميدة، وهذا يوجب للإنسان أمرين:

الأول: أن يحاسب نفسَه وأن ينظر ما قدم، حتى يبادر بالإصلاح والتوبة.

الثاني: البِدارُ بالتوبة، قبل أن يحلَّ به من أَمر الله ما لا قِبَلَ له =

....

= به، فإنَّ الأجل لا يدري الإنسان متى يَهجمُ عليه.

فالواجب أن يبادِرَ بالتوبة والإصلاح قَبلَ أن يُحال بينه وبين ذلك، فالإنسان خطّاءٌ، وهو مَحلُّ الذُّنوب، فالواجب أن يحاسِبَ نفسه، وأن يجاهدَها لله، ويبادرَ بالتوبة قَبلَ أن يحالَ بينه وبين ذلك، ولا حول ولا قوة إلّا بالله*.

---

* س: هل صحَّت سَجَدات التِّلاوةِ كلُّها التي في القرآن؟

ج: سَجَدات القرآن المتَّفَق عليها عشرة، والمختلَف فيها خمسة، والصَّوابُ أنَّ فيها السُّجودُ، فهنَّ خمس عشرة سجدة معروفة، وخُصَّ منها ثلاثة في النَّجم والانشقاق واللَّيل، والاثنا عشر الباقون في باقي السور، والصواب أنها باقية وأنها غير منسوخة، فكان النبيُّ ﷺ يقرأُ القرآن على أصحابه في بعض مجالسهم، فإذا مَرَّ بالسجدة كَبَّرَ وسجد وسجدوا معه ﷺ، حتّى قد لا يجد الإنسان مكاناً لجبهته من شِدَّةِ الزِّحام في بعض الأماكن، لكن هذه السُّنة أنه إذا مَرَّ بآية سجدةٍ يَسجُدُ، ويسجد معه مَن حضرَ، ويكونُ القارئ هو الإمام إذا كان صالحاً لذلك.

س: وما مكان المأمومين من الإمام في سجود التلاوة؟

ج: الأفضل والأَولى أن يكونوا خلفه كهيئة الصلاة، لكنَّ ظاهر =

....

= النُّصوص التي جاءت عن النبيِّ ﷺ ليس فيها دعوة لهذا الشيء؛ لكنَّا نأخذه من جهة شروط الصلاة وشروط سجود السَّهو وسجود الشُّكر، فإذا فعلوها على وجه الصلاة كان أَوْلى، وهو قول جمهور أهل العلم.

س: هل ورد التكبير في الرفع منها؟

ج: لم يَرِد، إنَّما ورد في السُّجود.

س: أَوَرَدَ في السُّجودِ؟

ج: نعم، ورد في السُّجود خاصَّةً، في حديثٍ رواه أبو داود، والحاكم بسندٍ جيدٍ[1]، وإن كان في سنده لِين، لكنَّ رواية الحاكم من حديث عبد الله ابن عمر لا بأس بها، وجاء من طريق عبد الله العُمَريِّ عند أبي داود وطريق أخيه عُبيدِ الله عند الحاكم، وعبد الله فيه ضعفٌ، أما عُبيدُ الله فثقة.

س: هل هو من طريق المُكبَّر عبد الله؟

ج:عند أبي داود من طريق المكبَّرِ، وعند الحاكم من طريق المُصغَّر، هكذا يكون من الطريقين.

س: وهل ورد التكبير في الرَّفع؟

ج: لم يرد فيه شيء، إلا إذا كان في الصلاة فيُكبر عند كل خَفضٍ ورفع، فإذا كان في الصلاة فالأفضل والأولى أن يكبر عند السجود وعند =

---

(١) أبو داود: الصلاة (١٤١٣) بذكر التكبير، والحاكم (١/ ٢٢٢) بدونه.

....

= الرفع؛ لأن الرسول ﷺ كان يكبر في الصلاة عند كل خفض ورفع، من حديث أبي هريرة[١]، وفي سجوده عليه الصلاة والسلام، وسجود التلاوة من جملة سجود الصلاة.

س: في التكبير عند الرفع من الركوع، هل يرفع يديه إلى السماء؟

ج: مثل السجود، حذاء منكبيه أو حذاء أذنيه، فعند الرفع من الركوع مثل الركوع.

س: وهل وَرَدَ أنه عليه الصلاة والسلام كان يكبر خارج الصلاة؟

ج: هذا لم يرد إلا في السجود خارج الصلاة، أما في داخل الصلاة فالأولى أن يكبر عند الرفع والخفض؛ عملاً بالأحاديث الصحيحة المستفيضة أنه ﷺ كان إذا سجد كبر وإذا رفع كبر، فالسجود هذا داخل في جملة سجود الصلاة، فلما سجد فيها كان من جملة سجداتها.

س: وإذا كان خارج الصلاة؛ من حيث استقبال القبلة؟

ج: هو الأوْلى، لكنه ليس شرطاً، ولكن إذا فعلوها على هيئة الصلاة كان أَولى إذا تيسَّر؛ لأن جمهور أهل العلم على هيئة الصلاة، فالأولى أن يكون كالصلاة، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يستقبل القبلة في سجوده.

س: أيكون على طهارة، في السجود خارج الصلاة؟ =

---

(١) أخرجه البخاري: الأذان (٧٨٥)، ومسلم: الصلاة (٣٩٢).

....

= ج: نعم، إذا تَيسَّر سجد على طهارة، ولكنه ليس بشرط، فالجمهور يشترط الطهارة، ولكن الصحيح أنه لا يُشتَرط الطهارة، فيُروى عن ابن عُمر رضي الله عنه، وعن الشَّعبي ـ التابعي الجليل رحمه الله ـ عدم الاشتراط، وهو أَولى لعدم الدليل، فهي من جنس الذِّكر كأنواع الذِّكر وقراءة القرآن، ولا يشترط لها الطهارة.

س: أتعتبر صلاةً؟

ج: لا تعتبر صلاة، بل من باب الذِّكر والخضوع لله والعبادة.

سورة الحجرات

[من أدب الحديث مع الرسول ﷺ]

۞ قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ١-١٠]. [٤٤]

[شرح٤٤] في هذه السورة العظيمة فوائد وأحكام جليلة، المسلمون في أشد الحاجة إلى تفهمها وتعقُّلها والاستفادة منها، ففي أولها: التحذير من التقدم على الله ورسوله، وأن الواجب على أهل الإيمان أن يكونوا متّبعين لا مبتدعين ولا متقدمين على الله ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، قال أهل العلم في ذلك: لا تقولوا حتى يأمر الله ورسوله، ولا تفعلوا حتى يفعل الرسول عليه الصلاة والسلام ويشرع؛ فلا تتقدموا عليه بقول ولا بفعل، وكونوا متّبعين لما يرسمه لكم وما يوضحه لكم من التشريع، وهكذا يكون أهل الإيمان لا يخترعون من عند أنفسهم عباداتٍ وأحكاماً لا أساس لها في شريعة الله. =

....

= ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم ـ جل وعلا ـ لا تخفى عليه خافية، يسمع أقوال العباد ويعلم أحوالهم؛ فيعلم ما قالوا بالحق وغيره، ويعلم ما فعلوا وقالوا بالحق وغيره، فالمعنى: راقبوه ـ سبحانه ـ واحذروه؛ فإنه لا تخفى عليه خافية، ويسمع ويعلم بأحوالكم؛ فيجب عليكم أن تكونوا متبعين لا مبتدعين في شريعة الله عز وجل.

ثم يبين سبحانه وتعالى أن الواجبَ عليهم التأدب معه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وألا يرفعوا أصواتهم فوق صوته، ولا يجهروا كجهر بعضهم لبعض؛ بل يتأدبون معه ويكونون خافضي الصوت، يخاطبونه مخاطبة الإجلال والاحترام والتعظيم، لا مخاطبة النِّد بالند أو فوق ذلك، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ لئلا تحبط أعمالكم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، فرفعُ الصوت والجهر له بالقول كجهر بعضنا لبعض، قد يترتب عليه ما لا تُحمَد عقباه من حبوط العمل، والإنسان لا =

....

= يشعر بذلك، وذلك يدل على وجوب التأدب معه عليه الصلاة والسلام على حضوره ووجوده ومكالمته ومخاطبته، ويؤخذ من ذلك: التأدب مع السُّنة بعد وفاته ﷺ ـ وفي حياته أيضاً ـ ويكون الإنسان تابعاً لها لا متقدماً عليها، ولا يجوز له أن يُحكِّم آراءَه ويُحكِّم اجتهاداتِه المخالفة لشرع الله اعتقاداً منه أن ذلك أولى وأحق مما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فيحبَطَ عملُه، ويَضل عن الدين، ويخرج عن دائرة الإسلام بأسباب ما أحدثه من الردة، نسأل الله السلامة.

ثم يبين سوءَ أدب من نادى الرسول من وراء الحُجرات، وكان ذلك من بعض جُفاة الأعراب، كانوا ينادونه: يا محمد، يا محمد، فبيّن الله لهم أن هذا خلاف الذي ينبغي منهم؛ بل ينبغي الصبر حتى يخرج إليهم ﷺ؛ ولهذا قال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

بيَّن جل وعلا أن الواجب على الرعية وعلى الأمة التأدب معه عليه الصلاة والسلام وأن يصبروا، وألا يُخرجوه عليه الصلاة =

....

= والسلام؛ بل ينبغي الصبر حتى يخرج إليهم؛ لأن خروجه معروف وعاداتهم معروفة في هذا، فعلى ذوي الحاجة الصبر من غير سوء أدب؛ بل يصبر ويحتسب ويبقى، أو يذهب ويرجع حتى يأخذ حاجته، أما أن يؤذيه بكلام فلا يجوز، والنبي ﷺ في حجرته، وقد يكون مشغولاً، وقد يكون مستريحاً، إلى غير ذلك، فلا يليق من المؤمن مثل هذا الفعل، ولهذا وصف أكثرهم بأنهم لا يعقلون؛ لأن الغالب على جفاة الأعراب وعلى سكان البادية عدم التبصر بهذه الأمور وعدم النظر لها؛ بل من عادتهم التكلف وإلقاء الأمور على غير حكمة ونظر بسبب قلة العلم وقلة البصيرة.

ثم يبين جل وعلا أن الواجب عدم أخذ أقوال الناس دون النظر ودون التثبت، ولاسيما إذا جاء خبر من طريق الفُسّاق؛ فإن الفاسق لا يُؤْمَن، فإذا كان فاسقاً فِسقاً أصغر لا يُؤمَن أنه سَلِم من أن يُفتن بفسق أكبر، والمقصود أن من عُرف بفسقٍ فالواجب التثبت من خبره، والمجهولُ كذلك؛ لأنه قد يكون فاسقاً وأنت لا تشعر، ومن هذا أخَذَ أئمة الحديث الجرحَ بالجهل، وأن المجهول =

....

= من الرواة مجروح لا تقوم به الحجة؛ لأنه قد يكون فاسقاً، فهذا لا يصدَّق خبرُه حتى تثبت عدالته، فقوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ يعني: فتثبتوا، فالتثبت: النظر في الأمر والعناية حتى يظهر ما يدل على صدقه أو كذبه، ولا يقال: يُردُّ خبره؛ لأن الفاسق قد يصدق وقد يكون خبره صحيحاً، فلا تعجلوا في قبوله ولا في رده؛ بل تثبتوا حتى توجد دلائل تدل على صدق هذا الخبر أو على كذبه؛ فإن قامت الدلائل على صدقه أُخِذ به، وإن قامت الدلائل على كذبه رُدَّ على قائله.

وكذلك خبر الكافر، فإن وُجدت دلائل تدل على صدقه أُخِذ بخبره بالدلائل على صدقه، لا أنها من رواية الكافر والفاسق والمجهول.

﴿وَاعْلَمُوٓا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ فلو أن الشريعة جاءت بأهواء الناس لأصابهم العَنَتُ والمشقة والبلاء ما لا يحصيه إلا الله عز وجل، ولكنه ـ سبحانه ـ هو أحكم وأعلم، فهو يَشرَعُ لنبيه ﷺ ما هو خير للمسلمين وما =

....

= هو خير للعباد والمصلحة وإن خالف بعض أهوائهم، وكما قال الله عز وجل: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، فالحق ليس بأهواء الناس؛ فقد يوافق الحقُّ هوى زيدٍ ولكنه يخالف هوى عمرو، واللهُ أعلم بما هو فيه صلاح العباد، وأعلم سبحانه وتعالى بما فيه نجاتهم؛ فلهذا جاءت الشريعة بأشياء قد تخالف هوى بعض الناس، فلا عبرة بأهواء الناس؛ وإنما العبرة بما شرعه الله ورسوله، والرسول مبلِّغ عن الله عز وجل وهو المعلِّم، ولو أن الرسول ﷺ تابَعَ أهواءهم لعَنَتوا ووقعوا في الحرج والمشقة؛ لأنهم قد يقولون أشياء تضرهم ولا تنفعهم، ولكنهم لا يعقلوها؛ بل سارعوا إليها لأول وهلة، بسبب اتِّباع أهواءهم، فلو أن الشرع وافقهم في ذلك وجاء بأهوائهم لحرجوا ووقعوا في مضار كثيرة ومهالك لم يعقلوها ولم يفهموها أولاً.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وهذا من فضله سبحانه وتعالى على الصحابة وعلى كل من تابع الصحابة =

....

= ودخل في دين الله؛ فالله تفضل عليه بأن حبب إليه الإيمان وزيَّنه في قلبه، وكَرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، فهذا من فضله وجوده وكرمه سبحانه وتعالى، فعلى من رُزق ذلك أن يحمَد الله ويشكره ويستقيم على الأمر ويحافظ عليه، ويسأل ربه الثبات عليه، وقد حكم الله على هؤلاء أنهم الراشدون، قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ فمن رُزق هذا الأمر، بأن حبَّب الله إليه الإيمان وزيَّنه في قلبه، وكرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، فهو الراشد، بالمعنى الكامل ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ حصرياً، كأنه قال: هم الراشدون لا غيرُهم، والمقصود: أن هذا يدل على أن فضل الله على العبد بأن يحبب إليه الإيمان ويزينه في قلبه ويكرِّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، فهذا من النعم العظيمة؛ ولهذا قال: ﴿ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾.

فجدير بالعبد الموفَّق لهذا الخير أن يشكر الله كثيراً، وأن يحمده كثيراً بقلبه، وأن يلزم هذا الشيء ويحافظ عليه ويسأل ربه الثبات عليه حتى يلقاه سبحانه وتعالى. =

....

= ثم يبين الله سبحانه وتعالى أنه عليم حكيم، وأن ما يرزقه لعباده ويمنُّ بها عليهم عن علمٍ وعن حكمة، لا عن مصادفة أو عن جهل؛ فهو ـ سبحانه ـ العليم الحكيم بما يشرعه لعباده، وبهدايته لبعض الناس وإضلاله لآخرين، ومن توفيقه لبعض الناس العلمَ وعدم توفيقه للآخر، إلى غير ذلك، فهو الحفيظ العليم بأقواله وأفعاله وشرعه وقدره سبحانه وتعالى.

ثم يبين جل وعلا ما قد يقع من بعض الطوائف من القتال والفتنة والانقسام والمشاقة، ويبيِّن الواجب على المؤمنين أن مثل هذه الفتنة ـ متى وقعت ـ فالواجب عليهم أن يكونوا في صف مَن بُغي عليه لا في صف الباغي، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ وهذا يبين لنا أن من الواجب الإصلاح أولاً بين المتقاتلَين والمتنازعَين؛ فإن لم يتيسر الصلح وأبت إحدى الطائفتين وبَغَتْ، وجب أن تقاتَل الفئة =

....

= الباغية، وأن يكون المؤمنون الآخرون في صف الذي بُغِيَ عليه؛ حتى تزول هذه الفتنة، وحتى يُقضى عليها.

ثم يُبيِّن سبحانه أنهم مؤمنون مع هذا الإنقسام ومع هذا التقاتل، وفي هذا حجةٌ ظاهرةٌ لأهل السنة والجماعة؛ لأن المعصية لا يكفُر بها المؤمن ولو كانت قتلاً، وهو معه أصل الإيمان، وإن كانت المعصية تضعف الإيمان وتُلحقه بالفُسَّاق إن لم يكن له تأويل؛ لكنا لا نخرجه من دائرة الإسلام، وقد خاطبهم الله أنهم مؤمنون، فقال: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾ فدَّل ذلك على أن الإيمان موجود، والأُخُوَّة موجودة مع هذا القتال؛ لأن القتال متأوَّل، ولأنه قتال لا يخرج صاحبه عن دائرة الإسلام إذا لم يستحلَّه ـ فهذا تأويل ـ كما عُلم بذلك أن الإنسان قد يَقتل وقد يُقتل وهو في دائرة الإسلام وفي دائرة الإيمان، لا يخرج عنهما؛ لأن ذلك قتل الذي وقع منه ومقدماته لم يحصل الاستحلال فيما حرم الله، وعاقلتُه مبرّأة من أمر الله؛ ولكنه عن تأويل وعن نظر فيما دعاه إلى ذلك؛ فقد يخطئ وقد يصيب؛ فهما موصوفان بالإيمان والإسلام مع ما وقع منهما من =

....

= الفتنة والقتال، ومع وجوب قتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله ومع الأخوة أخوة الإيمان؛ فالمعاصي تُضعف الإيمان وتُنقصُه إذا كانت عن غير تأويل، وصاحبُها على خطر إن لم يغفِرِ له الله سبحانه وتعالى.

ثم إن القتال ونحوه إذا وقع عن جهادٍ وعن قصدٍ للحق وعن تأويل؛ فصاحبه بين أمرين: إما يكون مُصيباً فله أجران، وإما أن يكون مخطئاً فله أجر؛ كما وقع بين أهل الشام وأهل العراق، وما أشبه ذلك بين عليٍّ وأصحابه وبين معاويةَ وأصحابه، فكلاهما مجتهد، وكلاهما طالب للحق؛ لكن أحدهما أقرب إلى الحق من الآخر وأصوب؛ فيكون له أجران والآخر له أجر واحد من أجل اجتهاده، وخطؤه مغفور، إن شاء الله.

وهكذا ما يقع من المؤمنين من هذا الجنس بالتأويل والاجتهاد؛ فإن صاحبهما بين أمرين: إما مجتهد مصيب فله أجران؛ وإما مجتهد مخطئ فله أجر واحد، وفي هذا رَدٌّ على المعتزلة والقدَرية النُّفاة، وعلى الخوارج أيضاً القائلين بأن المعصية يكفر بها المؤمن أو =

....

= يخرج بها من دائرة الإسلام، ويقولون بالمنزلة بين المنزلتين. كل هذا من أبطل الباطل عند أهل السنة والجماعة؛ بل صاحبها لا يخرج من دائرة الإسلام ما دام يؤمن بالله واليوم الآخر، وما دام لم يستحلَّ ما حرمه الله عز وجل، وإنما تأول بذلك أو فعل ذلك عن هوى ورغبةٍ في حظه العاجل، مع علمه بأنه ما حرم ذلك الشيء، وهذا الحُكم جاءت به النصوص من الكتاب والسنة، وكما ترى في الأخبار عن رسول الله عليه الصلاة والسلام من أن الله يُخرج من النار مَن كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، سواء كان زَنى أو قتَل أو سَرَق أو غير ذلك، فهذه المعاصي تُضعف إيمانه وتُنقصه، وتعرِّضه لغضب الله وعذابه؛ ولكن لا تُخرجه من الإسلام ما دام لم يستحلَّها وغلب عليه الهوى والشيطان. نسأل الله العافية والسلامة.

سورة الحشر

[التقوى وموجباتها]

۞ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]. [٣٩]

[شرح٣٩] هذه الآية الكريمة كآيات كثيرات غيرها، يأمر الله بها عباده المؤمنين أن يتقوه، وقد جاء هذا المعنى في عدة مواضع من كتاب الله عز وجل،وذلك يدل على أن المؤمن يُؤمَر بالتقوى كما يُؤمَر بها غيره.

وقد جاء في آيات أخرى توجيه الأمر إلى جنس الناس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]. =

....

= فالعبادة والتقوى مأمور بها جميع الثقلين: الجن والإنس، فكلاهما مأمور بتقوى الله وعبادته، ولهذا خُلقوا، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فوجب على كل ذي عقل من الجن والإنس أن يُعنى بهذا الأمر الذي خُلق من أجله، وأن يلتزم بما أُمر به، وبما فُرض عليه من تقوى الله سبحانه وعبادته وحده دون كلِّ ما سواه.

وتقوى الله: هي توحيده والإخلاص له ومراقبته بتعظيم أوامره وترك نواهيه، والوقوفِ عند حدوده في جميع الزمان والمكان، وهي أيضاً العبادة التي أُمِرنا بها في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، فإن عبادة الله: هي توحيدُه، والإخلاصُ له، والخضوع له، والذلُّ لعظمته في جميع الشؤون وفي جميع الأحوال، ولا يكون هذا إلا بفعل الأوامر وترك النواهي، أما الذي لا يمتثل أمرَ الله ونهيه، فإنه لم يعبده ولم يتقه.

فأما أمرُ الناس بالتقوى والعبادة، فهو ظاهر؛ لأنهم خلقوا لذلك، وفيه سعادتهم ونجاتهم، فوجب عليهم أن يتقوا الله وأن =

....

= يعبدوه ويعظِّموه.

وسُمِّي الدين تقوى لأنه يقي من التزمه عذابَ الله وغضبَه، فلهذا قيل للإسلام والإيمان والهدى: تقوى؛ لأن من التزم بالإسلام واستقام عليه وقاه الله عذاب الدنيا والآخرة، وأحسنَ له العاقبة.

وسُمي إسلاماً لما يتضمنه من الذل لله والانقياد له، بفعل المأمور وترك المحذور، يقال: أسلم فلانٌ لفلان إذا انقاد له، فالإسلام: هو الانقياد، فسمي الإسلامُ دينُ الله إسلاماً؛ لأن أهله يلزمهم أن يستسلموا لله، وأن ينقادوا لعظمته، وأن يعظِّموه ويُجلُّوه ويلتزموا أمره ونهيه.

وسُمي إيماناً لأن التزام العبد بما أمر اللهُ به ورسولُه، وتصديقَه لله ورسولِه هو الإيمان، فالإيمان مصدر آمن يؤمن إيماناً، مَن صَدَّقَ، فصاحب الدين والمنتسب للإسلام قد صدَّق الله ورسوله، فالتزم بدين الله، وعظَّم أمر الله ونهيه، وصدَّق أخبارَه، فهو مؤمن، ويسمى دينُه إيماناً.

ويُسمى ديننا أيضاً هدى؛ لأن صاحبه مهدي، ولأنه يهدي =

....

= من التزمه إلى طريق الخير والرشاد.

وسُمي إحساناً لما فيه من الإحسان إلى نفسك، وإلى عباد الله، فأنت بعبادة الله وحده والإخلاص له وعبادته كأنك تراه، قد أحسنت إلى نفسك، وقد أحسنت إلى عباد الله بفعل المأمور وترك المحذور، وبإلزامهم بالحق، وبأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، إلى غير ذلك.

فلهذا يقول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، ووجْهُ أمرِهم بالتقوى وهم متقون: أن الإيمان ذو شُعَبٍ قولية وفعلية، ظاهرةٍ وباطنةٍ، فهم مأمورون بأن يلتزموها ويعظِّموها ويستمروا عليها. هذا معنى قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: الزموا تقواه وسيروا عليها، وهكذا قوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، فالنبي رأس المتقين ـ عليه الصلاة والسلام ـ فمعنى أمرِهِ بالتقوى: هو الأمرُ بالتزامها والسيرِ والصبر والثبات عليها، وهكذا المؤمنون، يُؤمَرون بالثبات على التقوى، ولزومها والسير عليها، والنظر في جميع الشُّعب والفروع التي تتفرع عنها حتى =

....

= يلتزموها ويأخذوا بها.

فأنت مأمور بلزوم التقوى، ثم مأمور أيضاً بتفقد حالك ومحاسبة نفسك حتى لا تدع شيئاً من التقوى، ولا تفرطَ في شيء منها، وهكذا يأمرك بالإيمان لتلتزمه وتستقيم عليه، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦] فالمعنى: التزموا الإيمان واستقيموا واثبتوا عليه وسيروا عليه.

﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ أي: انظروا ماذا قدمتم للآخرة، فلتنظر كل نفس ماذا قدمت لآخرتها، فقد يترتب على الغفلة تضييعُ بعض الأوامر، أو ركوبُ بعض النواهي، فإذا حاسب الإنسان نفسه ونظر وتأمل فقد يعرفُ ما فرَّط فيه، وقد يعلم ما ركبه من محارم، فيبادر بالتوبة والإصلاح.

فالنظر فيه فوائد: ففيه حسابٌ للنفس، وفيه تتبع لأعمالها وأقوالها، وفيه نظر فيما ضيعت من أمرِ الله أو تساهلت فيه أو ارتكبته من محارم الله، فواجب على كل مكلف أن ينظر وأن يتأمل =

....

= ويحاسب نفسه، وألا يجازف في الأمور، وألا يغفل، فقد يكون على سيئة وهو غافل، وقد يكون مضيعاً لواجب وهو غافل، فوجب عليك أن تنظر فيما أنت عليه، وأن تحاسب نفسك، وأن تنظر ماذا قدمت لآخرتك.

وسُميت الآخرة غداً، تقريباً لها؛ لأنها هي التي تلي هذا اليوم، فالدنيا بمثابة يوم، وبعد هذا اليوم غدٌ، وهو يوم القيامة، فالدنيا كلها كيوم واحد، من أولها إلى آخرها، فهي أمرٌ زائل منتهٍ له حد، وما بعده هو الآخرة، فجدير بالنفس الزكية، وبمن تعزُّ عليه نفسُه، وبمن يهمه خلاصها ونجاتها أن يعد العدة، وأن ينظر للآخرة.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فإذا اتقى ربَّه وحاسب نفسه عرف ما له وما عليه، كالذي يحاسب نفسه من جهة البضاعة، أو يحاسب شركاءه، فيعرف النتيجة، وهذا أعظم وأهمُّ، فمحاسبة النفس فيما يتعلق بأمر الله وأمر الآخرة، من أهم الأمور وأعظمِها؛ لأنك مخلوق لتعبد ربَّك وتتقيه، ومخلوق لتحاسب هذه النفس عن أخطائها وتجاهدها بما يجب عليها. =

....

= ونتيجةُ المحاسبة أن المؤمن يعرف بعدها ما له وما عليه، فإن ظهر له أنه مستقيم وأن سَيرَهُ على الهدى ثابت، حَمِدَ اللهَ، وسأله الثبات، وعرف قدر هذه النعمة، وشكر اللهَ عليها، واستمر في الخوف والوَجَل حتى لا تزول أو يزول بعضها. وإن ظهر له بعد الحساب تفريطٌ وأخطاء كثيرة وأغلاط وعيوب، ـ وهذا هو الأغلب والأكثر ـ فعند ذلك يبادرُ بالتوبة وإصلاح ما وقع منه من أخطاء، وما زلَّت فيه قدمه، وما أضاع من أمر الله، وليجاهد نفسه لله، وليتبْ إلى الله مما فرَّط فيه، ويجدد له حالاً مع الله في ترك نواهيه والتزام أوامره والوقوف عند حدوده.

[النهي عن التشبه بأعداء الله]

۞ قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]. [٤٠]

[شرح٤٠] ينهانا سبحانه عن التشبه بأعداء الله الذين نَسُوا الله، يعني: أضاعوا أمره، وتركوه، وعاملوه معاملةَ من نسي، وقد لا ينسَون، لكنهم لا يبالون، فقد غلبت عليهم الأهواء، وشُغلوا بالشهوات، وغَفَلوا عن حق الله، فصاروا على خطر عظيم، وعلى شفا جُرُفٍ هارٍ.

فينبغي لك يا عبد الله أن تحذر مشابهة أعداء الله الذين أضاعوا أمره، ونسوا حقه، وارتكبوا نهيه، ولم يقفوا عند حدوده، فتهلك كما هلكوا، ولهذا قال جل وعلا: ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ يعني: أنهم لما نسوا الله بإضاعة الأوامر وترك النواهي أنساهم الله أنفسهم، إذ أنساهم أسبابَ النجاة والسعادة، وهل هناك شيء أعظمُ من أن تنسى نفسك، وتنسى نجاتها وأسباب سعادتها؟! =

....

= وهل عند الإنسان شيء أغلى من نفسِه ليسعى لنجاتها وخلاصها؟!

فإذا ضيَّع أمر الله ولم يبالِ، ونسي حقه فإنه هالك، ومن عقوباته أن ينسيه الله نفسه، فينسى أسباب سعادتها، وينسى أسباب نجاتها، وينسى أسباب رُقيِّها ورضا الله عنها، ويقع في ضد ذلك من أسباب هلاكها وغضبِ الله عليها وسوء مصيرها، نسأل الله العافية.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ فمَنْ نَسِيَ ربه وأنساه الله نفسه فهو الخاسر، وهو الفاسق، والفاسق: هو الخارج عن طاعة الله، والفسقُ: هو الخروج عن الشيء، ومن قول العرب: فسَقَتِ الرُّطَبة، أي: خرجت منها النواة، وسُميت الفُويسقة ـ المعروفة ـ؛ لأذاها وخروجها عن طبيعة أمثالها من الحيوانات الأخرى التي لا تؤذي.

[حال المتقي]

۞ قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]. [٤١]

[شرح٤١] ثم يبين حال من اتقى الله، وهم أهلُ الجنة، وحالَ من أضاع التقوى، وهم أهلُ النار، وأنهما لا يستويان، فلا يستوي هؤلاء وهؤلاء.

فهل يَحسُنُ بالعاقل ويليق به أن يرضى أن يكون مع الهالكين، وأن يكون مع أصحاب النار؟! لا ينبغي له ذلك، ولا ينبغي له أن يسيرَ في رِكاب الهالكين، فالواجب عليه أن يأخذ بأسباب النجاة، وأن يكون حازماً في الأمور كلها، لعلَّه يكون مع الناجين.

ولهذا قال سبحانه: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أصحاب الجنة ـ الذين أعدُّوا العدة، وسارعوا إلى مرضاة الله، وانتهوا عن محارمه ـ هم الناجون، وهم السعداء، وهم الفائزون بالعاقبة الحميدة والفضل الكبير والنجاة يوم القيامة.

[عظم القرآن الكريم]

۞ قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]. [٤٢]

[شرح٤٢] ثم يبين سبحانه أن هذا القرآن العظيم جدير بأن يتعقَّله المؤمن، ويُقبل عليه، ويعالجَ به أمراض قلبه ومجتمعه، وألا يغفل عنه، فهو صراط الله المستقيم وهو حبل الله المتين، وهو الهادي للتي هي أقوم، وهو الشفاء لما في الصدور.

لو أُنْزِلَ القرآنٌ على جبل أصم مكلَّف به، وأُمر بما فيه لخشع هذا الجبل خشوعاً عظيماً، وهو جبل حجر، ولربما تصدع وتفتت من خشية الله عز وجل، كما في الآية الأخرى في الحجارة: ﴿لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]، فهي لها إحساس إذا كُلِّفت بشيء، إحساس يليق بها ويناسبها، وربها سبحانه وتعالى هو الذي يعلم بها. =

....

= فلو كُلِّف الجبل بما في القرآن لرأيتَه خاشعاً متصدعاً من خشية الله، وأنت يا عبد الله، الذي أعطاك اللهُ عقلاً وروحاً وتمييزاً، قد أعرضتَ عن هذا الكتاب، ولم تخشع، ولم تخف ما فرطت فيه من تضييع أمر هذا الكتاب. فالمعنى أن هذا الجبل لو كُلف بهذا القرآن لكانت له حال غير حالك، وهذا بالنسبة إلى أغلب الخلق، وإلا فالخُلاصة من عباد الله لهم شأن مع كتاب الله، وامتثال عظيم وعناية وحذر وإقبال، ولكن أغلب الخلق ليسوا كذلك.

والمقصود من هذا: تنبيهك أنك جدير بأن تُعنى بكتاب الله، وأنت الذي أعطيت عقلاً، ولست كالجماد، إذ يهمك أن تعنى به، وأن تستقيم عليه، وأن تعالج به قلبَك حتى يطهر من أمراضه، وأن تعالج أمراض المجتمع حتى يستقيم على طاعة الله ورسوله.

ثم يبين صفاتِه العظيمة وأسماءَه الحسنى، وأنه جلَّ وعلا هو الإله الحق الذي لا إله غيره، وأنه مسمى بهذه الأسماء العظيمة:

[أسماء وصفات الله الحسنى]

۞ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٣]. [٤٣]

[شرح٤٣] فيبين سبحانه وتعالى هذه الأسماء العظيمة المشتملة على معانٍ جليلة، لتنتبه يا عبد الله لهذه الأسماء، وتتعقَّلها، وتعرف منها صفات ربك وأسماءه الحسنى، وأنه جل وعلا المستحق الذي يُعبَد ويعظَّم.

ويختم آية إنزال القرآن على جبل بأن الآيات إنما تُفَصَّلُ وتُوجَّهُ لمن يتفكر ومن يتعقل، والأمثال ليست لغير العقلاء، وإنما توجه وتُضرب لأهل التفكر والتعقل والنظر، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: =

....

= ٤٣]، فأنت يا عبد الله مأمور بالتعقل والتفكر والنظر؛ حتى تستفيد من أمثال الله ومن قصصه وأخباره، ومما يلفت إليه أنظار العقلاء من عباده؛ لتكون منهم. نسأل الله التوفيق.

* * *

فهرس الموضوعات

سورة البقرة

التذكير بنعم الله على بني إسرائيل ـ الآيات: ٤٠-٤٤ .... ٧

بيان ما وقع لبني إسرائيل من العقوبات ـ الآيات: ٥٨-٥٩ .... ١٢

تحويل القبلة ـ الآيات: ١٤٢-١٤٧ .... ٢٠

فضل الصابرين والمقاتلين في سبيل الله ـ الآيات: ١٥٣-١٦٤ .... ٢٧

التوجيه إلى مكارم الأخلاق ـ الآيات: ١٦٥-١٧٧ .... ٣٧

خلق الأهلّة حكم وأسرار ـ الآيات: ١٨٩-١٩٩ .... ٤٩

حكم القتال في الشهر الحرام ـ الآيات: ٢١٧-٢١٨ .... ٦٥

أحكام الحيض ـ الآيات: ٢٢٢-٢٢٧ .... ٧٤

كيف تحيا الأمم ـ الآية: ٢٤٣ .... ٨٣

الحث على الإنفاق ـ الآيات: ٢٥٤-٢٥٧ .... ٨٧

عاقبة المرائي ـ الآيات: ٢٦١-٢٦٤ .... ١٠٦

بعض أحكام الإنفاق ـ الآيات: ٢٦٧-٢٧١ .... ١١١

خطورة الربا ـ الآيات: ٢٧٥-٢٨١ .... ١١٨

أحكام المداينة ـ الآيات: ٢٨٢-٢٨٣ .... ١٢٩

إحاطة علم الله وتمام ملكه وقدرته ـ الآيات: ٢٨٤-٢٨٥ .... ١٤٠

سورة آل عمران

إثبات التوحيد لله، وإنزال الكتب على رسله ـ الآيات: ١-٧ .... ١٥٣
إن الدين عند الله الإسلام ـ الآيات: ١٩-٢٥ .... ١٦٥
التحذير من موالاة الكافرين ـ الآيات: ٢٨-٣٣ .... ١٧٤
عظمة قدرة الله تعالى في قصة زكريا ويحيى عليهما السلام ـ
الآيات: ٣٨-٤١ .... ١٨٧
قصة عيسى عليه السلام ـ الآيات: ٥٢-٥٥ .... ١٩٨
من مواقف أهل الكتاب ـ الآيات: ٦٤-٧٤ .... ٢١٢
الميثاق المأخوذ على الأنبياء ـ الآيات: ٨١-٨٦ .... ٢١٧
نداء لأهل الإيمان ـ الآيات: ١٠٠-١٠٧ .... ٢٢٨
فضل الأمة الإسلامية على غيرها من الأمم ـ الآيات: ١١٠-١١٤ ... ٢٣٧
التحذير الشديد من اتخاذ الكفرة بطانة للمؤمنين ـ
الآيات: ١١٨-١٢٠ .... ٢٤٦
غزوتا بدر وأحد ـ الآيات: ١٢١-١٢٥ .... ٢٥٥
النهي عن أكل الربا والحث على الإنفاق ـ الآيات: ١٣٠-١٣٦ ...... ٢٦٨

سورة النساء

آيات المواريث ـ الآيات: ١١-١٤ .... ٢٨٢

أسباب صلاح المجتمعات ـ الآيات: ٥٨-٧٠ .... ٢٨٩
السياسة الحربية في الإسلام ـ الآيات: ٧١-٨٠ .... ٣٠١
التحذير من الغلو في الدين ـ الآيات: ١٧١-١٧٦ .... ٣٠٩

سورة المائدة

الوفاء بالعهود ـ الآيات: ١-٥ .... ٣١٨
الوضوء والغسل والتيمم ـ الآية: ٦ .... ٣٢٤

سورة الأنفال

توجيهات حربية للمؤمنين ـ الآيات: ١٥-٢٦ .... ٣٣٣

سورة التوبة

إعلان الحرب على المشركين ـ الآيات: ١-٥ .... ٣٤١
سلوك رجال الدين من أهل الكتاب والتحذير منه ـ الآيات: ٣٤-٤٠ ... ٣٥١

سورة الكهف

مثل الحياة الدنيا ـ الآيات: ٣٢-٥٩ .... ٣٦٦

سورة مريم

قصة إبراهيم مع أبيه ـ الآيات: ٤١-٦٥ .... ٣٧٦

سورة الحجرات

من أدب الحديث مع الرسول ﷺ ـ الآيات: ١-١٠ .... ٣٩٠

سورة الحشر

التقوى وموجباتها ـ الآية: ١٨ .... ٤٠٢
النهي عن التشبه بأعداء الله ـ الآية: ١٩ .... ٤٠٩
حال المتقي ـ الآية: ٢٠ .... ٤١١
عظم القرآن ـ ٢١ .... ٤١٢
أسماء وصفات الله الحسنى ـ الآيتان ٢٢-٢٣ .... ٤١٤

للمراسلة
عبد السلام بن عبد الله السليمان
ص.ب ٢٨٠٨٤ الرياض ١١٤٣٧
E-mail:abdulsalam700@hotmail.com